اقرأ

أمين يوسف غراب

شباب امرأة





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



أمين يوسف غرّاب



اقرأ ٣٦٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٧ – مايو سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الطفولة



١

قال لها هامساً ، وهو يتلصص بعينيه على أمها التى تقف عند عتبة داره فى نهاية الحارة تتحدث إلى أمه : تعالى نلعب . .

فلم تجب . وإنما أشاحت بوجهها عنه كمن لا تريد أن تسمع . فاقترب منها خطوة . . وشدّها من ذراعها وهو يقول بصوته الهامس الذى يفيض حناناً ورجاء يود تحقيقه : تعالى نلعب . .

فالتفتت إليه غضبى . وقالت وهى تنظر إلى يده الصغيرة التى ما زالت معلقة بذراعها : أنا مخصماك . .

— من غير سبب ؟
— اتهمتنى بسرقة الكرة . .
— إننى سألتك عنها . .
— لا . . اتهمتنى بسرقتها . .
— حقك علىّ . . وغداً سأجىء لك بكرة غيرها . .
— من أين ؟

فقال وهو ينظر إلى ذراعها الصغيرة التى ما زالت معلقة فى يده : سمعت أبى يقول لأمى ، إنه عندما يذهب إلى السوق بعد غد ، سوف يشترى له جوربا جديداً ، وعند ذلك سوف آخذ جوربه القديم وأصنع لك منه كرة جديدة .

فقالت وهى تنظر إليه . . ونور جميل يتألق فى عينيها : سوف أصنع لك كرة من عندى . . فأبى يملك أكثر من جورب . . وأستطيع أن آخذ منها ما أشاء .

ومع أنه لم يفطن إلى شيء ، فإنها تداركت سريعاً جملتها الأخيرة ، وما فيها من حرج له ، لذلك عقبت ضاحكة ، وذلك النور الجميل ما زال يتألق فى عينيها : تصالحنا . .

فقال فرحاً : وسنلعب . .

— اسبقنى وسوف ألحق بك . .

— تعالى معى . .

— أعددت لك مفاجأة سارة . سأذهب لأحضرها .

فقال فى ابتهاج شديد : ما هى ؟

فنكست هدبيها الطويلين ، وهى تضحك ، وتضع أصبعها الصغيرة على غمازة فوق خدها المتورد ، وتقول ناظرة إليه : احزر . .

فقال مفكراً : كرة ؟

— لأ . .

— تؤكل ؟

— لأ . .

— تشرب ؟

— لأ . .

— ما هى إذن ؟

فقالت وهى تنسرق من أمامه ضاحكة . . . تقفز فى خطوات عالية كالغزال : اسبقنى وسأحضرها لك . .

فانصرف تغمره فرحة كبيرة . . ووقف ينتظرها على رأس الحارة حتى تجىء ، ويذهب معها إلى الجرن يلعبان مع الصبية على ضوء القمر فى رمضان ، الاستغماية — وجمال المالح — وحلقة ومضرب — إلى أن تدق طبلة عم نوفل المسحراتى أولى دقاتها ، فينصرف كل إلى بيته ، فرحاً مبتهجاً بما ظفر به فى هذه الليالى الجميلة من لعب .. ومرح .. ولهو بريء .

* * *

وبينما هو فى مكانه مرّ به عم نوفل تسبقه عصاه السنط الطويلة ، التى تهديه دائماً إلى الطريق ، ففزع الصبى لمرآه . وألصق جسده بالحائط فى الظلام حتى لا يشعر به . وقد انتابته حالة شديدة من الذعر ، وحالة أخرى من الاطمئنان أو الرضا لا يدرى . فهو إن ظفر به عم « نوفل» الليلة ، حرمه من الاستمتاع باللعب مع سلوى فى الجرن ، وإن لم يظفر به حرم الصبى نفسه من بعض الطيبات التى تعود عليه فى الليالى التى يقود فيها عم نوفل فى أزقة القرية وحاراتها ، يدق على بيوت الناس ليوقظهم للسحور والصلاة التى هى خير من النوم .

وظل الصبى فى مكانه من الحائط حائراً لم يقطع بأمر . ينظر فى خوف أو رضاً لا يعرف ، إلى عصا عم نوفل الطويلة ، وهى تقترب منه ، متمنياً من قلبه أن تخطئه ، ومتمنياً أيضاً من قلبه أن تظفر به . بيد أن الأولى هى التى كان لها التفضيل فى نفس الصبى ، لأنه كلما رأى العصا تقترب منه وخطوات عم نوفل المتعبة تدب إليه ، أطبق على شفتيه وألصق جسده بالحائط حتى ودّ لو أنه دخل فى قلبه ، ولكن عم نوفل كانت له حاسة شم قوية ، يستطيع أن يشم بها رائحة الناس ويميزهم ويتعرف عليهم ، لذلك ما إن اقترب من مكان الصبى حتى حول عصاه الطويلة إلى الجدار الذى يختبئ الصبى بجواره ، وقال على الفور : إمام ؟

فاضطرب الصبى وتعالت دقات قلبه وهو يجيب سريعاً : نعم ..

ــ أين كنت أمس . . وأول أمس . . وكيف تجعلنى أبحث عن غيرك ليمسك بيدى ويحمل عنى الفانوس ؟

فتلعثم الصبى وهو يقول : كنت أجود فى جزأى عم وتبارك ، كما قلت لى . .

ــ أنت تكذب . .

فقال الصبى خائفاً : اسأل أمى . .

ــ أملك شقية بك ، وبلعبك طوال الليل فى الجرن .

صمت عم نوفل لحظة ، ودق بعصاه على الأرض ثم قال : هل تريد أن أشكوك إلى أبيك ؟

ــ لا . . لا . . إنه يضربنى . .

قالها الصبى فى خوف شديد وهو ينظر إليه حتى لكأنه يظن أنه يراه . . فقال الشيخ : إذن ستسرح معى الليلة .

وأراد الصبى أن ينطق .. ولكنه التفت فرأى « سلوى » تهل على رأس الحارة من بعيد ، كما يهل القمر الوليد فى الأفق من بعيد ، فاضطرب ثانية وتعالت دقات قلبه ، وأحس بضيق شديد وقال خائفاً وعيناه معلقتان فى عينى الشيخ الضرير : سأسرح معك الليلة وكل ليلة ، فقط لا تشكونى إلى أبى .

ــ سأنتظرك فى المسجد . .

نطقها الشيخ وانصرف ، تسبقه عصاه ، تبحث فى الظلام عن بيت الشيخ الشافعى مأذون الشرع ليقرأ فيه بعض القرآن ، الذى تعود أن يقرأه أيضاً فى بيوت غيره من أهل القرية طوال شهر رمضان ، وفى غير شهر رمضان أيضاً . فعم نوفل له فى القرية مكانة ملحوظة ، ويقوم فيها بأعباء كثيرة . فهو برغم أنه كهل فى الستين من عمره ، وبرغم أن الأيام أتت على كل شىء فيه ، ولم تبق من جسده إلا ما يشبه الصورة القديمة التى تآكل إطارها وتسلل البلى إلى رسمها ، فهو مقوس الظهر ، معوج الساقين ــ برغم هذا كله هو فى القرية حركة نشاط دائمة ، لا تعرف الهدوء ولا الراحة ولا الملل . فهو ففيه المسجد الذى يؤذن فى الناس للصلاة . . وهو الذى يؤم الناس فى الصلاة . . وهو حانوتى القرية الوحيد الذى يغسل الموتى ويكفنهم ، ويتلو على رءوسهم القرآن عندما يخرجون من الدنيا . . وهو يتلوه أيضاً كل صباح فى بيوت

أهل القرية ــ بالمسانية ــ أى بالسنة ، نظير كيلة أونصف كيلة من الحنطة أو الشعير كل عام .

أما إذا جاء رمضان ، فهو أيضاً مسحراتى القرية الذى يجوبها كل ليلة بطبلته ، يدقّ بها الأبواب باباً باباً . وبرغم أن هذا كان يجهده كثيراً ، فإنه كان يسعده أيضاً . وهو لا يسعده وحده ، وإنما يسعد معه جماعة كثيرة من الصبية والصبيات والعجائز الذين يقطنون معه دهليز « المرعشلى » ، وهو دهليز كبير يضم أكثر من عشرين غرفة .. أوقفها واقفها على الفقراء الذين لا مأوى لهم من أهل القرية ، كما أوقف جناحاً من هذا الدهليز على «خولى» زراعة الوقف ، يقطنه هو ومن يشاء من أسرته ، وهو الجناح الذى يقطنه « إمام» مع أمه وأبيه .

وكان سكان هذا الدهليز جميعاً ، إذا جاء رمضان وطلعت عليهم بشائره فى الأفق ، غمرتهم فرحة لا حد لها ، وعاشوا جميعاً فى هناء زائد وسرور مقيم ، وذلك بسبب الصدقات الكثيرة التى كانت تنهال على عم نوفل فى رمضان ، وكان يوزعها على سكان الدهليز الذين كانت قلوبهم تطير من الفرح عندما يدخل عليهم نوفل بعد السحور حاملا جواله المكتظ بالخيرات ، ويفرغه أمامهم على الأرض ، فيلتفون حوله كالقطط الجائعة ، يستخلصون بأيديهم الصغيرة الجبن من العجوة ، ومخلل اللارنج والقثاء من البلح والجوافة ، والخبز الجاف من الكحك والمنين والغريبة ، وعظم الدجاج وقطع اللحم من رءوس الفجل والكرات ، وما إلى ذلك كله من خير عميم ، يظفر الصبى منه بالنصيب الأوفر دائماً .

فكر الصبى فى هذا كله سريعاً وهو فى مكانه يشيع الشيخ الضرير . ومرت به خيالاته مروراً سريعاً كالنور العابر ، فغمرته لذة كبيرة سال لها لعابه ، وودّ لو أنه سبق الزمن وانطوى سريعاً هذا النصف الأول من الليل ، ووجد نفسه برفقة الشيخ يحمل له الفانوس ، وهو يدق الطبلة ، فتتفتح الأبواب ، وتمتد الأيدى إلى الجوال بكل هذه الخيرات .

* * *

بيد أن هذا كله تلاشى فجأة ، وذاب كما تذوب قطرة الندى تحت وهج الشمس ، عندما التفت فرأى سلوى تقبل عليه وهى تحمل له فانوساً اشترته له حتى يكون مثلها ومثل بقية الصبية الذين يلعبون بفوانيس رمضان فى الجرن ، بيد أنه أحس عند رؤية الفانوس فى يدها بشىء كثير من الخجل ، وأحس بهذا الخجل يتزايد وهى تقدمه له . . وتقول فى فرحة غمرت وجهها كله وزادته بهاء : هذه هى المفاجأة التى أعددتها لك . .

ولما لم ترتسم على وجه الصبى الفرحة التى كانت تنتظرها ، وأدركت بذكائها سريعاً سر خجله وارتباكه . . قالت على الفور ، مسترسلة فى الضحك ، مستطردة فى الحديث : سأقول لك السر . . فقط لا تذعه على أحد . .

ـ أى سر ؟

ـ خالتى آمنة ـ تقصد أمه ـ هى التى اشترته لك . . وأنكرته منك لأنها غاضبة عليك . .

ـ لماذا ؟

ـ لأنك لم تحفظ بعد جزء عم . .

فتهللت أسارير الصبى وهو يتناول من يدها الفانوس ، ويشدها من ذراعها ، ويركض معها إلى الجرن قائلا فى ابتهاج : إن أمى لا تعرف شيئاً . لقد حفظت أيضاً تبارك ، وقد سمع ، والأحقاف ، وفصلت ، والزمر . وعما قريب سأحفظ نصف القرآن ، وأذهب إلى طنطا وألتحق بالمعهد الأحمدى . سمعت أبى يقول ذلك .

ثم أراد أن يقول لها شيئاً آخر ، ولكن ساحة الجرن الكبيرة طالعتهما مكتظة ممتلئة بصبية القرية يحملون الفوانيس المضاءة ويركضون بها فى ساحة الجرن الذى تراءى لهما من بعيد كساقية فوانيسها من النجوم الباهرة التى تتلألأ فى الليل ، فوقفا بفانوسيهما ينظران إلى مئات الفوانيس

الأخرى فى فرحة غامرة ، وكل آمال الصبى والصبية أيضاً أن يظل رمضان فى القرية طيلة شهور السنة ، بل طيلة أيام العمر ، حتى يدوروا فى هذه الساقية .

٢

لم يشعر الصبى فى حياته بسعادة خالصة كهذه التى أحسها هذه الليلة ، وهو يلعب « الاستغماية » مع سلوى فى الجرن ، يكر معها ويفر . . يركض ويقفز . . يراوغها وتراوغه . . يهرب منها بين الصبية حتى لتكاد تفتقده . . ويظهر لها فجأة من بين أرجلها فتأخذها المفاجأة . . وتقفز على كتفه حتى لا يهرب منها مرة أخرى ، ويلعب معها « جمال المالح» فيسير على أربع ، ويروح يقفز أمامها مغمض العينين كما يقفز الأرنب الضرير فى الفضاء ، وهى تطارده من أمام ومن خلف . . وتطارده عن شمال وعن يمين ، حتى إذا ما ضيقت عليه الخناق ، وأدخلته تلك الدائرة التى يجب عليه ألا يدخلها ، قفزت كالفارس على ظهره ، وامتطته كما تمتطى الجواد ، ولفت به حول الدائرة سبع مرات. وكلما توانى ركلته فى فخذه أو ضربته على رأسه . . وهذا جزاء الذى يقع فى الدائرة .

وظل الصبى كذلك ناسياً كل شىء إلا هذه السعادة التى هو فيها . إلى أن وقف فجأة مضطرباً ، حائراً ، يستمع إلى صوت طبلة عم نوفل التى تناديه . وينظر بعينه إلى الفتاة التى تريد أن تواصل اللعب معه . إن شيئاً ما يلح عليه أن يبقى . . وآخر يناديه أن يذهب . . إنه قد وعد عم نوفل بالذهاب إليه هذه الليلة ، وهو يريد أن يبر بالوعد . لا من أجل تلك الصدقات التى سوف يظفر منها بنصيب . . وإنما من أجل تلك الأجزاء الثلاثة من القرآن التى لم يحفظها بعد . . ويخشى أن يتسلل خبرها إلى أبيه عندما يجىء من التفتيش ليلة الجمعة ، فيثور ويغضب . .

وسوف يفضح سره عم نوفل إن هو أخلف وعده معه هذه الليلة ولم يذهب إليه . . وهو إن أذاع سره هذا فلن يذيعه فقط . . وإنما سيذيع معه أنه هرب منه أكثر الليالى التى مضت . . وسيذيع أيضاً أنه سرق البيض من أمه واشترى به « حلاوة طحينية» . ومن يدرى ربما لم يكتف بالحقائق فيضيف إليها أشياء ويختلق معها أشياء . . ويقول له مثلا إنه لم يحفظ بعد شيئاً من تلك الأجزاء الثلاثة ، مع أنه يعلم علم اليقين أنه يحفظ « عم» و « تبارك » عن ظهر قلب . . وأن الذى ينقصه فقط فى جزء « قد سمع » هو التجويد . .

ونظرت الفتاة إلى الصبى الذى توقف عن اللعب فجأة ، وإلى عينيه المضطربتين وقالت فى دهشة : إمام . . ما بلك ؟

ــ لا شيء .

ــ هل تعبت ؟

ــ . . فقط أريد أن أذهب إلى عم نوفل . .

والفتاة تعلم مدى النفع الذى يعود على الصبى من مصاحبته عم نوفل فى هذه الليالى . . لذلك قالت له متهللة الوجه مصطنعة الضحك والسرور : اذهب . . اذهب إليه . .

ــ وأنت ؟

ــ سألعب قليلا . . ثم أنصرف إلى البيت . .

وكأنه كان ينتظر منها أن تنصرف معه فقال : لقد دقت الطبلة . .

فقالت ضاحكة وهى تتناول فانوسها من على الأرض وتهم باللحاق بالصبية الآخرين : بدرى . .

وأراد الصبى أن يقول لها شيئاً آخر ، ولكنها كانت قد غابت عن عينيه ، فانصرف إلى المسجد حيث عم نوفل الذى التقى به على باب المسجد ، يحمل بجواله الذى صنعه على هيئة مخلاة علقها بحبل على كتفه ، كما علق الطبلة التي كان يحملها على صدره بحبل فى الكتف الثانية ،

وأمسك بيده اليمنى عصاه السنط الغليظة يدق بها الأرض ، كما يدق الطبلة بعصا أخرى صغيرة أمسك بها فى يده الثانية . فاقترب الصبى منه بدون أن ينبس ، ومد إليه ذراعه الصغيرة ولفها على ذراع الشيخ . . ومن ثم سار بجانبه ، يستمع كما يستمع كل ليلة إلى الشيخ وهو يردد مترنماً بصوته الأجش المبحوح ، سجعاته المعروفة المتكررة التى لا تتغير : « يا سيد فلان يا أصيل الجدود – ياللى العطا طبعلك ، وأصلك يجود» .

وكان كل من فى القرية – عند عم نوفل – أصيل الجدود . وكانت لعم نوفل قدرة عجيبة فى معرفة البيوت وأسماء سكانها . فما كان على الصبى عندما يبلغ أول الزقاق ، أو الحارة ، إلا أن يقف به ويهمس له باسم الحارة أو الزقاق فقط ، فيعرف هو على الفور بيوت الحارة أو الزقاق بيتاً بيتاً ، ويردد أسماء سكانها اسماً اسماً ، وهو يدق على الطبلة مترنماً بسجعاته . ويظل كذلك ولو وقف طول الليل حتى يفتح الباب ، ويخرج صاحب البيت أو صاحبته أو أى إنسان آخر ويناول الصبى ما يجود به ، فيتناوله الصبى صامتاً ويضعه فى الجوال ، ثم ينصرف إلى بيت آخر . . وكثيراً ما كان الشيخ يسأل الصبى بعد أن يغلق الباب ، عن الذى وضعه فى الجوال ، فيخبره الصبى عن الصدقة التى تصدق بها صاحب البيت أو صاحبته ، خيارة ، قطعة جبنة ، قطعة عجوة ، كعكة ، شقة بطيخ ، وكانت قسمات وجه الشيخ تنفرد وتنقبض وفقاً لإجابات الصبى .

وظلا كذلك يسيران إلى أن بلغا دوار العمدة ، وكان العمدة يتناول سحوره هذه الليلة على المصطبة أمام الدوار ، ورأى الصبى ما حفلت به « الطبلية» من طعام شهى ، فهمس بذلك سريعاً للشيخ . وقد كان الاتفاق بين الصبى والشيخ أن يهمس له الصبى بكل شىء . وما إن قال الصبى للشيخ ما قال حتى تسمر الشيخ فى مكانه ، وقد تهلل وجهه ، وانفرجت أساريره ، وتطلق جبينه المترهل ، واهتزت يده مرتعشة على

العصا وكأنها ترقص طرباً . . ومن ثم راح بصوته الأجش المبحوح يرسل فى الليل عقيرته ، متغنياً بسيد القرية ، بل سيد القرى جميعاً ، وعمدتها الذى بعث الله به إليها ، ليهديها من ضلال ، ويخلقها من عدم ، معدداً مناقبه وأخلاقه وصفاته وكريم سجاياه وأفضاله على الدنيا كلها ، وحسناته على الناس والخلق أجمعين . ثم راح يصف كسمه ورسمه وجماله ، ثم أصله وفصله وفرعه وسلالته التى تنتمى إلى الأنبياء والرسل . .

وظل كذلك حتى استنفد الشيخ كل ما فى جعبته . ولم يبق فيها شىء يقال لأحد . وقد أثلج هذا المديح صدر العمدة ، وملأ قلبه غروراً وكبرياء ، ومشاعره لذة وابتهاجا ، فلم يصرفهما كالعادة سريعاً بشىء يجود عليهما به من الذى حفلت به « الطبلية » أمامه ، وإنما ظل يصغى إلى هذا المديح ، ويستمع فى نشوة إلى هذا الثناء وإلى أصله الكريم الجدود ، وشجرته التى أصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ، وسلالته التى تتطاول على الخلق أجمعين بانتمائها إلى الأنبياء والرسل ، حتى تعب الشيخ وتصبب العرق من جبينه المتجعد ، وسال قنوات على تلك الأخاديد التى أحدثها الزمن فى وجهه وحول عينيه ، وحتى بح صوته وخفت وغدا أشبه بعواء القطط وهى تلف حولك وتبصبص لك بذنبها مستجدية وتتمسح بك لتطعمها .

ولما بلغ الشيخ هذا الحد من الإعياء ، وعجز صوته عن أن يصل إلى الآذان واضحاً ، أشفق عليه العمدة إذ رفع يده وأشار إلى الصبى ، فترك الصبى الشيخ سريعاً ، وقفز إليه كما يقفز كلب الصيد إلى القنص ، ولما مثل أمامه ، مد الرجل يده إليه وأعطاه ورك دجاجة سمينة كانت فى يده ، فتلقفها الصبى غير مصدق ، ولما عاد إلى الشيخ لم يضعها فى الجوال كبقية الصدقات الأخرى ، وإنما حشرها فى جيبه سريعاً ، وحشر فوقها أيضاً ورقة صفراء خشنة كانت فى يده ، وحشر هذه الورقة جيداً وبإحكام . وهو لم يفعل ذلك خشية على جيبه أن يتلوث ، وإنما



حرصاً على ألا تنفذ رائحتها الشهية إلى خياشيم الشيخ ، فيعرف الحقيقة . ومن ثم تأبط ذراع الشيخ وانصرف معه . وفى الطريق ، وبعد أن ابتعدا قليلا ، ارتسمت على وجه الشيخ هالة من نور ، وهو يلتفت إلى الصبى قائلا : ماذا أعطاك سيدنا العمدة ؟

فقال الصبى فى خبث وخوف وهو ينظر إلى عينى الشيخ المغلقتين ، وكأنه يخشى أن يرجع إليهما البصر : كسرة من الخبز وبعضاً من عظم الدجاج .

فتلاشت تلك البسمة التى كانت تتألق على وجه الشيخ وقال مقطباً فى تحسر شديد : لهم اللحم ، ولنا العظم !

فقال « عم فضل» السقاء ، وهو يقترب منهما لاهثاً يحمل على ظهره قربة ماء كبيرة ، وكأنه يحمل أعباء الدنيا وأثقالها فوق ظهره : ولهم الدنيا ولنا الآخرة يا عم نوفل .

فابتسم الشيخ ابتسامة صفراء ، وقال فى ضيق وهو يتمتم بصوت خافت وكأنه يخاطب نفسه : ومن الذى اختار لنا هذا ؟

— استغفر . . استغفر يا نوفل . . وفى السماء رزقكم وما توعدون .

نطق عم فضل هذه الكلمات فى سرعة ردت إلى الشيخ صوابه ، وجعلته يفطن إلى ما قال ويكفر عنه سريعاً ، فحوقل واستغفر وبسمل وهمهم بشفتيه وهو يتلو فى صوت مسموع : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) .

قالها الشيخ وهو يمسح على شفتيه ويقول مخاطباً عم فضل : صحيح يا فضل . . الخير فيما اختاره الله .

فقال الصبى للشيخ وهو يتحسس بيده الكنز الذى فى جيبه ، ويحشر فوقه الورقة مرة أخرى حتى لا تنفذ رائحته : عم فضل دخل بالقربة حارة الدناصورى .

فصمت الشيخ ولم ينطق ، وظل صامتاً ، حتى بلغ به الصبى نهاية الحائط ودخل معه الدهليز ، فألقى بالجوال فى وسطه ، كما ألقى بجسده المتعب بجواره . وبعد أن استراح قليلا ، دس يده فى قلب الجوال ، وأخرج منه بعض الطعام ، أكل منه ما شاء ، ثم تركه كالعادة للذين يقطنون الدهليز ، فتجمعوا حول الجوال ، وتهافتوا عليه ينبشون بأظافرهم فى قلبه ، كما تنبش الكلاب فى صناديق القمامة تماماً ، وانصرف هو إلى المسجد ، ليؤم بالناس صلاة الفجر . أما الصبى فقد اختفى عن الأنظار حتى عن أمه ، وجلس بجانب الحائط من الحارة فى الظلام ، وأخرج من جيبه ورك الدجاجة ، وهم أن يأكل ، بيد أنه تذكر شيئاً ، أوقفه عن الأكل وجعل يده ترتد بالكنز الذى فيها .

حقيقة أن سلوى سوف لا ترحب كثيراً بهذه الهدية لأنها تأكلها كثيراً ، ما من يوم يمر إلا ويرى أمام باب بيتها ريش الدجاج وعظمه ، وفى غير رمضان أيضاً . وهى ربما ترفضها لأنها لا تحب — كبنات الأغنياء — أن تشارك فى طعام يتصدق به الناس . ولكن من يدرى ربما لا ترفضها من يده هو ! وحتى لو رفضتها فسوف لا ترفض الاعتزاز بهذا الصنيع الذى هو غاية ما فى طوقه ، وسوف تشعر بأنه يتذكرها دائماً حتى فى الشيء الذى يأكله . ولكن أين هى الآن ؟ هل عادت من الجرن ؟ هل نامت ؟ هل ينتظر إلى الصباح ولا يأكل ورك الدجاجة الليلة ؟ أيبقيه معه حتى يلتقى بها ؟ وبينما هو يفكر هذا التفكير إذا بباب بيت الناظر يفتح ، ويخرج منه الأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل بطربوشه الأحمر القانى وجلبابه الأبيض الناصع ، والقبقاب فى قدمه فى طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر جماعة ، وما إن اقترب قليلا ورأى الصبى حتى قال له : لماذا أنت وحدك فى الظلام يا إمام ؟

فقال الصبى وعينه ما زالت معلقة بالباب الذى خرج منه الناظر : كنت أصحب عم نوفل إلى المسجد .

فقال الناظر مداعباً وهو ينصرف : حسبتك ستصلى معنا الفجر .

ووجد الفتى نفسه يلحق به ويسأله : « هل نامت سلوى » ؟

فقال الرجل مستطرداً فى مداعبته : وهل تنام العفاريت ؟ ما زالت على السطح تلعب بحجة أنها تنتظرنى حتى أعود من المسجد .

فغمرت الصبى فرحة لم يكن لينتظرها ، ورجع يركض إلى الدهليز ، وذهب إلى السلم الخشبى الملقى على جداره من الداخل ، وراح يقفز عليه كما يقفز الأرنب فى الليل حتى بلغ سطح الدهليز ، ومن ثم وقف يتلفت على سطح بيت سلوى الذى يجاور سطح الدهليز مباشرة ، وما إن رآها لاهية مستغرقة فى اللعب تقفز تلك القفزات السريعة التى يمر مع كل قفزة من تحت قدميها الحبل الذى تمسك بطرفيه فى يديها ، حتى أشار إليها إشارات سريعة جداً كمن يريد أن يلفت نظرها إلى أمر هام ، فتوقفت عن اللعب ، ووقفت فى دهشة تنظر إليه من بعيد . ولما عاود إشاراته السريعة لها ، أقبلت عليه . ولما لم يبق بينها وبينه سوى الحاجز الصغير الذى يفصل بين السطحين سألته متلهفة وهى تحاول أن ترى وجهه من خلف الحاجز ، فلا تستطيع : ماذا تريد ؟

فقال وهو يشب على قدميه ليراها ، ويشير لها بيده أن تتبعه عند قبو الطاحونة ، وهو الذى ينتهى بالسطحين من الخلف ، وينتهى عنده الحاجز أيضاً ، وهى طاحونة مهجورة تهدم سقفها ، وتعود سكان الدهليز أن يحفظوا فيها الروث والنفايات الجافة والتبن الذى تأكله الماشية فى الصيف ، فازدادت دهشتها وقالت : لماذا ؟

— معى لك هدية حلوة . .

— أبقها إلى الصباح . .

— تحمض . .

ولما عرفت أن الهدية تؤكل تلاشت الابتسامة الخفيفة التى كانت قد ارتسمت على ثغرها ، وقالت وهى تهم أن ترجع : أنا تعشيت . .

ــ أرجوك .

نطقها الصبي فى ذلة وفى رجاء ملح يشوبه ألم خفيف استشعرته الفتاة وأحست به ، وأشفقت على الصبي من أن ترفض له طلباً يحزنه إلى هذا الحد أن يرفض . فراحت تركض بجواره على السطح ، وبينهما الحاجز ، ويركض هو بجوارها فى الليل ، وكلما تحسس الكنز الذى فى جيبه ، وكلما رأى الفتاة بجواره تركض لتقتسم معه ورك الدجاجة ، غمرته فرحة لا حد لها .

ووقف الصبي أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئاً . . بيد أن هذه السعادة تبددت فجأة، أو لعلها تبددت بشىء آخر لم يكن الصبي ليعرف أن له وجوداً فى الحياة ، فقد حدث أنهما عندما بلغا قبو الطاحونة سقطا معاً فى قلبها ، كما تعودا أن يسقطا دائماً فى قلبها وهما يلعبان. غير أن سقوطهما هذه المرة جاء فوق كومة عالية من التبن انهارت بهما معاً ، فتعالى صراخهما الضاحك ، وصخبهما المرح ، وكل منهما يحاول أن يمسك بصاحبه حتى لا يسقط فوق الأرض ، وكادت هى تسقط فعلا ، فمد يده سريعاً ليمسك بها ويمنعها من السقوط . وما إن فعل حتى رد يده سريعاً أيضاً ولكن فى غضب ، وقد تجهم وجهه فجأة واربدت سحنته وهو يقول لها فى صوت خشن لم يتعود أن يخاطبها به من قبل : أهكذا تكذبين على ؟

فانعقد لسان الفتاة دهشة وقالت فى استغراب شديد وهى تنظر إليه : أنا كذبت عليك يا إمام . . وفى ماذا ؟

ــ تسرقين الكرة ، وتخفينها فى ثيابك ، ثم تدعين عدم رؤيتها ؟

فازدادت دهشة الفتاة إلى حد كبير وهى تقول : أنا سرقت الكرة يا إمام . . ؟

فقال الصبي فى غضب : أيوه . .

ــ من قال ذلك ؟

فنظر إليها مشيراً إلى مكان ما فى الصدر وقال : إذن ما هذا الذى تخفينه فى صدرك ؟

ونظرت الفتاة سريعاً وبدون وعى إلى المكان الذى يشير إليه ، وما إن رأت « الكرة » التى أخفتها فى صدرها حتى اضطربت أنفاسها ، واحمر وجهها خجلا ، وتوردت وجنتاها ، وغدتا باون الدم ، ولهثت أنفاسها ، كما تعالت دقات قلبها فى سرعة شديدة ، وأطبقت شفتيها فلم تجب .

ورأى الصبى كل ذلك ، وظن أن اكتشافه « للجريمة » هو الذى أخزاها كل هذا الخزى ، وهو الذى ورد وجنتيها حتى أحالهما هكذا إلى هذه الحمرة القانية ، وعقد لسانها خزياً وخجلا واضطراباً ، فقال وهو يتركها وينصرف إلى باب الطاحونة الموصل للحارة ، والغضب ما زال فى عينيه : سأخاصمك .

فتمتمت الفتاة فى حرج شديد محاولة أن تحرك ساقها التى خدرت وتسمرت فى مكانها لتلحق به : إ . . . إ . . . إمام . .

— لا تذكرى اسم « إمام» ثانية على شفتيك !

وكانت قد لحقت به . . فوقفت مرتبكة جداً ، محاولة ما استطاعت أن تخرج نفسها من هذا الخجل الذى ألم بها ، وهذا الاضطراب الشديد الذى يكتنف كل جزء فى جسدها . وأخيراً استطاعت أن تنطق متمتمة فى صوت خفيض ملتهب أحست حرارته تنساب كألسنة اللهب من بين شفتيها : أنا لم أسرق الكرة يا إمام . .

فالتفت إليها الصبى ، وقد آلمه أن تغالطه إلى هذا الحد ، وقال فى حدة وغضب : وتكذبين أيضاً ؟

— ولم أكذب . . .

فقال متحدياً فى غضب وثورة : أأكسفلك ، وأمد يدى إلى صدرك وأخرجها منه ؟

فاضطربت الفتاة فى خوف شديد ، وقالت متلعثمة تنظر إليه ، ودقات قلبها أكثر خفقاناً وأكثر عنفاً : إن هذه ليست كرة يا إمام . .

فالتمعت عيناه فى الظلام ، وهو ينظر إليها فى غيظ ، ويقول فى نفس السرعة التى مد بها يده إلى صدرها : إذن ما هذه ؟ !

وما إن فعل حتى ارتدت يده فجأة . . مضطربة . . ترتعش فى خوف وألم كأن أحداً ضربه عليها ضربة موجعة ، ومرت به لحظات ثقال راح فيها يلهث وهو مغمض العينين ، وقد أحس بدوار شديد جعل جسده كله أشبه بدوامة تلهث فيها أحاسيسه ، ويغلى فيها دمه ، وتصطرع فيها عواطفه ، ويختلط بعضها ببعض فى عنف وقسوة .

ووقف الصبى أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئاً . . يريد أن يعتذر لها عن هذا الجرم الذى ارتكبه . . عن هذه التهمة التى اتهمها بها . . يريد أن يقول لها شيئاً آخر غير هذا كله . . ويعتذر لها عن يده هذه التى « تطاولت» بدون قصد . . ولكن ألا بد أن يعتذر ؟ . . ألا يكفى كل هذا الذى يعانيه ؟ ألا تكفى هذه النار التى أحرقته ؟ . . هذه الدوامة التى يصطرع فيها كيانه كله الآن ! . . ألا يكفى كل هذا ؟ ! وإذا اعتذر فهل يقول لها كل شىء ؟ ثم ما هو هذا الشىء الذى سيقوله لها ؟ . . سيعتذر لها عنه . . إنه هو نفسه لا يعرفه . . إنه يحس به فقط . . ويحس به أشبه ما يكون بثعبان كبير يستيقظ ويتثاءب ويتمطى فى جسده فيشد معه الجسد كله شداً عنيفاً إلى شىء مجهول . . شىء جعله فجأة إنساناً غير الذى كان . . إنساناً يزيد على عمره سنين طويلة . يزيد عن قوته قوى أخرى هائلة . . إنه الآن أشبه بعملاق يستطيع أن يفعل كل شىء . وأن يطبق على كل شىء . وأن يحطم أيضاً كل شىء ، فهل يقول لها هذا ؟

أيتحدث إليها به أم يتحدث إليها عن شىء آخر يعانيه الآن ؟ . . هل يحدثها عن لسعات هذه النار التى تلدغ كل كيانه حتى لتكاد تشويه

. . تحرق أحاسيسه حتى لتكاد تحيلها إلى رماد . . تعض جسده حتى لكأنها ناب الثعبان الذى يتمطى فى كيانه ؟

ولكن ما هذا الشيء الذى له كل هذه القوى .. كل هذا السحر ؟ فيه هذه النار . . وفيه أيضاً هذا النور . . فيه الضعف والقوة . . فيه الرضا به والسخط عليه . . فيه الشوق إليه والخوف منه ؟ !

وهل هى أحست به أيضاً ؟ هل تعرفه ؟ هل ألم بها كما ألم به الآن ؟ هل تفتحت له أحاسيسها فى نشوة كبيرة . . كما تفتحت لها أحاسيسه فى نشوة كبيرة ؟ . . هل حرقتها ودمرتها كما حرقته الآن ودمرته ؟

مرت به كل هذه الأحاسيس سريعاً وهو ما زال بجوارها مغمض العينين ، وذراعه التى تؤلمه مدلاة بجانبه أشبه ما تكون بثعلب صغير ميت علقه فى كتفه . . ولما رأته كذلك أشفقت عليه ، وجاهدت نفسها حتى أزاحت عن وجهها المتورد وعينيها المحمرتين بعض الخجل الذى ران عليهما ، وحركت شفتيها فى جهد لا حد له ، وتمتمت بصوت خجول جداً : إمام . .

ولما لم يجب استطردت : أنا مسامحاك . .

وهم هو الآخر أن يفتح عينيه ، ويجاهد نفسه ليقول لها شيئاً ، ولكنه سمع غيره يقول لها : أما زلت ساهرة ؟

فارتمت الفتاة فى أحضان والدها وهى تقول ضاحكة : كنت أنتظرك حتى تصلى الفجر .

وقال الشيخ نوفل الذى كان يتوكأ على عصاه ويسير بجواره ، وكأنه يتم حديثاً بدأه : إن شاء الله الإقامة ستكون فى مصر نفسها . .

— طبعاً ما داموا قد نقلونى إليها .

— ومتى السفر إن شاء الله ؟

— أغلب الظن غداً . . أو بعد غد . .

فقال الشيخ الضرير فى ألم وهو يدخل معه الحارة : ستعيش القرية

حياتها تذكر ابنها البار . . فهل تتذكرها أنت . . يا أستاذ شرنوبى ؟

— وهل ننسى الأهل . . والذكرى الطيبة يا شيخ نوفل ؟

وكادت عين الشيخ نوفل تدمع وهو يصافحه وينصرف إلى الدهليز. كما انصرف الأستاذ الناظر وابنته سلوى إلى البيت .

٣

كان الصبى فى الظلام يصغى إلى هذا بانتباه . . ثم انصرف هو الآخر . . ولكن إلى أين ؟ لا يدرى . هل انصرف إلى الدهليز ونام فى الحجرة مع أمه التى تشكو داءُ الكبد وتعانى من آلامه ما عجزت عنه وصفات القرية جميعاً ، وعجزت عنه أيضاً تذكرة داود التى يحفظها — عن ظهر قلب — الأسطى شلبى ، حلاق الصحة . أو نام الصبى فى تلك الليلة فى مكانه خلف جدار الطاحونة ؟ وهل نام نوماً هادئاً ، أو ظل نائماً ليستيقظ أو مستيقظاً لينام ؟ !

وهل داعبته فى النوم تلك الأحلام المزعجة المخيفة التى مرت به وهو نائم . . أو هو لم ينم وإنما ظل مستيقظاً . . يصغى بانتباه إلى ذلك الحديث القصير الذى دار بين الرجلين ، والذى كان لمعانيه وألفاظه فعل النار فى أذنيه ؟ ! إنه لم يذكر قط شيئاً من هذا كله ، وإنما الذى يذكره جيداً أنه بعد صلاة العصر فى اليوم التالى ، وهو فى المسجد يجلس أمام الشيخ متربعاً بجوار المنبر يهتز ويميل ذات اليمين وذات الشمال ، ويده على صدغه وهو يتلو ويجود السورة الأخيرة من « قد سمع » — اصطدمت يده بشىء كان فى جيبه . ولما تبينه بعد أن خرج من المسجد وجده ورك دجاجة أزرق اللون . . تتصاعد منه رائحة عفنة كريهة ، فمد يده وألقى به لكلب كان يسير بجواره فى الطريق . . ومن ثم واصل السير . .

ودلف سريعاً إلى الدهليز ، ودخل الحجرة التى تنام فيها أمه . . ولما

لم يجدها اقتحم باباً صغيراً يفصل بين الحجرة و « التعريشة » ، وهي خلف جدار الدهليز بجوار الطاحونة ، ذات أربعة جدران مجدولة من أعواد الحطب والبرص وعيدان الذرة ، وسره أنه رأى أمه معافاة متمالكة قواها ، وقد علفت الجاموسة وأشعلت الكانون ووضعت القدر عليه . . وشم الصبي رائحة البخار التي تتصاعد من القدر . . ونظر في داخله فرأى بعض حوافر الماعز وأرجلها تتناهبها النار في قلبه ، تغوص حيناً وتطفو أحياناً ، فتذكر أن اليوم يوم الخميس ، وهو اليوم الذي يجيء فيه أبوه من التفتيش ليبيت معهما في القرية . تذكر الصبي هذا كله وطرب له ، وزاده طرباً هذا الاهتمام الزائد الذي تظهره أمه دائماً في كل مناسبة لأبيه . لذلك قال لها فرحاً وهو يرتمي في أحضانها كطفل : لماذا لا تريحين نفسك وتكلفيني ببعض هذه الأعمال ؟

فقالت ضاحكة وهي تربت على كتفه في حنان : لو أنك فتاة لعلمتك كيف تحلب الجاموسة ، وتجلس أمام الكانون ، وترتق لي ولأبيك الثياب ، ولكنك رجل .

فقال الصبي ضاحكاً وهو يقبلها عند كتفها : وبماذا يكلف الرجل ؟

— أن يحفظ القرآن . . ويذهب إلى المعهد . . وينال الشهادة ، ويصبح « خوجه » كما تريد له أمه ، ويتمنى له أبوه . .

فقال في مرح وهو يقطب ويقفل ما بين حاجبيه مداعباً : إنني أقصد الآن . .

فقالت وهي تنحيه بعض الشيء ، وتمسك بملعقة كبيرة من الخشب وتديرها في قلب القدر : أريدك أن تذهب الآن إلى بيت عمك الناظر . . لتشحت لنا من خالتك الست صبرية رأساً من الثوم . .

فنهض الفتى سريعاً ليقوم لأمه بهذه المهمة . . بيد أنه عند الباب تذكر شيئاً فوقف متردداً . . وكاد أن يرجع ثانية لولا أنه وجد نفسه أمام بيت الناظر يدق بيده الباب دقات لا تكاد تحدث صوتاً ولا يكاد يسمعها

أحد ، ومع ذلك سمعتها الست زوجة الناظر التى فتحت الباب وقالت مبتهجة للصبى عندما رآته : إمام ؟ ! تفضل . .

نسى الصبى الشيء الذى جاء من أجله ، ووجد نفسه يسأل مرتبكاً وهو يمد نظراته المضطربة . . ويتسلل بها خلسة داخل الدار : أين سلوى؟

فقالت الست صبرية فى ابتهاج شديد ، وهى تمد يدها إلى الشال القطيفة الأحمر الذى على رأسها . . وتغطى به شيئاً كان قد لاح عند الكتف : ذهبت مع عمك الناظر إلى مصر . . لترى البيت الجديد الذى سنقطنه هناك . .

فانعقد لسان الصبى فجأة ، وتعالت دقات قلبه حتى فاضت على أذنيه فلم يسمع جملتها الأخيرة وهى تقول له بأنها ستعود الليلة . . بيد أنه بعد جهد تمتم فى صوت خفيض جداً ووجهه إلى الأرض : أمى تريد رأساً من الثوم . .

فظنت المرأة الطيبة القلب أن هذا الطلب الصغير هو الذى أخجل الصبى وأربكه إلى هذا الحد . ولا سيما أنها تعلم عنه أنه كثيراً ما يرفض أن يطلب شيئاً من أحد . . وكثيراً ما كانت تقدم له وهو يلعب مع سلوى بعض الحلوى . . فكان يرفضها ولا يقبلها إلا بعد إلحاح ، لذلك تعمدت الابتهاج والترحيب وتركته سريعاً ولم تمكث غير قليل حتى عادت وهى تحمل فى يدها عدة رءوس من الثوم ناولتها له وهى تقول : اتفضل . . غالى والطلب رخيص .

فلم يلتفت الصبى إلى هذا القول . . ولم يشكرها أيضاً على هذا الفضل ، وإنما وجد نفسه يسألها هذا السؤال الذى أضحكها كثيراً : هل المسافة من هنا إلى مصر بعيدة ؟

فقالت أم سلوى ضاحكة فى سذاجة وهى تربت على كتفه : إن مصر لا تبعد أبداً على حبيب . .

٤

أقبل المساء فى ذلك اليوم سريعاً جداً أكثر مما كان ينتظر له الصبى أن يقبل . . وأقبل معه والده متعباً مكدوداً يحمل على كتفه خرجاً كبيراً امتلأت إحدى عينيه بكيزان الذرة الجافة ، وامتلأت العين الأخرى بحبات الشعير المخلوطة بالحلبة . . وثلاث أقات من الخيار « الصيفى » الذى يميل إلى الصفرة دفنت جميعها فى عين الخرج التى يحملها الرجل على صدره ما عدا خيارة واحدة بقيت على الوجه أكل نصفها وبقى النصف الآخر ملوثاً تنطبع عليه ثلاث نقاط سوداء تكاد تكون ثابتة ، ولكنك لو تأملتها قليلا لوجدتها ثلاث ذبابات تأكل فى قلب الخيارة ، ولعلها رافقت الرجل من أول الطريق . .

وما كاد يخترق الدهليز ويدلف إلى الحجرة ، حتى ألقى بالخرج لاهثاً ، وقعد بجواره محاولا فى عناء شديد أن يسترد بعض أنفاسه ليحيى زوجته بكلمة ، ولكنه لم يقدر . ونظرت إليه آمنة ، ورأت وجهه المصفر ، وعينيه الغائرتين ، وعنقه الذى يهتز بين عظمتين بارزتين فوق الصدر ، وكأنها أشفقت على الرجل من كل هذا العناء ، فقالت وهى تنظر إلى الخرج وكأنها تنظر إلى شىء بغيض : أفى هذه السن وهذه المتاعب وهذا الشقاء كله تحمل هذا الخرج على كتفك وتسير به ثلاث ساعات على قدميك ؟

وكان الصبى فى هذه اللحظة قد دلف إلى الحجرة وارتمى فى أحضان والده الذى نسى كل شىء إلا فرحته بلقائه ، وقال وهو يمد يده إلى طرف ثوبه يجفف به العرق الذى ما زال يتصبب من جبينه ، ويتساقط على عينيه : كان لا بد لى من أن أجىء ، فقد بلغنى نبأ سار فرحت له كثيراً .

فقالت آمنة وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة : خيراً . . إن شاء الله . .

— بلغنى أن إمام أتم حفظ الواجب . . وسوف يؤهله هذا لدخول المعهد هذا العام . .

فقال الصبى على الفور وهو يعانق والده ويلتى بذراعيه الصغيرتين حول عنقه : واليوم أيضاً انتهيت من تجويد كل ما حفظت من القرآن .

ولم يعجب هذا الحديث الأم ، ولم تطرب لهذه الأنباء . ولذلك قالت وهى تتحسس وجهها وتتناول الطبلية من جوار الحائط وتضعها بينهما : حسبتك ستقول غير هذا . .

فقال الأب : ألا يسرك أن ترى ابنك يحفظ القرآن ويحمل الشهادة ويصبح خوجه كخوجات مدرستنا الذين ينعمون بالمنصب والجاه . . ويتمتعون ببسطة فى الرزق يا آمنة ؟ !

فقالت ضاحكة وهى تمد يدها إلى قلب القدر وتفرغ ما فيه فى طبق كبير من الفخار كان أمامها على الطبلية : لو كان الأمر بيدى ، لفضلت له أن يذهب معك إلى الحقل ، ويحمل عنك بعض العناء الذى تقاسيه ، وإلا فلماذا يجىء الآباء بالأبناء إن لم يحملوا عنهم بعض العبء يا بلتاجى ؟ !

فتنغص وجه الرجل ، ولمعت عيناه ، وتدهورت منهما سريعاً بعض نظرات قاسية حمراء . . وقال وكأنه يلفظ أنفاسه مع ما يقول : إنك إذن تحكمين عليه بالموت يا آمنة . . فلو أن أباه لم يكن جاهلا ، وكان يعرف حتى كيف يفك الخط لتغير مصيره . . وكان الآن على الأقل فى التفتيش كاتباً للشغالة بثلاثة جنيهات بدل الجنيه والنصف الذى لم يزل واقفاً منذ عشرين عاماً . والذى منذ عشرين عاماً أيضاً يكاد يقتلنى الخوف عليه أن ينقص ، أو يمسه القدر بسوء .

ــ إنها أرزاق يا بلتاجى . .

ــ ولكنها لم تكن عادلة يا آمنة . .

ــ استغفر . استغفر يا شيخ . . لم يعد فى العمر بقية ، وكل ما يأتى به الله خير . .

فتمتم الرجل مستغفراً ، وهو يتناول قطعة من حافر الماعز ويلوكها

بين شدقيه . . وما إن استشعر لذتها حتى تطلق وجهه ، وارتسمت فرحة كبيرة فى عينيه وهو يأكل ويقول للصبى الذى يأكل معه صامتا : لو أنك كنت تحبنى حقًا لدعوت لى ربك أن يمد لى فى العمر ويبقى لعينى هذا البصيص من النور ، حتى أراك « خوجه » فى مدرسة قريتنا ترتدى الكاكولة والقفطان . . والجورب والحمالة الاستك . .

وكأن الصبى أراد أن يقول شيئاً يطمئنه به أو كأنه أراد أن يعده بتحقيق هذا الرجاء . ولكنه قبل أن ينطق كان باب الحجرة قد فتح وظهرت منه عصا الشيخ نوفل الطويلة ، وما إن تخطى العتبة وشم رائحة الكوارع حتى قال : مساء الخير يا بلتاجى . .

ثم هو لم ينتظر حتى يرد عليه الرجل تحيته بل واصل حديثه قائلا : كيف تأكلون الكوارع خلسة ، ولا تدعون إليها حبيبها المتغنى بها أثناء الليل وأطراف النهار . .

فقال الرجل ضاحكاً وهو يفسح له مكاناً بجواره : حماتك بتحبك يا نوفل . .

فقال الشيخ ممتعضاً وهو ما زال فى مكانه : أنزل الله عليها وابلا من غضبه . لا تذكرنى بها يا بلتاجى .

فقالت آمنة ضاحكة : يا شيخ ، لقد ماتت من خمسين عاماً ، حرام عليك ؟

فقال الشيخ وكأنه يدفع قوله بعصاه التى يدق بها الأرض : عشت معها خمس سنوات ، وماتت من خمسين سنة . ومع ذلك ظلت ذكراها السيئة يا آمنة تماماً كالعقرب يموت وذيله ما برح باقياً .

فقال بلتاجى وهو يكاد يستلقى من الضحك : حرام عليك .

ثم استطرد بعد أن فرغ من الضحك : اجلس . . اجلس .

فقال الشيخ جاداً : بل انهض أنت .

— خيراً ، لماذا ؟

ــ نذهب إلى بيت الأستاذ الشرنوبى ، لنودعه مع المودعين . سيرحل الليلة مع أسرته فى قطار الليل . .

وأحس الصبى فجأة بشيء من الخوف . وهو يسأل بدون وعى : الليلة ؟ وهل رجع من مصر ؟

فقال بلتاجى الذى كان يجهل كل شيء : تقصدون الأستاذ الناظر ؟

فقالت آمنة فى تحسر : نقلوه إلى مصر ، وحرمونا منه ومن أسرته وخلقها الطيب .

فقال بلتاجى فى حزن شديد وهو ينهض سريعاً : كيف حدث هذا؟ كيف نحرم منه ؟

فقال الشيخ نوفل وهو يخرج مع بلتاجى ويخترق معه ظلام الدهليز : إرادة الله يا بلتاجى .

ــ ولكن كيف حدث هذا يا نوفل ؟

فقال الشيخ ملتاعاً فى غم شديد : كما يحدث دائماً لهذه القرية المنكوبة يا بلتاجى . يمر عليها الخير ، ولكنه لا يلبث فيها .

وصمت الشيخان ، ولكن الصبى الذى كان يسير خلفهما فى الظلام قال متسائلا : وهل هناك قطار يذهب إلى مصر فى الليل ؟

فقال الشيخ نوفل وهو يتحسس عتبة الدهليز بعصاه : وحتى لو لم يكن يا بنى ، فثق أن الله يخلقه سريعاً ، ما دام فيه خير سيذهب عنا !

فقال بلتاجى : ولماذا يجزينا الله هذا الجزاء يا نوفل ؟

ــ من أعمالكم ساط عليكم !

ثم اقترب منه ومد شفتيه إلى أذنه وهو يهمس إليه فى الظلام : العمدة من ثلاثة أيام اشترى عشرة أفدنة. أضافها إلى الأربعين التى عنده ، وأمس وبعد أن بُحّ صوتى ، وجف لسانى وأنا أعدد أفضاله ومناقبه تصدق على بعظمة دجاجة .

فارتعش الصبي الذى كان يصغى إلى هذا الهمس ، وقال وهو يشد كم الشيخ وينظر إلى الحارة التى غصت بأهل القرية الذين جاءوا لتوديع الناظر : اسكت . العمدة أمامك .

وكاد الشيخ أن يسقط خوفاً وذعراً، لولا أن العمدة الذى لم يسمع شيئاً قال فى صوته الجهورى الذى يميز من بين مئات الأصوات : سلامات يا شيخ نوفل .

ـ سلمت ودمت وبوركت وعوفيت يا سيدنا وتاج راسنا .

ثم عمل بلسانه سريعاً بين شفتيه المضطربتين وقال : دائماً سباق إلى الخير ، ستحفظ لك القرية جميعها هذا الفضل الكبير ، فضل سعيك على قدميك لوداع رجل بار كالأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل .

وأقبل ذلك الجمع الكبير يتقدمه العمدة على بيت الناظر حتى غصت به مندرته الفسيحة ، فرحب بهم شاكراً لهم جميعاً هذا الفضل الكبير ، كما راح الجميع يثنون على مناقبه ويتحدثون عن أفضاله الكبيرة على النشء وعلى أهل القرية جميعاً . ثم وقف الأستاذ فتوح مدرس الخط بالمدرسة وألقى قصيدة عصماء عدد فيها مناقب الناظر ، ولم ينس أن يثنى فيها على العمدة أيضاً ويعدد مناقبه ويذكر أياديه البيضاء على القرية جميعها مما جعل العمدة يتيه عجباً وفخراً ، إلى أن اقتربت الساعة من الثانية عشرة ، فأقبل حنطور العمدة على الحارة ، لينقل الأسرة إلى محطة الدلتا فى القرية. أما الناظر فقد سار وسط الأهلين جميعاً الذين جاءوا لوداعه عن يمينه وشماله العمدة والشيخ مأذون الشرع ، والأسطى شلبي حلاق القرية ، ثم الأساتذة أهل العلم والفضل والأدب من المدرسين فى مدرسة القرية ، إلى أن بلغ الركب المحطة ، وجاء القطار الذى أقبل بشعاً كريهاً أشبه ما يكون بثعبان ضخم يزحف على بطنه فى الليل ، فاضطرب الصبي الذى كان وحده من دون المودعين جميعاً يقف واجماً فى ركن قصى خلف كشك المحطة ، ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، يمد نظراته

فى وجوه الناس جميعاً ، ويشب على قدميه حيناً آخر ، وكأنه يريد أن يرى شخصاً معيناً . ولم يكد القطار يقف حتى لفظ خليطاً من الناس ، ثم ابتلع فى نفس السرعة خليطاً آخر ، وكان من بين الذين ابتلعهم الأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل ، والست صبرية زوجته ، وابنتهما الصغيرة سلوى .

وكما أقبل القطار بشعاً كريهاً يزحف على بطنه فى الليل ، ويرسل صفيره الذى يشبه عواء الكلاب الضالة ، انصرف أيضاً بشعاً كريهاً يزحف على بطنه فى الليل وهو ينعق كالبومة . ولم يدر الصبى لماذا تعلقت عيناه به ، وظلت معلقة فى أذياله حتى تلاشى ، وأصبح القطار الضخم فى عينيه أشبه بالذبابة التى تنتابها فى الليل عاصفة هوجاء ، فوقف صامتاً وكأنه يتأمل التحول السريع فى كل شىء ، فى الأيام والزمن ، والإنسان والجماد ، والضحك والبكاء ، والقرب والبعد ، وليالى اللعب الهنيئة ، وساعات الجد القاسية .

ولم يخرج عن هذا التأمل أو هذا الجمود الذى أطبق عليه إلا بعد أن رفع عينيه المبتلتين بالدموع فرأى ساحة المحطة التى كانت تغص بجموع المودعين موحشة خالية إلا من « غنيم » خفير المحطة الذى أحزنه هو الآخر هذا الفراق ، فأقبل من عند الصهريج بعد أن أقفل الطريق وراء القطار وأعاد التحويلة بالخطر ، وهو يردد مغنياً فى الليل بصوت موحش حزين استمع إليه الصبى ، ووقف يصغى إليه جيداً والدموع تتساقط من عينيه :

زعق الوابور ، على السفر قلت رايحين فين
رايحين تغيبوا سنه ولا تغيبوا اتنين
ياللى ملكتوا الفؤاد يا كحله جوه العين

٥

لم تكن حياة الصبى فى المعهد شقاء كلها ، ولم تكن بؤساً كلها ، وإنما تخللتها لحظات كثيرة من السعادة ، غمرته وفاضت عليه ، وأنسته كل شىء دونها . هذه اللحظات هى لحظات نجاحه المطرد وقدرته الدائمة على الدرس والتحصيل . ولذلك كان لتفوقه فى العام الأول الأثر الكبير فى حياته ، وفى نفسيته ، وفى مشاعره نحو نفسه ونحو الآخرين ، فقد تغيرت نظرته لكل شىء حتى نحو نفسه ، فكلمة الصبى أصبحت فى خبر كان ، وحلت محلها كلمة « الشيخ » ، الشيخ إمام ذهب والشيخ إمام جاء . وساعده على ذلك بسطة فى الجسم وهبها الله له ، حتى إنه سبق سنه بسنوات ، وغدا فارع الطول ، عريض المنكبين ، قوى البنية ، ضخماً عملاقاً ، كما وهبه الله أيضاً جمالا فى الوجه ، وصفاء فى العين حتى خافت عليه أمه ، وراحت تحمله ما لا يطيق من الأحجبة والتعاويذ التى تقيه شر العين .

وراح يقضى أيام الإجازات فى القرية ، لا كما كان يقضيها فيما مضى يلعب فى الجرن « الاستغماية » و « جمال المالح » ، و « حلقة ومضرب » ، أو يسرق البيض من أمه ويشترى بثمنه الحلاوة الطحينية لتأكلها سلوى ، أو يقود الشيخ نوفل فى ليالى رمضان ويطوف معه على الأبواب مستجدياً الصدقة ، وإنما كان يقضى أيامه فى القرية ، إما فى المسجد يصلى ويتعبد ، أو فى المدرسة يتحدث إلى أساتذتها الذين سوف يكون معهم فى القريب العاجل ، ويتفقد بعض الفصول . ويصغى إلى الأساتذة وهم يلقون دروسهم على الطلاب ، أو يذهب إلى كتاب الشيخ عليش الذى قضى فيه زمناً وتعلم فيه أحرف الهجاء ، وأحياناً كان يجلس فى الكتاب بدل الشيخ عليش ويلقى هو الدرس على الصبية ، أو يذهب إلى المسجد ويؤذن فى الناس بدل الشيخ نوفل ، حتى إذا ما انقضت أيام الإجازة وعاد الشيخ إمام إلى المعهد ، ترك فراغاً كبيراً فى كل أنحاء القرية ،

وفى المدرسة ، وفى الكتاب ، وفى المسجد ، وفى قلب أمه التى كانت تغمر الفرحة قلبها كلما رأته مقبلا على الحارة يخب فى الكاكولة الكشمير والحذاء الأصفر الفاقع ، وفى قلب والده الذى كلما رآه وكان متعباً مكدوداً ويعانى مرض الشيخوخة التى داهمته سريعاً ، سعد وابتهج ، وشفى من كل أمراضه . وظل الصبى أو الشيخ إمام هكذا من نجاح إلى نجاح حتى جاء يوم الفصل وهو امتحان المعهد الأخير الذى سينال فيه الشيخ تجهيزية الأزهر وينتقل بعدها إلى القاهرة .. وكان نصيب الشيخ أكثر مما كان ينتظر وأكثر مما كان يتمنى . .

لقد نجح بتفوق كبير ، من الخمسة الأوائل الذين من حقهم على الدولة أن يدخلوا معاهدها الكبيرة ويتعلموا فيها بالمجان ، ولم تكن فرحة إمام بهذا النجاح العظيم من أجل نفسه ، ولا من أجل مستقبله الذى تحدد ، وإنما من أجل أبيه الذى حقق له بعض آماله . . وحقق له مع هذا النجاح أشياء أخرى لا تقل أهمية عن النجاح نفسه ، وهى أن الدولة سوف تتكفل به ، وسوف تريح والده من عناء كان لا بد مجهده إذا ما ذهب إلى القاهرة واحتاج إلى نفقات العلم بجانب نفقات الحياة . لذلك ما إن علم بهذه النتيجة السارة حتى رجع إلى القرية سريعاً تسبقه أشياء كثيرة . . كثيرة جداً يريد أن يزفها لأبيه ، بيد أن الله الذى يرأف بالصالحين من عباده ويهيئ لهم من أسباب النجاح والهناء والسعادة أكثر مما يقدرون ، يعود لحكمة يعرفها فيقسو عليهم ويصيبهم بدون أن ينتظروا بشقاء ليس من سبيل إلى احتماله ، وليس من سبيل أيضاً إلى الصبر عليه .

فقد رجع الفتى إلى القرية عصر ذلك اليوم فرحاً مسروراً . . وما إن أقبل على الحارة تسبقه هذه الفرحة الغامرة ، حتى استوقفته الحاجة مقبولة وقالت له وهى تذب بمذبتها اللوف أسراب الذباب المتجمعة فى قلب صندوقها الفارغ وبصوت يذوب أسى ولوعة وحزناً : كن لأمك المسكينة عوضاً لها عن أبيك . ومن أنجبك يا بنى لم يمت . .

الشباب



٦

قال خاله لأمه ، بعد أن شيعوا جثة والده وعادوا إلى البيت : إن عليك أن تخلى حجرتك فى الدهليز يا آمنة ليقطنها الخولى الجديد .

فامتقع وجه آمنة ، قالت وهى تمسح بعض الدموع التى على خديها : أهكذا سريعاً يا عبد العزيز ؟

— إنه سكن الخولى يا آمنة . . وقال لى الناظر اليوم ، ونحن نشيع الجنازة ، إن خولياً جديداً قد عين خلفاً للمرحوم .

— لعلهم كانوا ينتظرون موته .

نطقتها آمنة وهى تغمض عينيها الدامعتين . . ثم عادت وفتحتهما وقالت وهى تنظر إلى الأرض ، وكأنها تبحث عن شىء عند قدميها : ولكن أين أقيم وأنا مريضة كما ترى ؟

فصمت شقيقها لحظة ، ثم تمتم وكأنه ينتزع الكلمات انتزاعاً من بين شفتيه : فى بيتى يا آمنة .

فاضطربت فى خوف شديد وقالت : فى بيتك ؟

— أجل . . ألست شقيقك ؟ . . وبيتى هو بيتك يا آمنة . . .

فنكست آمنة رأسها وقالت وما زال الخوف يلازمها : أبعد أن حرمت عليك زوجك حتى زيارة القرية التى أنا فيها ، تعود وتقبلنى فى بيتها ؟

ولم يسمع إمام بقية الحديث الذى دار بين خاله وأمه ، أو بين الشقيقين . . لأن الدموع كانت قد غمرت عينيه .

وأحس بالدموع تطمس المرئيات جميعاً فى عينيه ، وتحيلها خيالات متعددة تتراقص أمامه . . جثة أبيه مسجاة على خشبة كبيرة والماء يصب عليها . . ثوب أبيض تلف فيه الجثة . . حفرة كبيرة فى قبر مهجور . . كومة من التراب تنهال . . امرأة تلطم خديها . . امرأة تشق ثوبها . .

وجه المرأة يغبر ويكتئب حتى يصبح كقطعة من الفحم . . نفس الوجه يمتقع ويصفر ويكتنفه الشحوب حتى يصبح كالرقعة الصفراء الفاقع لونها . . بيت سيخلى . . غرفة عزيزة ستهجر . . صبى يلعب فى الجرن . . شيخ يرتدى الكاكولة والعمامة البيضاء . . المعهد . . تجهيزية الأزهر . . القاهرة وسنوات التخصص . . خبز . . نقود . . جوع . . دموع تنساب . . أرض تدور . . رأس يكاد يتحطم ، ثم شىء ثقيل يسقط على الأرض لم يفطن إليه أحد . . لحظات تمر . . باب يفتح . . أم تدخل . . يد رحيمة تمتد . . صدر خافق يحنو . . قلب حنون ينفتح . . أحضان ترتجف . . ذراع ترتعش تنهضه . . تحنو عليه . . وثغر كأنه الدنيا يغمر وجهه بالقبلات . .

٧

ومرت بعد ذلك أيام كان لا بد لها أن تمر . . وحدثت خلالها أحداث كان لا بد لها أن تحدث . انتقلت آمنة إلى دار عبد العزيز ، وعاشت هناك تستجدى اللقمة وتنتظرها من يد المرأة التى تبغضها وتحقد عليها وتريها صنوف الهوان ألواناً .

وذهب الشاب إلى القاهرة الواسعة التى بهرته طلعتها ، وأقلقته الحياة فيها . . فراح يهيم على وجهه فى الطرقات طول النهار وأغلب الليل . يقطع الأزقة ، ويجوس خلال الدروب والحارات لعله يظفر بغرفة متواضعة بأجر زهيد يمكنه سداده .

كان كل الذى يحمله فى جيبه تميمة أعطته أمه إياها وقالت له إن أباه كان يحملها لتوسع له الرزق . . وتجلب له الخير وتهيئ له من أمره رشداً . . وخطاب أملته عليه أمه ، وأملاه عليه أيضاً الشيخ نوفل وذيله بسطرين من عنده الشيخ بسيونى مأذون الشرع . . يرجون فيه رجل البر

والتقوى والصلاح والعلم الشيخ الشرنوبى أبو إسماعيل . الذى ما زالت القرية تذكر أيامه بالخير . . يرجونه خيراً بالشاب ، ويوصونه أن يكون له عوناً إذا احتاج إلى العون ، وأن يكون له فى غربته نصيراً إذا عز النصير . ويحمل الفتى مع ذلك أيضاً ثلاثة جنيهات . . بعضها تصدق به عليه خاله من وراء زوجته ، وبعضها كان ثمن الخلخال الذى باعته أمه، وبعضها الآخر كان يملكها من قبل . وثلاثة جنيهات ثروة كبيرة من غير شك . . ولها فى حساب الفتى شأن أى شأن ، ولها أيضاً فى تقديره قيمة كبيرة يشكر الله عليها ويحمده إذ أتاحها له . ولكن أليست الأيام هى الأخرى لها عنده كل هذا الشأن ، ولها فى تقديره كل هذه القيمة ؟ هل يتاح له أن يظفر بمثل هذا المبلغ مرة أخرى ؟ وهل يتصدق خاله عليه بشيء مرة ثانية ؟ وهل تجد له أمه خلخالا آخر تبيعه ؟

كان التفكير فى هذا يرهقه إرهاقاً شديداً ويسبب له قلقاً إذا أمسى ، ويسبب له قلقاً إذا أصبح . . واضطر مرغماً كل يوم أن يدفع خمسة القروش أجر نومه فى لوكاندة المدينة المنورة الكائنة خلف مسجد سيدنا الحسين . أما ما عدا ذلك كله فهو عنده ميسور وميسر . . فالطعام قد دبر الله له أمره . . إذ صنعت له أمه «قفة» كبيرة ملأتها « بالمرحرح» ؛ وهو خبز من الحلبة والشعير وبعض الذرة . . علم الفقر أهل الريف كيف يصنعونه بطريقة فنية ماهرة تجعله يعمر طويلا بدون أن يلحق به عطب فيتغير طعمه ، وهو عدا ذلك يمتاز بأنه رقيق جداً بحيث تسع القفة الواحدة زاداً كثيراً يكفى الشاب عدة أشهر . . يقضى الله بعدها أمراً كان مفعولا . وكذلك أيضاً يسر الله له أمر ملابسه ، فالكاكولا الكشمير التى كان أبوه رحمه الله قد صنعها له ما زالت زاهية اللون ، تحتفظ بجدتها ، ولا يهمه بعد ذلك ما يرتديه تحتها من ثياب ، سواء أكانت جديدة أم قديمة . . مرتقة أم غير مرتقة .

وظل الفتى كذلك عدة أيام يطوف بالحارات والأزقة فى النهار يبحث

عن غرفة يقيم فيها بأجر متواضع يستطيع أداءه ؛ فإذا جاء الليل وذهب إلى لوكاندة المدينة المنورة لينام ويستريح من عناء النهار خاصم النوم عينيه ، كلما تذكر خمسة القروش التى سيدفعها فى الصباح أجراً للوكاندة . بيد أن لكل شىء نهاية ، وكما قالت له أمه إن عين الله ساهرة ، وإنه من وراء الخلق ييسر لهم أمورهم ، ويفرج لهم كروبهم ، وإن الأمور إذا تعقدت كان هذا إيذاناً بحلها . . فقد بعث الله قلباً حنوناً أشفق عليه ورثى لحاله ، هو قلب محمدين خادم اللوكاندة الذى هداه إلى غرفة يسكنها بأجر زهيد يقدر على أدائه .

كانت الغرفة التى اهتدى إليها ، فى بيت قديم فى زقاق الجنايينية المتفرع من حارة درب المسرات . فى حى حوش الشرقاوى بباب الخلق . . خلف ديوان المحافظة ، تملكه الستشفعات الحربوطلى الشهيرة بالمعلمة . وقد لاقى الشاب عناء كبيراً حتى اهتدى إلى هذا البيت الذى كتب له عنوانه محمدين . . لأنك لكى تبلغ هذا البيت يتحتم عليك أن تصعد عشر درجات من الحجر القديم المتآكل تغمرها المياه القذرة صيفاً وشتاء ، وتعرف فى الحى إلى الآن بـ « سلالم السبيل » ، ثم تنحدر منها يميناً إلى حارة درب المسرات ، وتسير شوطاً كبيراً وسط عدة أبنية متلاصقة ، حتى إن شرفاتها المصنوعة من خشب البغدادلى على الطراز العربى القديم المعروف « بالمشربيات » تكاد تكون متصلة ، ولابد أن تجد أمام كل شرفة صنفاً من القال القناوى ذات الألوان المختلفة ، والأغطية النحاسية . . وعليك أن تسير فى هذا الزقاق الذى يمتاز بطول غريب جداً حتى تقطعه إلى نهايته . . وعند ذلك تبلغ « السيرجة » المعروفة فى الحى بـ « سيرجة المعلمة » ، فتملأ أنفك رائحة الزيت والكسب والبذور العفنة . . فتسترد أنفاسك لأنك تكون قد بلغت البيت ، وطالعك بابه الفولاذى الضخم الذى انتصب بين بعض الأقبية المهجورة والجدران المهدمة أشبه بتمثال ضخم قام بين الأطلال من عدة قرون .

كان الباب من السمك والضخامة بحيث لايمكن زحزحته أو تحريكه.. تزين جوانبه بعض نقوش نحاسية قديمة أكل الصدأ بعضها وبقى بعضها الآخر يغالب الزمن ، ويتوسطه باب آخر صغير ذو « سقاطة » حديدية ضخمة ، ما إن ترفعها بيديك حتى تسمع صوتاً مزعجاً بالداخل أشبه بأصوات الأوانى النحاسية عندما تسقط على الأرض ، فتنزعج وتخاف . . بيد أن هذا الخوف يزول عندما تتبين أنه صوت الجنزير الطويل المعلق فى طرف السقاطة من الداخل . ثم بعد ذلك ينفتح الباب ، أو بمعنى أصح تنفتح الخوخة ، فتحنى رأسك ، وتقوس ظهرك لتدلف منه ، فإذا أنت أمام دهليز فسيح ، ولكنه رطب مظلم ، لا تستطيع من الظلام أن تتبين بسهولة محتوياته ، أو ترى ما يشبه الأشباح تطالعك فى الظلام منتصبة على جوانبه، فإذا ما تبينتها جلياً عرفت أنها أبواب الغرف الثلاث التى يتكون منها البيت ، أو بمعنى آخر هى التى يتكون منها نصف البيت فقط . لأن النصف الآخر ، وهو الذى فى مواجهة الداخل ، قبو كبير تتوسطه السيرجة ، وهى عبارة عن بئر فوقها حجر ضخم فى وسطه دائرة كبيرة كدائرة الساقية يدور فيها حمار خلفه متاعبه وشقاؤه .

ثم بجانب مدخل السيرجة ، وعلى يمين الدهليز ، نصف برميل قديم امتلأ بالماء الآسن القذر ، تعلوه طبقة خضراء لزجة ، تتصاعد منها رائحة كريهة ، تشبه رائحة الكسب والبذور العفنة التى تتصاعد من السيرجة . وعلى رأس نصف البرميل ، حنفية صغيرة تتساقط منها بعض نقاط الماء فى هدوء حزين كما تتساقط فى الليل دموع الثكالى . أما الغرف الثلاث فكانت إحداها — وهى على يمين الداخل مباشرة خلف الخوخة — ذات باب نظيف يميل لونه إلى البياض ، يعلوه شباك زجاجى مختلفة ألوانه . وكانت هذه الغرفة تمتاز عن غيرها بسرير كبير من النحاس قام فى وسطها كالتختروان ، تزينه ملاءة محلاوى ذات مربعات بيضاء وحمراء ، وتعلوه ناموسية من التل البمبي انعقدت فى قلبه فغدت كالقبة

المنقلبة فى الهواء . ويمتاز هذا السرير أيضاً بعلو غريب ، بحيث لا يمكنك اعتلاء سطحه، إلا بواسطة سلم دائرى وضع أمامه ، وحليت درجاته الثلاث المبطنة بالقطن والحرير بغطاء من القطيفة الخضراء الباهتة ، وحول كل درجة من الدرجات الثلاث برقع من القطيفة أيضاً تتدلى منه عدة شراريب ذات ألوان متعددة .. ويقابل السرير « بوريه » كبير وضع خلف باب لم يستعمل ، كان فيما مضى يوصل إلى الغرفة الثانية التى تلى هذه الغرفة مباشرة ، وهى الغرفة التى قطن فيها الشاب . و« البوريه » يكاد هو الآخر يكون فى ضخامة السرير له عدة أدراج وخزانة كبيرة ، وفوقه تحت المرآة رخامة كبيرة زرقاء تكسرت منذ سنوات ، وقد امتلأ قلبه بعلب القاب الفارغة والإبر والدبابيس القديمة وعدة قطع من الفاسوخ والجاوى وعين العفريت . وبذور الكسبرة والشيح . . وقد تلوث هذا كله بسائل الشمع مما يدل على قدمه ، حتى غدا منظره قذراً مشوهاً . وبجوار الشمعدان قلة بيضاء من الزجاج عليها باقة من الورد الصناعى الذى بليت أوراقه . وتآكل بعضها ولوث الذباب بعضها الآخر ، وحول عنق القلة عدة حبال رفيعة من الخرز الأبيض والأصفر والأحمر ، علقت بها عدة حلقات نحاسية ، ونصف مفتاح حديد قديم ، وحجاب مغلف تغليفاً جيداً . ثم بجوار القلة كوز نحاسى ، تزينه عدة نقوش عربية قديمة ، وضعت عليه قطعة من اللوف ، وصابونة حمراء ممسكة ، وبجانبه مكحلة ذات مرود نحاسى منقوشة ببعض النقوش العربية المرسومة على الكوز . .

هذه الغرفة تقطن فيها المعلمة شفعات ، صاحبة البيت والسيرجة ، وهى امرأة فى منتصف العقد الرابع ، ذات جمال أخاذ تبهر العين طلعته ، وقوام سمهرى ممشوق عرفت كيف تغذيه وتتعهده، فغدا كالفرع المياد الذى يتهادى مع النسيم ، ووجه يفيض بالبشر ، يعلوه جبين وضاح يشبه فلق الصبح ، تزينه دائماً قصة من الشعر الفاحم يتوسطها فرق

صغير انطبع على الجبين كالهلال الوليد ، وفوق هذا كله منديلها المطرز بالترتر وخرْج النجف ، وزهور القرنفل البيضاء ، انعقد حول رأسها ، وتدلت أطرافه بين المقصوص الطويل المنساب حول الأذن التى يزينها قرط ذهبى كبير على هيئة نصف دائرة ، يروح ويجىء على الكتف المرمرية البيضاء ، التى حجبتها ملاءة سوداء رقيقة من الحرير الخفيف الرقيق الملمس عرفت كيف تحكمها فى مهارة فائقة حول جسدها ، وتضغط نسجها الرقيق على قوامها الفارع وقدها الممشوق ، بحيث فصلته تفصيلا وأبرزت محاسنه وجعلت كنوزه تتوهج نوراً فى عينيك ، تماماً كما تتوهج كنوز الماس والجواهر فى قلب فترينة من زجاج . .

وهى امرأة عصبية المزاج جداً ، شرسة الطباع إلى حد كبير ، فإذا ثارت أو غضبت أو عكر صفوها ، ينقلب هذا الجمال كله ، وهذه الفتنة التى لا حد لها ، وهذا الخفر والحياء الذى يشبه حياء العذارى وخفرهن إلى عنف وقسوة و وحشية . . مما جعل سكان الحارة والحى كله يخافونها ويخشونها ويعملون لها ألف حساب وحساب . ولذلك فالقول ما قالت المعلمة ، والأمر ما أمرت به المعلمة . وقد ساعدها هذا بعد أن مات زوجها من سنين وأشرفت هى على الثروة التى تركها لها : البيت والسرجة وثلاثة دكاكين فى حارة السطوحى ، وحوش فى درب سعادة — ساعدها على أن تدير هذا كله بنفسها بدون أن تفكر فى الزواج ، أو فى أحد يساعدها فى الإشراف على السرجة إلا الأستاذ حسبو ، وهو الذى يقطن فى الغرفة الثالثة من الدهليز الذى يقع بجانب السرجة تماماً ، وحسبو هذا أو الأستاذ حسبو ، كما كان يصر على أن يسمى نفسه ، كهل فى الستين من عمره ، برغم أنه كان يصر على أنه مازال فى دور الشباب المكتمل والرجولة الناضجة ، وكان منظره يبعث على الغرابة والدهشة بحيث يلفت نظرك بمجرد أن تراه ، وتقف عيناك عليه لا تتحولان ، فهو يرتدى بذلة لا يعرف لها عمر ولا لون ولا طراز . . فهى عدة ألوان ،

إذ كلما تآكل جانب منها رتقه بلون جديد . . وهو يرتدى دائماً ياقة منشاة عالية من الطراز القديم ورباط رقبة ، تآكلت أطرافه حتى بلغ التآكل عقدة الرقبة ، وصديرى من الحرير الألاجه ، زى أصحاب اليسار فى الزمن القديم ، وقد بلى هذا الصديرى أيضاً وتمزق وتآكل حتى لم يبق منه سوى أزراره الصدفية الغالية التى تدل على أصله وترمز إلى مجده القديم . ويضع على عينيه دائماً منظاراً سميكاً ذا أسلاك نحاسية صدئة قد تلوث زجاجه الأبيض وتشقق بحيث إنك لا تستطيع أن ترى من خلفه شيئاً . وهو برغم نحافته وضموره وشحوب لون وجهه الدائم الذى يشبه وجوه الأموات يتمتع بحيوية غريبة ونشاط دائم ، ونفس صافية مستبشرة دائماً يضحك ولا يعبس أبداً ، ويرسل الفكاهة تلو الفكاهة ، والنكتة تلو النكتة ، حتى ليجعلك تستلقى من الضحك .

وكان لا يبالى إذا واتته النكتة أن يلقى بها ولو كان فى حضرة النساء مهما كان مرماها . وهو يشغل فى الحى عدة وظائف غير وظيفته الأصلية وهى إدارة السرجة ، وإدارة أعمال المعلمة جميعاً والإشراف عليها ، فهو « عرضحالجى » الحى ، ويعد نفسه من أشهر رجال القانون ، وقد كتب لافتة كبيرة يعلقها فى الليل على باب غرفته فى الدهليز ، ويعلقها فى النهار على الحائط فى الحارة حيث يجلس إلى « ترابيزته » الخشبية ، وقد كتب عليها بخط بارز واضح « الأستاذ حسبو القط خبير بشئون المحاكم الأهلية والشرعية وجميع القوانين على اختلاف أنواعها ، وباشكاتب محكمة سابق ، ووكيل محام سابق ، وعضو نقابة وكلاء المحامين سابقاً » . وقد اتخذ له مكتباً على رأس الزقاق عند أول حارة السطوحى ، حيث يجلس على الطريق بجانب الحائط إلى « ترابيزة » خشبية قديمة عليها محبرة نحاسية مستطيلة صفراء اللون يضع فى قلبها عدة أقلام من البسط ، وبعض بقايا من أقلام الرصاص وفى طرفها فجوة بداخلها قطعة من القماش مبللة بالحبر الأزرق الذى يميل إلى السواد ، وبجانبها بعض

العرائض البيضاء . وهو يعتز جداً بهذه المحبرة النحاسية التى لها عنده تاريخ قديم معروف فهى المحبرة التى كان نابليون يوقع منها أوامره اليومية إلى جيشه أيام احتلاله قاهرة المعز ، ثم آلت من بعده إلى قائده العظيم كليبر ، ثم بعد قتل كليبر اغتصبها بعض الفرنجة الذين استوطنوا مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ثم انتهت فى النهاية إلى جده الثانى ، أى جد الأستاذ حسبو الذى كان يشغل وظيفة مهمندار السلطنة ، وظلت فى حوزته إلى أن ورثها هو . وكان يجلس إلى مكتبه هذا طوال اليوم ، ومن حوله بعض النسوة يستشرنه فى شئونهن ، وحل مشاكلهن ، وهو بدرايته الواسعة ، يصرف لهن الأمور ، ويحل لهن المشكلات العائلية أو يعقدها ، حسب ما فيه مصلحة موكلته من حيث الطلاق ، أو النفقة ، أو الطاعة أو الزواج .

وكان للأستاذ حسبو وظيفة ثالثة أهم بكثير من هذا كله هى كتابة رسائل الغرام للعشاق والمحبين ، وقد برع فى هذا براعة فائقة ، حتى اشتهر فى الحى بذلك ، وصارت له سمعة واسعة ، ومقدرة لا تدانيها مقدرة — فرسالة واحدة من رسائل العشق والهيام يدبجها بيراعه يكون لها فعل السحر ، بحيث يلين الحجر ، ويذيب الحديد ، ويجعل الحبيب القاسى القلب يخر ساجداً عند قدمى المحب من أول سطر ، إن لم يكن من أول كلمة ، ولذلك فهو كل ليلة ، وبعد صلاة العشاء بالذات ، لا بد أن يكون فى مكتبه على رأس الحارة ، حيث توافيه خلسة بعض بنات الحى ، ونسائه ، وشبابه ، هذا يكتب للمحبوب يستجدى الوفاء ويرجو اللقاء ، ولو مرة عند سلالم السبيل ، وتلك تصف لزوجها الغائب كيف أضناها الشوق ، وطال بها البعاد ، وهذه الحبيبة تصف للحبيب كيف كانت فرحة اللقاء ، ولذة العناق ، وسعادة القلب عندما وافاها الحبيب فى الظلام خلف السرجة . وهو يعتز بمقدرته هذه الفائقة فى تدبيج الرسائل ، ولا يسمح لأحد أن يعارضه فى لفظ ، أو يعترض على معنى . . ومن

يفعل فالويل له . وقد حدث ذات مرة أنه كان يقرأ رسالة غرامية كتبها لخادمة جميلة لتبعث بها إلى الحبيب المتجنى عسى أن يلين قلبه ، وراح الأستاذ حسبو يقرأ عليها بصوت منغم ما جادت به قريحته وما دبجه يراعه .

« أبعث إليك مع الليل سلامى، وأبثك مع الفجر هيامى ، وأرسل إليك مع النسيم كتاب غرامى ، كتبته وأنا على الجمر أتقلب ، وفى نار الحب أتعذب ، وفى جحيم الشوق غارقة ، وإلى طلعتك البهية وامقة» . . .
وعند ذلك استوقفته الفتاة وسألته قائلة : وامقة يعنى إيه يا أستاذ ؟

فثار الأستاذ حسبو لهذه المقاطعة وهذا السؤال ، وغضب غضباً شديداً حتى كاد يمزق الرسالة ، لولا أن الفتاة اعتذرت له ، واسترضته ، وقدمت له القروش الخمسة ، وهى الثمن الذى حدده لكل رسالة غرامية يكتبها . فهدأت ثائرته ، وعلت ثغره ابتسامة وهو يتناول منها القروش الخمسة .. ويخرج لها الرسالة من درج « الترابيزة » الذى كان قد أعاده إليه ، كما أخرج زجاجة الخمر وشرب منها قليلا ، ثم أخرج أيضاً كتاباً قديماً بالياً أصفر الصفحات ، كتب على غلافه السميك « جنة الأشواق فى رسائل العشاق لمؤلفه أمير المحبين وحبر العاشقين سيدنا عبد الله بن القيروان . . طيب الله ثراه . . وجعل الجنة مثواه ، ونفع المحبين بذكراه » .

وبعد أن راجع الفهرس طويلا فتح الكتاب على صفحة بعينها ، كتب على رأسها العبارة التالية « بين الأحبة والأحباب فى رسائل الهجر والعتاب » ، وراح يقرأ فى سره قليلا فى هذا الباب حتى وصل إلى كلمة « وامق » فراح يقرأ شرحها على الفتاة : « وامق بمعنى عاشق أى مشتقة من العشق كما يشتق العاشق من المعشوق . والله أعلم» .

٨

ذهب الشاب إمام كما قال له محمدين إلى حارة السطوحى وانحدر منها إلى زقاق درب المسرات ، وسر سروراً كبيراً عندما عرف من صبى صغير كان يلعب أمام البيت أن الغرفة الخالية فى منزل « المعلمة » ما زالت خالية ، ولم تؤجر بعد . وكان الصبى الصغير أطيب خلقاً مما كان ينتظر الشاب . . لأنه ذهب معه إلى حيث يجلس الأستاذ حسبو وكيل المعلمة .

وتقدم الشاب من الأستاذ حسبو فى خطى وئيدة وبسمل وحوقل كعادته كلما هم بأمر ، ثم ألقى عليه السلام ، فرد الأستاذ حسبو التحية ، ولكن بدون أن ينظر إليه ، فقد كان منهمكا فى تدبيج عريضة دعوى طلاق . فقال الشاب : أريد أن أستأجر الغرفة الخالية عندك فى البيت . .

عند ذلك رفع الأستاذ حسبو رأسه ونظر إلى الشاب وتفحصه جيداً من خلف منظاره السميك الملوث ثم قال : اسمك ؟

— إمام بلتاجى حسنين ، من البتانون مركز المنوفية .

— صنعتك ؟

— طالب علم .

فعاود الأستاذ حسبو النظر إليه وقال ساخراً : كل هذا الجسم الطويل العريض ، وطالب علم ؟

فصمت الشاب فى خجل ولم يجب . فقال الأستاذ حسبو فى السخرية نفسها : وطالب علم فى أى كتاب يا أستاذ إمام .

— فى الأزهر الشريف .

فصمت الأستاذ حسبو لحظات مد خلالها يده إلى حقيبته الجلد ، وأخرج زجاجة الخمر وأفرغ منها شيئاً فى جوفه . ولما لاحظ أن شيئاً من الامتعاض ارتسم على وجه الشاب ، قال وهو يعيد الزجاجة إلى

مكانها ، وما زالت شفتاه ترتعشان تقززاً من طعم الخمر الرخيصة ومذاقها المر : دواء . . . دواء يا بنى .

ثم مسح على شفتيه وقال وهو ينظر إلى الشاب : هل تعرف الماكينة التى تدار بالسولار . أى بالغاز القذر ؟

فاندهش الشاب لهذا السؤال الغريب وقال : أجل أعرفها .

ـــ أنا مثلها تماماً . . هى لا تدور إلا بالغاز الوسخ . . وأنا أيضاً لا أسير إلا بهذا الدواء الوسخ . .

قال ذلك واستلقى ضاحكاً فى قهقهة كبيرة ، فجاراه الشاب فى الضحك تأدباً . . بيد أنه اعتدل فجأة وقال جاداً وهو يعاود النظر إليه وكأنه يراه لأول مرة : قلت لى إنك مجور فى الأزهر ، وإنك تريد أن تستأجر الغرفة . . فهل عرفت قيمة إيجارها ؟ .

فقال الشاب : مهما كانت فهى مقبولة منك .

فقال الأستاذ حسبو وهو ينظر إليه وكأنه يسدى إليه نصيحة : هذا كلام فارغ . القربة لا تخرّ إلا على رأس من يحملها ، والنار لا تحرق إلا من يمسكها ، وأنت الذى ستدفع ،فهل تقدر على دفع ثلاثين قرشاً لا تنقص دانقاً ؟

فقال الشاب على الفور فرحا كأنه ظفر بكنز : أقدر .

ـــ وتدفعها مقدماً ؟

ـــ مقدماً . .

ـــ وبصفة دائمة ؟

ـــ دائمة .

ـــ وبلا إبطاء أو إهمال أو تأخير ؟

ـــ وبلا إبطاء أو إهمال أو تأخير . .

ـــ وألا تراوغ فى الدفع بحجة المرض ، أو ضيق ذات اليد أو

سرقة نقودك ، أو فقد بعض الأهل أو الصحاب ، كما يفعل الطلبة أمثالك ؟

— أبداً . . أبداً . . إننى لست من هؤلاء .

فقال الأستاذ حسبو مبتسماً وهو يرفع منظاره من على عينيه وينفخ فيه ويمسحه بخرقة كانت بجانب المحبرة النحاسية ملوثة بالحبر : ومن الذى يضمنك . يا سيد إمام بلتاجى حسنين ؟

فأرتج الأمر على الشاب وصمت حيناً . ثم قال متلعثماً فى خوف شديد : ليس لى غير الله . .

— ونعم بالله .

نطقها الأستاذ حسبو فى إيمان زائد وهو يفتح الدرج ويخرج منه عقداً مطبوعاً ويقول : وحتى إن لم تدفع يا بنى بعد هذا . فسوف أتكفل أنا بالسداد عنك .

٩

كانت فرحة الشاب بهذه الغرفة التى ظفر بها ، وبهذا الإيجار القليل الذى لم يكن ينتظره ، وبصداقته التى توطدت من أول لقاء بالأستاذ حسبو ، فرحة كبيرة أنسته كل متاعبه التى عاش فيها منذ أن هبط القاهرة ، ولذلك ذهب من فوره إلى محمدين فى لوكاندة المدينة المنورة ، وشكره على هذا الجميل الذى لن ينساه ، وأعطاه خمسة قروش نظير هذه الحسنة التى أسداها إليه ، ونظير أن ينقل له القفة وبعض متاعه الآخر إلى هناك . كما استطاع الشاب — وبواسطة محمدين أيضاً — أن يحصل على سرير ينام عليه بأجر زهيد جداً من مخلفات أسرة اللوكاندة هو عبارة عن حمارين من الخشب تنقلهما كما تشاء ، وتضعهما فى أى مكان تشاء ، وفوقهما شبكة من الأسلاك « سكونه » تعلوها مرتبة عبارة عن

كيس فارغ من أكياس القطن محشو بالقطن ، وفوقها ملاءة محلاوى نصف عمر ،وبطانية صوف خشنة من مخلفات الجيش البريطانى . وقد نقل له محمدين كل هذا إلى السكن الجديد . . وما إن أقبل المغرب حتى كان الشاب فى غرفته مبتهجاً كل الابتهاج ، ينظفها ، ويرتبها ترتيباً جميلا . ثم بعد أن اطمأن إليها وإلى ترتيبها ، ووضع الكاكولة على المسمار الذى أعده لها فى الحائط ، ووضع العمامة فى السقط الذى أعده لها وغلفه جيداً بالورق السميك حتى لا تنفذ إليها الصراصير ، ارتدى جلبابه ، ووضع القبقاب فى قدميه وانصرف إلى باب الخلق يتريض وينظر إلى القاهرة لأول مرة وإلى الناس والأجناس الذين يروحون ويجيئون أمامه . وظل كذلك إلى أن أحس بالجوع ، وفكر أن يعود إلى بيته لتناول العشاء ، ولكن رائحة السمك المشوى التى تنفذ إلى خياشيمه من سماك الملوك الذى فى الميدان جعلته يقف ليفكر قليلا .

ثم انتهى به التفكير إلى أن يأكل سمكاً هذه الليلة ، فاشترى ربع رطل بقرش ونصف ، كما ذهب إلى طرشجى الأمراء الذى بجانبه واشترى مخللا بنصف قرش ، ومن ثم ذهب إلى غرفته وهو يحمل نعيم الدنيا جميعاً بين يديه . وما إن بلغ الغرفة ، وأشعل مصباحها الزجاجى ، الذى صنع له برنيطة من الورق المقوى حتى يحتبس نوره ويتركز فى مكان واحد هو الذى يذاكر فيه ، ووضع كومة السمك الصغيرة أمامه . وما إن تطلع إليها حتى غمرته الفرحة ، وانهال عليها يلتهمها التهاماً . ثم بعد أن أكلها جميعاً أفرغ نصف القلة فى جوفه ، واستلقى بعد ذلك على السرير ناعم البال ، هادى النفس ، مطمئن الضمير .

إنه الآن يستطيع أن يطمئن إلى كل شىء .. إلى مستقبله وإلى حياته الجديدة ، وأن يذهب إلى الكلية كما يريد ، ويستذكر درسه فى بيته كما يريد ، ويستطيع أن يدفع إيجار غرفته هذا الزهيد بدون مشقة أو عناء ، ويستطيع أن يأكل من حين إلى آخر سمكاً طازجاً شهياً من سماك الملوك ،

ويستطيع بنصف قرش أن يقف أمام طرشجى الأمراء غير هياب أو وجل ، وغير ذلك كله ، بل أهم من ذلك كله ، يستطيع الآن وبخطى ثابتة وعزم قوى ورأس مرفوع أن يذهب إلى العباسية ويسأل عن الوايلية الصغرى وعن شارع البرجاس والمنزل رقم (٨) ويزور الأستاذ الشرنوبى أبا إسماعيل ، والست صبرية زوجته ، وابنتهما سلوى ، زيارة الصديق للصديق ، أو الأهل للأهل ، بدون خجل أو تردد أو خوف ، ما دام لا يريد معونة ولا يريد مساعدة فى شىء ، وأن يقابل سلوى ويتحدث إليها حديث الصديق للصديق أيضاً ، والزميل للزميل ، والند للند ، إنه لن يقابلها كما كان يقابلها وهو فى القرية حافى القدمين ، ممزق الثياب ، يغمض عينيه عما فى يديها أو فى جيبها من حلوى ، وغير الحلوى حتى لا تفضحه عيونه التى تتهافت نظراتها وتذوب على ما فى يدها من طعام شهى وأصناف الحلوى اللذيذة . .

إنه سيقابلها الآن رجلا مكتمل الرجولة ممتلىء العين مرتدياً زيه الجديد الأنيق : الكاكولة ، والعمامة ، والحذاء اللامع .

ولكن هل تذكره سلوى ، وترحب به ، وتطرب للقياه كما كانت تفعل فى الماضى ؟ . . أو أن السنوات السبع التى مرت وغيرت من كل شىء غيرتها هى أيضاً ؟ وهل حدث لها كما حدث له ؟ فرع طولها ، وامتشق قوامها ، وغدا جسمها ذاك النحيل فارعاً فارهاً ملتفاً ، تزينه الثياب ، كما تزين الكاكولة الآن جسمه الكبير وطوله الفارع . ونظر إلى الكاكولة الزرقاء اللامعة ، المعلقة على المسمار بجانب السرير ، وذلك السفط الصغير المبطن بالورق السميك والعمامة البيضاء الناصعة التى فى قلبه . ثم نظر إلى الحذاء الأصفر اللامع الذى وضع بجانب السفط يحليه ذلك الإبزيم الأصفر الفاقع الذى نام على جانب الحذاء ، فزانه وزاده بهجة ورواء . نظر إلى كل هذا وابتسم ، وغمرته نشوة فاضت على كيانه ، جعلته وهو مستلق على ظهره فوق السرير يحملق بعينين

سعيدتين فى سماء غرفته ، كما يحلق العصفور الطروب فى سماء الربيع بين الأزهار . وظل كذلك إلى أن داعب النوم عينيه فقرأ الفاتحة ، وآية الكرسى ، وسورة يس ، كعادته كل ليلة عندما ينام . وزاد عليها هذه الليلة سورة الفلق ، وكرر من شر حاسد إذا حسد مرات حتى غلبه النوم فنام سعيداً لأول مرة ، منذ أن نزح إلى القاهرة .

١٠

وكما سعد الشاب فى هذا اليوم كل هذه السعادة ، سعد أيضاً الأستاذ حسبو ، واطمأن اطمئناناً كبيراً ، فقد كان بقاء هذه الغرفة التى استأجرها الشاب خالية لا يسكنها أحد ، يسبب له قلقاً كبيراً وآلاماً لا حد لها ، إذ كان يعرضه دائماً إلى غضب المعلمة ، وإيذائها وسخريتها المرة ، والغلظة له فى القول كلما رأته أو حدثته ،حتى إنها من يومين فقط ثارت عليه ثورة عنيفة ، وكادت يدها تمتد إليه بالأذى ، لأن الغرفة ظلت خالية ، ولم تهدأ ثائرتها إلا بعد أن أنذرته بالطرد من البيت والسرجة والدكان والحارة والحى كله إن لم تسكن الغرفة خلال الأيام القليلة الباقية عن الشهر ، فوعدها بذلك ، مؤملا الخير كله فى السماء والأرض ، داعياً الله أن تسكن الغرفة حتى لا يتعرض فى كل ساعة من ساعات النهار والليل إلى هذا الأذى الكبير ؛ ولهذا كانت فرحته لا تقدر فى هذه الليلة عندما استأجر الشاب الغرفة ، وراح ينتظر عودة المعلمة من درب سعادة . فقد تعودت أن تذهب إلى هناك من حين إلى آخر ، وتقضى اليوم كله . ومن فرحته لم يشأ أن ينتظرها فى البيت ولا فى المكتب على رأس الحارة ، وإنما انتظرها عند سلالم السبيل فى الظلام حتى أقبلت تتيه وتخب فى ملاءتها الحريرية السوداء الرقيقة التى أحكمتها حول جسدها الفارع وقوامها الممشوق ، وتدل عجباً بذراعها العارية التى حلت معصمها

بالذهب الخالص والثعابين الثلاثة الذهبية التي التفت حول المعصم وزانت الذراع البيضاء العاجية التي أخرجتها من قلب الملاءة السوداء ، كما يخرج عمود النور من قلب الظلام . وما إن رآها الأستاذ حسبو حتى أسرع بإخفاء زجاجة الكونياك فى جيبه الخلفى ، ومسح على شفتيه سريعاً ، وتقدم إليها ونور الفرحة ينبعث من عينيه ويشع من خلف زجاج منظاره الملوث ، وزف إليها البشرى وهو ممسك بعقد الإيجار فى يده .

وما إن سألته بعض أسئلة وعرفت أنه أجر الغرفة إلى مجاور فى الأزهر حتى غضبت وثارت وانقلبت سحنتها فجأة إلى ما يشبه الوحش المفترس ، وقالت صارخة فى صوت كالرعد وهى تمسك بعقد الإيجار من يده وتمزقه وتلقى به فى وجهه : لا بد أن تطرده الآن ، أن تلقى به الليلة إلى الخارج .. أنا لا أريد أن أجلب المتاعب إلى نفسى . . قلت لك ألف مرة إن المجاورين وطلاب العلم لا يجدون قوت يومهم ، فكيف بهم يدفعون الإيجار . أتى به إلى الحارة الليلة . . الآن . . وإلا ألقيت بك أنت . . أسامع ؟

وسارت وسار خلفها الأستاذ حسبو يرتعش ، كما يسير الكلب الخائف الذى تشده وراءك فى حبل . وكلما حاول أن يقول شيئاً أرغت وأزبدت ودوى صوتها فى الليل ، إلى أن بلغت نهاية الزقاق ، ووقفت عند الخوخة ، ونزعت ملاءتها ووضعتها على كتفها كما لو كانت تريد أن تخوض معركة ، وقالت له ثانية بأعلى صوتها : قلت لك إن لم تطرده الآن وتلقى بعفشه إلى الحارة ، طردتك أنت وألقيت بسحنتك هذه القذرة فى مرحاض .

ثم فتحت باب غرفتها فى ثورة وردته خلفها فى عنف كاد يرتج له البيت كله . . ووقف الأستاذ حسبو يرتجف فى قلب الدهليز المظلم إلا من نور خافت ينبعث من قلب السرجة ، وينظر إلى باب غرفتها الذى أغلقته خلفها فى عنف ، وباب غرفة الشاب المجاور لبابها تماماً .

وفكر ماذا يقول له الآن ؟ وأين يبيت الفتى الليلة ؟ والمعلمة لم تشأ أن تبقيه إلى أن يطلع النهار . وهل تتحكم بالناس هكذا ؟ وهل تظل هكذا هذه المعلمة تسومه هذا العذاب ، وتكيل له كلما رأته بهذا الكيل الذى لا يتحمله إنسان ؟ وهل يذل قلبها بهذه الغلظة وهذه القسوة ، بحيث تطرد شاباً فى هذا الوقت من الليل وتلقى بعفشه إلى الطريق ؟ وهو إن لم يطرده الآن كما أمرته ، وأبقى عليه إلى أن يطلع النهار ، فسوف تطرده هو وتلقى به فى الطريق ، أو تبقيه لتصب عليه جام غضبها وتسلط عليه سوط عذابها الذى تعب منه جسده الهزيل .

وأحس الأستاذ حسبو بشىء من الضيق يجثم على صدره ويكاد يخنق أنفاسه ، فأسرع إلى زجاجة الكونياك وأخرجها من جيبه الخلفى وتجرع منها عدة جرعات ، ثم أعادها ثانية إلى جيبه ومن ثم مسح على شفتيه ، وفى هدوء كبير جداً اقترب من باب غرفة الشاب ، وظل ينقر حتى استيقظ الشاب وفتح الباب ، وما إن رأى الأستاذ حسبو أمامه حتى رحب به ترحيباً كبيراً جداً وهو يدعوه إلى الدخول ، ووقف الأستاذ حسبو وسط الغرفة يتأمل محتوياتها لأول مرة ، ويفحصها بعينه ، وينظر إلى الحمارين الخشبيين والحشية التى يحملانها ، والبطانية الصوف القديمة المتآكلة المتكومة عليها كالكلب الأجرب المتكوم فى الطريق ، وقدر المش والمخلل الذى تجمد من الرطوبة ، وخرجت من قلبه الديدان الصغيرة هائمة تسبح حول جدرانه ، وإلى بعض لقيمات المرحرح التى انتشرت على الحشية وإلى رءوس السمك المقلى وشوكه الذى بقى فى الورقة الصغيرة الملوثة بالزيت المحروق ، ثم إلى القميص الزفير الممزق الذى يرتديه الشاب وينام فيه — نظر الأستاذ حسبو إلى هذا كله ثم إلى الشاب الذى يتصبب أمامه عرقاً وخزياً من كل شىء وقع عليه نظره فى الغرفة. وأحس الأستاذ حسبو الخزى والخجل اللذين أحس بهما الشاب . فكيف ينبئه بالمهمة التى جاء من أجلها ؟ إنه أحس بالعطف على هذا الشاب منذ

المرة الأولى التى رآه فيها ، منذ أن قال له أن لاأحد له فى الوجود غير الله ، وهو يحس هذا العطف يتضاعف الآن ويزداد ويكاد يبلغ أقصاه عندما رأى غرفته ، ومنامته ، وبؤسه هذا البائس ، وفقره هذا الذى لا يماثله إلا فقره هو وبؤسه ، فكيف يطرده الآن من الغرفة ؟ كيف يلقى بمتاعه فى الحارة ؟ ثم أين هو المتاع الذى سيلقى به ؟ إنه إن ألقى بشىء إلى الخارج ، فلن يلقى إلا بالشاب نفسه .. وفى هذا قسوة وظلم .

وأحس الرجل بحرج شديد ، وبشىء من الضيق يكاد يجثم على صدره ، فأخرج زجاجة الكونياك ، وتناول منها عدة جرعات ، ثم قال للشاب مبتسماً بعد أن مسح على شفتيه : جئت أطمئن عليك .

ـــ أشكرك . وهذا ما كنت أنتظره منك .

فعاود الأستاذ حسبو النظر إلى الغرفة ومحتوياتها مرة أخرى ثم قال : أأعجبتك الغرفة ؟

ـــ نعمة كبيرة وفضل من الله .

فارتبك الأستاذ حسبو بعض الشىء ، ولكنه قال : أخشى أن تكون الغرفة رطبة عليك .

ـــ أبداً . . أبداً . .

ثم ابتسم الشاب وقال : فرق كبير بينها وبين غرفتنا السابقة فى دهليز المرعشلى .

فاغتاظ الأستاذ حسبو وقال : الحقيقة أن جميع الذين قطنوها خرجوا منها مرضى ومصابين بالروماتزم . وأنا كما قلت لك أحببتك ، منذ أن رأيتك ، ولذلك فأنا أخشى عليك المرض يا بنى .

ـــ المرض والصحة بيد الله . وما دامت هذه الغرفة منك ، وعن طريقك ، فلن أبرحها حتى ولو كان فيها مماتى .

فأخرج الأستاذ حسبو زجاجة الكونياك مرة أخرى . وتجرع منها عدة جرعات ثم أعادها إلى جيبه الخلفى ، ونظر إلى الشاب وقال له

هامساً بعد أن مسح على شفتيه مرة أخرى : إذن تعاهدنى على أن تكون معى دائماً ، وتفعل كل ما أشير عليك به .

— أعاهدك . .

— وأن تتخذ منى صديقاً مخلصاً لك .

— بل سأتخذ منك والداً .

فرفع الأستاذ حسبو ذراعيه المرتعشتين وطوق بهما عنق الشاب وقبله ، ثم أمسك بيديه ورفعهما مع يديه إلى أعلى وهو يقول : ردد معى هذا الدعاء ، قل من قلبك : اللهم انصرنا على القوم الظالمين — اللهم انصرنا على القوم الظالمين . اللهم انصرنا على الفوم الظالمين . اللهم اجعل انتقامنا منها بقدر إساءتها إلينا .

فقال الشاب فى دهشة كبيرة بعد أن ردد الدعاء : من هى ؟

فقال الأستاذ حسبو وهو يضحك ويخرج من الباب ويغلقه خلفه على الشاب : الدنيا الظالمة يا بنى !

ثم انطلق إلى فناء الدهليز . ووقعت عينه على باب غرفة المعلمة ورآه مفتوحاً . إنها ما زالت تنتظره ، وستسأله ماذا فعل ؟ ولماذا لم يطرد الشاب ويخرجه الآن ؟ فماذا يقول لها ؟ وحقيقة لماذا لم ينفذ رغبتها ، ويطرد الشاب كما أمرته ؟ أليس بيتها ؟ أليست هى صاحبة الحق المطلق فى ملكها تبقى من تشاء ، وتطرد من تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، فلماذا يوقع هو نفسه فى هذا الحرج الشديد ، ويعرض نفسه إلى سخطها وإيذائها الكبير ؟ لقد ذهب إلى الشاب ليقول له ان المعلمة أمرت بإخراجه الليلة . فلماذا عاهده على أن يكون له عوناً . عونا على من ؟ على هذه المرأة ! ! إن رجال الزقاق جميعاً ، بل رجال الحارة أيضاً ، بل رجال الحى كلهم لو تكاتفوا وتعاونوا وتعاهدوا وكانوا يداً واحدة على هذه المرأة ، لبطشت بهم جميعاً ، فكيف يقف هو وهذا الشاب الذى لا حول له ولا قوة أمامها ، وكيف يبلغ به الجنون أن يفكر فى هذا ؟

أن يوقع نفسه فى هذا الشر الكبير ؟ إن المثل يقول : « اربط الحمار فى المكان الذى يأمر به صاحبه » ، وهى قد أمرت أن يطرد هذا الشاب فليطرد الشاب كما أمرت .

وأخرج من جيبه الخلفى زجاجة الكونياك ، وتجرع منها عدة جرعات وأعادها إلى مكانها ، ثم مسح على شفتيه ، واتجه سريعاً إلى غرفة الشاب ، ووقف على بابها ، ورفع يده المرتعشة لينقر عليها من جديد . ولكن ماذا يقول له؟ المعلمة تريد أن تطردك من الغرفة ، وتأمرك بالخروج الآن ؟ لماذا ؟ حقيقة لماذا ؟ لماذا تريد هذه المرأة القاسية القلب أن تطرده ؟ لقد كانت هذه الغرفة تؤجر بخمسة وعشرين قرشاً ، فاستأجرها هذا الشاب بثلاثين ، وكان الإيجار يدفع مؤخراً ، وفى نهاية كل شهر ، ودفعه هذا الشاب مقدماً وفى أوائل الشهر ، فلماذا يطرد ؟ لا . . لا . . لن يطرد هذا الشاب ، ولن يطرده هو أبداً ، ولن تطرده هى أيضاً ، وإذا طردته فسيتعرض هو لها ، سيمنعها ولو أدى به الأمر إلى أن يغرس أظافره هذه الطويلة المدببة فى عينيها ، وليكن ما يكون . إن ما سيكون مهما يكن سواده فلن تبلغ حلكته هذا السواد الذى يعيش فيه مع هذه المرأة ، هذا البؤس الذى يتمرغ فيه . وأنزل يده التى كان قد رفعها لينقر بها على باب غرفة الشاب ، وهم أن ينقل قدمه ليرجع من حيث أتى ، بيد أنه فجأة وقف فى مكانه مرتعشاً وجلا مبهور الأنفاس ، فقد سمع صوت المعلمة ينبعث مدوياً من غرفتها تناديه باسمه . . حسبو . . حسبو . . فأسرع إليها فى ذعر شديد ، ووقف أمام باب الغرفة ، فقد كان محرماً عليه أن يدخل عليها غرفتها . ولما رأته قالت له وغضب الدنيا جميعها يرتسم على وجهها : هل طردت هذا الفتى ؟

— أجل . . أجل . . طردته ، طردته .

— وخرج نهائياً؟

— أصدرت إليه الأوامر المشددة بالخروج فوراً ، فذهب ليأتى

بجمال يحمل له متاعه إلى لوكاندة المدينة المنورة حيث كان .

— مدينة منورة ، مدينة مظلمة ، فقط يخرج الليلة .

قالت له ذلك وهمت أن تدخل وترد الباب فى وجهه بعنف شديد كما تعودت أن ترده دائماً فى وجهه بعنف شديد ، بيد أنها لم تكد تفعل حتى سمعت فجأة صوت الشنوانى وهو أحد عمال السرجة ينادى ويستغيث ويولول صارخا : بهلول . . بهلول . . أغيثونى . . الحقونى . بهلول سقط فى البئر . بهلول سقط فى البئر .

فانطلقت كالسهم ومن خلفها الأستاذ حسبو يقطع فناء الدهليز . وما إن أقبلت على السرجة ورأت الحمار فى قلب البئر غارقاً وسط عصير الكسب والبذور اللزجة ، يكاد يموت وتختنق أنفاسه ، وقد غطس كله فى قلب البئر ، ولم يظهر منه سوى رأسه وأذنيه فقط حتى انفجر مرجل غضبها ، وتعالى صراخها فى الليل ، كما انطلق الأستاذ حسبو مهرولا إلى الزقاق هائجاً منادياً بأعلى صوته على أهل الزقاق أن يهبوا لإنقاذ بهلول من البئر . وما هى إلا لحظات حتى اجتمع أهل الزقاق جميعاً رجالا ونساء فى قلب السرجة ، الكل يحاول أن يهدئ من ثورة المعلمة ، والكل يحاول أن يخرج بهلول من قلب البئر . وتعالى الصراخ والهرج والمرج . هؤلاء يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يزحزحوا الحجر الضخم الذى انزلق من مكانه فوق فتحة البئر وسدها على الحمار فلا يستطيعون ، وهذا ينادى بأعلى صوته طالباً حبلا أو جنزيراً ليحزم به الحمار ، ثم يتعاون الجميع على رفعه ، وهذا ينزع ثيابه ويغطس فى قلب البئر ، محاولا أن يحرك الحمار من مكانه فلا يتمدر ، وهذه تصرخ مولولة على الحمار الذى يكاد يختنق ، والمعلمة تنذر بالويل والثبور لسكان الزقاق ، وعمال السرجة وعلى رأسهم الأستاذ حسبو إن مات الحمار أو أصيب بسوء . وبينما الجميع يأخذهم الفزع واليأس إذا الشاب يخرج من غرفته على هذا الصراخ والعويل ، ويقف فيهم ، ويستأذن من الجميع أن يبتعدوا

قليلا . ونظر إلى الحجر الضخم ، ثم ثبت ظهره على جدار السرجة وقدميه الاثنتين على الحجر ، ومن ثم ضغط بكل قوته ، وهو يبسمل ويتمتم بشيء من القرآن، فإذا الحجر الضخم يتدحرج أمامه كالكرة ، ثم شمر عن فخذيه ، وعقد حول خصره أطراف قميصه الممزق الذى يرتديه ، وسقط فى قلب البئر ! وما هى إلا لحظات تكاد تشبه الغمض حتى خرج بالحمار محمولا على كتفيه ممسكاً به بذراع واحدة قد لفها حول ظهره ، ووقف الجميع ينظرون فى دهشة ، ووقفت المعلمة مبهورة جاحظة العينين تنظر إلى كتف الشاب العريضة الضخمة التى تحمل الحمار وذراعه المفتولة القوية ، التى تلتف حوله ، ثم تنظر إلى جسمه الفارع القوى وهو يسير بالحمار حتى بلغ به فناء الدهليز ووضعه على الأرض بين الحياة والموت. ظن الجميع أن الحمار قد مات ، بيد أن الشاب طمأنهم إذ طلب رأساً من البصل، ولما جىء به إليه شطره شطرين، ومن ثم ضغط عليه بين أصابع يده الواحدة فتساقط عصير البصل نقاطاً سكبها الشاب فى منخارى الحمار الذى ما لبث أن أفاق كأن لم يحدث له شىء .. ولما رآه الشاب كذلك ، ورأى أن مهمته قد انتهت ، مد يده وأزال عن قميصه بعض الأوحال التى تلوث بها ، وهم أن ينصرف ، بيد أن المعلمة ، التى ما زالت نظراتها المبهورة ، وعيونها الجاحظة عالقة بذراعه وكتفيه لم تتزحزح ، اقتربت منه وسألته قائلة : أتقطن أنت فى هذا الحى؟

فنظر الشاب إلى باب الغرفة الذى يجاور باب غرفتها تماماً وقال : إننى أقطن فى هذه الغرفة . .

فأخذتها المفاجأة وهى تزم شفتيها سريعاً ، وتكاد تغمض عينيها حتى لا تفضحها دهشتها ، وقالت : إذن انزع هذا القميص لكى أغسله لك .

فقال الشاب بدون أن ينظر إليها وهو يفتح باب غرفته ويتوارى

خلفه : شكراً . . سوف أغسله بنفسي !
وهمت أن تدخل وراءه الغرفة وأن تقول له شيئاً ، ولكن صوتاً خفيضاً جداً يكاد يشبه الهمس أقبل من وراء ظهرها يقول : أنفذ الحكم وأطرده . . أم تراجع المحكمة نفسها ؟
فلم تلتفت إلى الأستاذ حسبو الذى كانت الابتسامة العريضة تغمر وجهه وترقص على شفتيه . . وإنما تركته وانصرفت إلى غرفتها صامتة تنظر إلى شيء بعيد .

١١

كان من الأشياء التى اتخذها الشاب عن أبيه ، وتمسك بها ، وعاهد نفسه وربه عليها ، أداء فريضة الصلاة فى مواعيدها . . وألا يصلى الفجر قضاء أبداً مهما تكن الأسباب . وقد أصبحت هذه عادة عنده ، فهو مهما كان متعباً . ومهما كان مستغرقاً فى نومه ، فلا بد أن يستيقظ فى ساعة محددة من الليل تسبق صلاة الفجر دائماً بنصف ساعة على الأقل . ثم هو لا ينام بعدها ثانية .

وقد استيقظ من تلقاء نفسه قبيل الفجر فى تلك الليلة ، ونهض من فراشه وأشعل المصباح الزجاجى ذا البرنيطة التى صنعها له من الورق السميك ، ثم وضع القبقاب فى قدميه وخرج إلى الدهليز وفتح الحنفية التى أحدث صوت الماء المنساب منها فى البراميل صوتاً مزعجاً فى الليل أقلق المعلمة شفعات فى فراشها ، ففتحت عينيها فى الظلام ، ومدت أذنيها فى الليل ، فسمعت صوت الشاب عند الحنفية يتوضأ ويردد الشهادتين بصوت عال ، فضايقها هذا بعض الضيق ، ولكنها مدت يدها وسحبت الغطاء على وجهها ونامت ، بيد أنها عادت فاستيقظت ثانية عندما انتهى الشاب من وضوئه وعاد يدق بلاط الغرفة بالقبقاب

الذى فى قدميه ، فأحدث القبقاب صوتاً مزعجاً أيضاً نفذ إلى أذنيها مباشرة ، فازداد ضجرها ، وزاد من هذا الضجر صوت وابور الجاز الذى أشعله الشاب ووضع عليه إبريق الشاى لكى يغلى الماء فى الفترة التى يقضيها فى الصلاة ، وضايقها هذا كله ضيقاً شديداً ، وأقلقها ، وأثار سخطها إلى حد أنها راحت فوق الفراش تحدث نفسها وهى تتقلب كالسمكة فى الماء ، وتنام حيناً على جنبها الأيسر ، وحيناً على جنبها الأيمن ، وحينا آخر تسد أذنيها ، ومرة تغمض عينيها . وظلت كذلك حتى انطفأ وابور الغاز ، وتلاشى صوته المزعج ، فهدأت ثائرتها ، ومدت يدها إلى الغطاء وسحبته على وجهها مرة أخرى ، وأغمضت عينيها ونامت ، بيد أن هذا النوم لم يمتد بها طويلا هذه المرة ، لأن الذى فعله الشاب — وكما تعود أن يفعله كل ليلة — أنه بعد أن خلص من صلاة الفجر وصنع الشاى وأفرغه فى كوب أمامه جلس أمام المصباح ليذاكر ، فتناول ألفية ابن مالك ، وكان حفظها بالنسبة إليه عسيراً للغاية ، وقد زادها عسراً الشيخ زناتى — وكيل الكلية — الذى حتم على طلبة اللغة العربية ضرورة حفظها فى خلال خمسة عشر يوماً ، حفظاً مجوداً ، وأن تفهم فهماً . . مفهماً . . ومعروفاً معرفاً ، كما كان يقول — رحمه الله — لذلك جلس الشاب بعد أن خلص من صلاة الفجر متربعاً أمام المصباح وراح يبدأ ويعيد ، ويتلو ويرتل ، وهو يهتز أمام المصباح ذات اليمين وذات الشمال ناسياً نفسه وهو يقرأ بصوت عال مسموع :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم　　　واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم　　　وكلمة بها كلام قد يؤم

ونفذ صوت الشاب إلى أذنيها من ثنايا الباب الذى يصل بين الغرفتين والذى وضعت أمامه الدولاب لكى تسده نهائياً وتفصل بين غرفتها والغرفة الأخرى . فنفذ إلى أذنيها خشناً أجش بغيضاً ، أطار النوم من عينيها ، وأقلقها قلقاً كبيراً ، فثارت ثورة عنيفة ، وهبت من فراشها ساخطة ،

وفتحت باب غرفتها فى عنف ، ووقفت فى فناء الدهليز تنادى بأعلى صوتها حسبو ، لكى ينقذها من هذا الكرب ، ولكن الأستاذ حسبو كان فى فراشه ، نائماً ببذلته الخالدة وصدريته الممزقة ذات الأزرار الصدفية الغالية أشبه بتحفة أثرية يرجع عهدها إلى عدة قرون ، يغط فى نوم عميق ، ليس من سبيل إلى إيقاظه منه ، حتى ولو انهدم الدهليز ، أو سقط بهلول فى البئر مرة أخرى .

ولما بح صوتها دون مجيب ، وغاظها ذلك جداً ، وزادها سخطاً على سخطها ، اندفعت فى ثورة هائلة ، ودفعت باب غرفة الشاب فانفتح على مصراعيه فأحدث دوياً هائلا ذعر منه الفتى ذعراً شديداً . وزاده ذعراً عندما وجد أمامه امرأة شابة عارية إلا من قميص نوم رقيق ، كاد يكشف عن الجسد كله ، تدخل عليه غرفته فى الليل ، وتسبه سباً مقذعاً جارح اللفظ قبيح المعنى : أنت تخرج الآن . . فوراً . . أنت تظن نفسك فى ميضة . . حنفية تفتح طول الليل . . قبقاب يدق على البلاط كما تدق أرجل البغال .. وابور جاز يشعل بصوت مزعج . . تقرأ بصوت كصوت الحمير ، وما تعيده تزيده كفقهاء الجبانة . . حرف يؤم فى قلبك وكلام يغم فى عينك ، وعين الذين خلفوك .

واستمع الشاب إلى كل هذا ذاهلا مأخوذاً ، حتى إنه من شدة دهشته البالغة لم يسمع أو يفطن إلى بعض العبارات التى صدرت منها . بيد أنه نظر إليها بعد ان انتهت من هذا السباب ، وما إن رفع عينيه إلى صدرها العارى وقميصها الذى انشق من أمام عن قبة الثديين ، حتى رد البصر سريعاً وأغمض عينيه ، وهو يحوقل ويتمتم بألفاظ من القرآن وكأنه يستغفر عن ذنب كبير . ثم بعد جهد ، وبعد لحظات مضت ، استطاع أن يسترد فيها أنفاسه ويقول وهو يفتح عينه دون أن ينظر إليها : من حضرتك ؟

فقالت ساخرة وصدرها ما زال يعلو ويهبط من شدة الغضب :

عاشقة لك . . مغرمة بك . . متيمة لم تنم طول الليل من أجل عيونك السوداء .

ثم استردت أنفاسها سريعاً وقالت فى نفس الثورة والغضب : أتريد أن تعرف من أنا؟ أنا صاحبة البيت.. صاحبةهذه الميضة التى تسكن فيها.

فقال الشاب وعينه لم تهبط إلى أكثر من وجهها الثائر وشفتيها المضطربتين. ولكن فى غيظ شديد : وهل صاحبة البيت تكون على هذا الجانب من الوقاحة؟

فغلى الدم فى عروقها وهى تقول : أنا وقحة يا كلب ؟ !

ــ وغير مؤدبة .

فاربدت سحنتها اربداداً مفزعاً ، وانحنت فى سرعة خاطفة على قدمها اليمنى وتناولت الشبشب ذا الكعب العالى والوردة الحمراء . ورفعت ذراعها به فى وجهه وهى تقترب منه كلبؤة مفترسة وتتمتم بشفتين مرتعشتين : أنا قليلة الأدب . . يابن الكلب . .

بيد أن الشاب لم يمهلها تم ، فقد كانت يده أسبق إلى ذراعها التى تريد أن تنهال عليه ، وأمسك بها فى عنف ، وضغط عليها فى قوة وغضب حتى كادت الذراع تختنق بين أصابعه الخشنة والمتوترة ، فاضطربت المرأة ووقفت خائفة ترتجف تنظر إلى تلك الذراع القوية المتحجرة التى أمامها ، وتلك اليد التى تضغط على ذراعها حتى تكاد تعصرها عصراً . وحانت منها التفاتة إلى كتف الشاب العريضة الصلبة التى تشبه الفولاذ ، والتى رأتها منذ ساعات تحمل الحمار فى يسر وكأنها تحمل دجاجة ، فارتعبت وخافت ، وسقط الشبشب من يدها . وعند ذلك تركها الشاب ، وقال وهو يبتعد عنها قليلا وينظر إليها شزرا : لو أن امرأة فى قريتنا فعلت هذا ، ورفعت الشبشب فى وجه رجل ، أيا كان هذا الرجل ، لكان نصيبها القتل . ولكنى أكتفى الآن بطردك .

ثم نظر إلى باب الغرفة وقال وهو يشير إليها بالخروج : تفضلى .



فلم تجب بشيء أو كأنها كانت تريد أن تجيب بشيء، ولكنها انفجرت على الفور باكية ترتعش ، وجسدها كله يضطرب ويهتز وكأنها خشيت أن تسقط ، فاستندت إلى الحائط وارتفقته بذراعيها العاريتين، ودفنت رأسها الصغير الجميل بينهما ، ومن ثم راحت تبكى بكاء مكتوماً ، وتضطرب اضطراباً عنيفاً . ونظر الشاب إليها ، وإلى جسدها الذى يغلى كالمرجل أمام عينيه ، وإلى الدموع التى انسابت من عينيها وتساقطت على القميص فبللته، فخاف وارتبك بعض الشيء ، وانقلبت ثورته إلى شفقة ، وغضبته العنيفة إلى عطف كبير على المرأة المستضعفة أمامه ، فاقترب منها وهو يحوقل ثانية ويتمتم بألفاظ من القرآن مرة أخرى ، ويغمض عينيه ، حتى لا يبيح لنفسه ما حرم الله ، ويرى ما أمر الله أن يستر ، ولذلك قال وهو ينظر إلى بعيد وكأنه يخاطب شخصاً آخر : مم تبكين؟

فلم تجب وإنما استرسلت فى بكائها المرير ، فقال الشاب وهو أشد ما يكون أسفا : إن كنت فى لحظة غضبى قد أسأت إليك ، فإنى أعتذر وأرجو من الله ومنك المغفرة على هذا الذنب الذى لم تكن لى يد فيه .

فرفعت صدرها الملتصق بالحائط ، ونظرت إليه بعينيها المحمرتين الغارقتين فى الدموع ، وقالت بصوت حزين أثار شفقة الشاب إلى حد كبير : إننى أبكى حظى العاثر ، وبختى المائل ، ونصيبى الذى هو أشد سواداً من الليل . إننى امرأة شرسة الطباع ما فى ذلك شك . أسىء إلى من يحسن إلى . وقد أسأت إليك برغم الحسنة التى قدمتها لى ، وبرغم أنك أنقذت بهلول من الموت . ولكن هكذا أنا ، فاعذرنى . إن الأيام ، والليالى ، وسوء الطالع الذى يلازمنى دائماً ، وحظى العاثر مع كل الذين يحيطون بى ، كل ذلك جعلنى مرهقة دائماً ، مجهدة الأعصاب دائماً . أتفه الأشياء تثيرنى وتقلقنى ، وتسبب لى النكد الشديد . وكذلك أيضاً أتفه الأشياء تضحكنى وتسعدنى ، وتطربنى طرباً شديداً . أنا أشبه

ما أكون بطفلة ، بامرأة لا عقل لها . إن الذى يعرفنى لا يغضب منى أبداً ، وإنما يشفق على دائماً .

ثم استرسلت فى بكائها حيناً آخر ، واستطردت : ولكن لا أحد يعرفنى ، ولذلك الكل يسىء إلى ، والكل يغضب منى .

ثم صمتت لحظات أخرى ، جففت فيها دموعها وقالت فى صوت خفيض جداً ، حزين جداً : أنا امرأة شقية ، أنا أشقى امرأة قدر لها أن تعيش فى هذه الدنيا .

وتأثر الشاب ، وقال وهو يمد يده ويتناول الكاكولة الكشمير من على المسمار ويطرحها على جسدها الذى كاد أن يتعرى أمامه بعد أن سالت الدموع على قميصها وألصقت نسجه الرقيق على البطن بدون أن تفطن هى إلى ذلك : إنك مسكينة . . إلى هذا الحد تشقين فى حياتك ؟

— وأكثر من هذا الحد .

— وما السبب فى ذلك ؟

— كل شىء . . كل شىء .

— أسرتك مثلا ؟

— لو كانت لى أسرة ما كان هذا حالى . . قلت لك إنى شقية .. لا أب ، ولا أم ، ولا أخت ، ولا قريب أتفيأ بظله .

— وزوجك ؟

فانفجرت باكية بكاء عنيفاً ، حتى راح جسدها يضطرب ويعلو ويهبط تحت الكاكولة المنطرحة عليه . وظلت كذلك إلى حين بدون أن يجرؤ الشاب على أن يقول لها شيئاً ، أو يخرجها من هذه الحمى التى انتابتها إلى أن رفعت إليه وجهها الغارق بالدموع ، ونظرت إليه بنفس العينين المحمرتين اللتين بلون الدم وتمتمت بصوت يكاد يحترق ، وهى تزيح الدموع التى تجمعت على شفتيها : زوجى مات .

— عظم الله أجرك .

نطقها الشاب فى حزن شديد ، وألم ارتسمت معالمه على وجهه وهو يصغي إليها وهي تتحدث مستطردة : مات من سبع سنوات كاملة ، وأنا أعيش فى ظلام، أرى كل شيء ولا أرى شيئاً. أضحك لكل شيء وما عرفت الابتسامة طريقها إلى قلبي . وأعيش فى الدنيا ومع الناس وليس لى أحد فى الوجود . كان هو الفرحة ، والابتسامة ، والدنيا ، والحياة . كان هو النور الذى أفتح عليه عينى ، والمناعة التى يعيش عليها قلبي . كان هو الوجود كله ، ولكنه مات .

فنظر إليها الشاب وقال لها : إنك طيبة القلب إلى حد كبير .

— ولكنهم يقولون غير ذلك .

— لهم ما يقولون . ولله القول الفصل . .

— ترى هل يغفر لى الله هذه الأخطاء وهذه المعاملة القاسية للناس ؟

— طالما أنك تحملين هذا القلب الطيب ، وهذه السريرة النقية ، وهذا الوفاء الذى لا حد له لزوجك ، فثقى أن الجنة مثواك إن شاء الله .

— هل تغفر أنت لى خطئى معك اليوم ، وتهجمى عليك ، وغلظتى لك فى القول ؟

فقال الشاب فى ابتسامة صادقة تألقت على شفتيه : وهل يملك الابن إلا أن يغفر لأمه كل شيء . .

فنظرت إليه وقد أثارها على الرغم منها هذا التشبيه ، وكاد ينفجر معين غضبها مرة ثانية ، ولكنها أسرعت وخنقت هذه الثورة فى صدرها وقالت مبتسمة : وهل أنا مثل أمك ؟

فقال الشاب فى سذاجة لا حد لها : ثقى أنه من الآن لا فرق عندى بينك وبين أمى . .

فقامت ناهضة وهي تضحك فى غيظ ، وتزيح الكاكولة من على كتفيها وتعيدها إليه : إذن أمك عجوز جداً .

فقطن الشاب إلى الخطأ الذى تورط فيه ، وقال على الفور يجاريها

فى ضحكتها ، وهو يغمض عينيه ويشيح بوجهه حتى لا تقع نظراته على القميص الملتصق على البطن : أقصد فى المعاملة ، وليس فى السن طبعاً .

فقالت وهى تمد يدها لتصافحه وتنصرف : إنك أنت أيضاً طيب القلب جداً .

ثم قالت وهى تشير بيدها إلى الباب المغلق الذى يفصل بين الحجرتين : إننى جارتك . وهذه هى غرفتى ، وأى شىء تحتاج إليه تجده فى الحال .

فقال الشاب : هذا فضل منك . والله أرجو أن يجزيك عنى خير الجزاء .

فنظرت إليه وشىء يلتمع فى عينيها ، ثم قالت ضاحكة وهى تخرج وترد الباب : أهكذا كل المجاورين لا بد أن يتكلموا بالنحوى ؟

وأحرج الشاب هذا القول — المجاورين — واحمر له وجهه خجلا ، وأراد أن يهم خلفها ويقول لها شيئاً ويصحح لها الوضع ، ويفهمها بأنه ليس مجاوراً فى الأزهر كما تظن ، وإنما فى سنوات التخصص ، وعما قريب سيصبح مدرساً للنشء معترفاً به من وزارة « المعارف » ، ويفهمها غير ذلك أيضاً ، يفهمها أن المجاور فى الأزهر لا يستحق منها هذه السخرية ، فهو رجل علم ، ودين ، وصلاح ، وتقوى ، وليس هو كما تظن — فتى — من الذين يتسولون بكلام الله وآياته المحكمات .

وراح بينه وبين نفسه يعجب من هؤلاء الذين يحملون فى نفوسهم كل هذه السخرية للمجاورين فى الأزهر الشريف وطلاب العلم والدين ، وكيف أنهم بهذه السخرية وهذه النظرة المزرية له ، يرتكبون إثماً كبيراً وهم لا يشعرون . وراحت هذه الأفكار تلم به ، وتثقل عليه وهو يرتدى ثيابه ليخرج ، بيد أنه قبل أن يخرج سمع طرقاً على الباب ، وسمع صوت الأستاذ حسبو يناديه ، فأسرع وفتح الباب ، وما إن رآه الأستاذ حسبو

مرتدياً ملابسه حتى اندهش ، وسأله لماذا استيقظ هكذا مبكراً وارتدى ثيابه أيضاً ؟ وأين يريد أن يذهب فى هذا الوقت المبكر ؟ فأخبره الشاب بأنه تعود دائماً أن يستيقظ هكذا كل يوم ليصلى الفجر ، وأن يخرج أيضاً مبكراً لأنه تعود كذلك أن يذهب إلى الكلية مشياً على قدميه ، ليوفر أجر الترام الذى لم يدخل أجره فى حسابه . فاندهش الأستاذ حسبو وقال مشفقا وهو ينظر إليه : ولكن المسافة طويلة جداً يا بنى ، ولا أحسبك قادراً على أن تقطعها على قدميك فى الذهاب والإياب كل يوم.

– الله يعين .

ثم قال فى ثقة وإيمان : وهو سبحانه ، قد وهبنا الصحة من أجل ذلك ، من أجل أن نستعين بها على هذه الصعاب .

فقال الأستاذ حسبو وهو يتناول نصف رغيف كان أمامه على الطبلية بجوار كوب الشاى الفارغ ويقضم منه : إذن فلى نصيحة ، يتوقف عليها مصيرك فى هذا البيت ، بعد أن ثبت الله أقدامك فيه بفضل بهلول !

– خيراً . ما هى ؟

– ما دمت تستيقظ كل يوم مبكراً هكذا ، فعليك ألا تحدث ضجيجاً فى الغرفة ولا فى الدهليز . فمثلا الحنفية لا تفتحها إلا بمقدار حتى لا تحدث صوتاً ، ولا تسير بالقبقاب على البلاط ، وإن ذاكرت بعض دروسك فبصوت خافت . حتى لا تقلق المعلمة فى نومها ، فتقلب لنا البيت رأساً على عقب .

فقال الشاب ضاحكاً على الفور : وكادت أن تقلبه اليوم ، لولا أن الله سلم .

فقال الأستاذ حسبو فاغراً فاه : هل أقلقت المعلمة ؟

– لم أقصد .

ـ وماذا فعلت ؟ قل . . أسرع .

ـ اقتحمت على الباب ، وأغلظت لى فى القول ، وبلغت بها القحة بأن رفعت الشبشب فى وجهى ، ولم تلق به إلا عندما هممت بضربها .

فارتعشت شفتا الأستاذ حسبو وهو يسأل ذاهلا : تضربها ؟ تضرب من ؟

فقص عليه الشاب كل الذى حدث . وكيف أنهما تصالحا ، وخرجت راضية ، وكيف أنها ست طيبة القلب ، لا تضمر سوءاً ، وإن كان مظهرها يدل على غير ذلك . إلى أن أنهى الشاب حديثه قائلا : إنها فعلا سيدة طيبة القلب إلى حد كبير حتى إننى وضعتها فى منزلة أمى .

ـ أمك ؟ !

نطقها الأستاذ حسبو وهو يتلفت حواليه كمن يريد أن يستغيث . ثم أسرع إلى الشاب وأمسك بذراعه ، وسحبه إلى ركن قصى بعيد عن البابين حتى لا يسمعه أحد ، ثم همس فى أذنه وهو ما زال يتلفت حواليه فى خوف شديد : إنك مغفل .

ولم يدع الشاب يقول شيئاً لأنه استطرد : إنها أفعى ، ثعبان كبير ، حشرة مؤذية ، سم بطىء ، مرض خبيث !

ثم تلفت حواليه مرة أخرى ، وهو ممسك بذراع الشاب ، وواصل قوله : إنها تماماً كالقنبلة التى لم تنفجر ، من الخير للناس جميعاً أن يبتعدوا عنها ، أن يتجنبوا خطرها وأذاها . لو أدى بك الأمر أن تبطل صلاة الفجر هذه ، حتى لاتفتح الحنفية ، وتدق بالقبقاب على البلاط فتقلقها ، فسوف يغفر الله لك ، لأنه أشفق بعباده من أن يكتووا بنارها .

ثم تلفت حواليه ثانية وأراد أن يقول شيئاً آخر ، ولكن الكلمات وقفت فى حلقه ، وجحظت عيناه ، وارتعشت يده الممسكة بذراع الشاب وهو يصغى إلى صوتها الجهورى فى الدهليز ، وهى تنادى فى

عصبية : حسبو . . يا هباب يا حسبو . . يا زفت يا حسبو .
وكما ينطلق السهم ، انطلق الأستاذ حسبو مبهور الأنفاس .

١٢

خرج الشاب بعد هذا الحديث القصير بينه وبين الأستاذ حسبو ، يفكر بعض التفكير لا فى هذه المرأة وما قالته له أو قاله عنها الأستاذ حسبو . . لأن الأمر سواء أكان هذا أم ذاك فهو لا يعنيه فى شىء ، وإنما الذى فكر فيه هو معاملتها هذه القاسية للأستاذ حسبو ، وثورتها دائما عليه ، وغلظتها له فى القول كلما رأته أو تحدثت معه . بيد أن التفكير فى هذا سرعان ما نسيه أيضاً ، إذ شغل عنه بألفية ابن مالك التى راح يقرؤها فى سره وهو يسير فى الطريق ، سره أن وجد نفسه قد حفظها وحفظها جيداً مجوداً ، وفهمها أيضا فهماً مفهماً كما يريد الشيخ زناتى . وقد أبهجه ذلك إلى حد كبير ، وجعله يتذكر أمه ، ودعواتها الصالحة إليه . . والتميمة التى طلبت منه أن يحتفظ بها فى جيبه ، وفكر فى أن يكتب لها رسالة ليطمئنها عليه ، وعلى النجاح الذى أصابه حتى الآن ، فى السكن ، وفى معرفة الأستاذ حسبو وصداقته وحبه إياه ، وفى الكلية وتعلقه بدروسه ، وحفظه ألفية ابن مالك حفظاً جيداً مجوداً . فكر أن يكتب إليها بكل هذا ولكنه تذكر الأستاذ الشرنوبى أبا إسماعيل ، وزوجته الست صبرية ، وابنتهما سلوى ، فى الرسالة التى فى جيبه إليهم ، والسلام الذى حملته أمه للرجل وأسرته .

فكر فى كل هذا ، وفى ضرورة الكتابة إلى أمه ، لكن بعد أن يقوم بهذه الزيارة عصر اليوم . لذلك عندما خرج من الكلية لم يذهب إلى البيت ، وإنما ذهب إلى العباسية ، وراح يسأل عن الوايلية الصغرى وشارع (. .) والبيت رقم (. .) بيد أنه عندما عثر على البيت ، وبدأ

يصعد السلم ، انتابته أحاسيس كثيرة، أحس بشيء من الاضطراب ، حتى إنه وقف لحظات على السلم ، وفكر فى أن يرجع من حيث أتى ، وأن يرجئ هذه الزيارة إلى فرصة أخرى، لأنه لم يطمئن إلى أشياء كثيرة، ولأنه يخاف أيضاً من أشياء كثيرة . . هل يستقبله الأستاذ الشرنوبى بالترحاب الذى ينتظره ، أو أن السنين الطويلة التى فاتت . والمركز الكبير الذى يشغله فى وزارة المعارف العمومية ، والأيام التى من طبيعتها أن تغير كل شيء ، قد غيرت من الرجل، فتجعله يستقبله — إن استقبله — فى فتور وعدم ترحاب ، وينظر إليه — إن نظر — من أعلى ، كما ينظر أهل السماء إلى أهل الأرض ؟ والست صبرية زوجته . هذه السيدة الطيبة القلب الكريمة الخلق ، هل تتلقاه كما كانت تتلقاه وهو طفل فى الحارة ، هاشة باشة مرحبة ، تأخذه بين أحضانها وتقبله ، وتملأ له جيبه بالحلوى ، أو غيرت الأيام حالها ، فترفض حتى مجرد الترحيب ؟ وسلوى . . وما إن ذكر الاسم وجرى به لسانه ، حتى اضطرب وتعالت دقات قلبه ، وشعر بما يشبه الخوف يلم به ويطبق على أنفاسه . ترى ألم تزل هى الأخرى كالعهد بها طفلة لم تزد على أمس إلا أصبعاً كما قال الشاعر ، أم كبرت ونضجت ، وأينع فرعها ، ورق عودها ، وغدت ستاً مصرية متحضرة ، فيصعب عليها معرفته إن رأته ، أم تذكره وتذكر أيامة والقرية والزقاق والحارة ، وليالى الجرن ، وفوانيس رمضان ، والاستغماية ، والحلقة والمضرب وو . . ؟ وأحس بأنفاسه تطبق عليه مرة أخرى . . أأنستها الأيام والسنون هذا كله ؟ هل تعرفه ؟ هل تلقاه ؟ هل يعرفها هو ؟ هل يلقاها ، ويتحدث إليها وتتحدث هى إليه ؟

وحانت منه التفاتة إلى قدمه ، وهو يصعد السلم متخاذلا فرأى الحذاء الأصفر الفاقع ، والإبزيم الذى ينام ملتمعاً على جانبه ، فشعر بشيء من الارتياح .. وزادته هذه الراحة اطمئناناً وهو ينظر إلى الكاكولة الكشمير الفضفاضة التى تزين طوله الفارع وقوامه الممشوق ، وازداد

اطمئناناً أيضاً عندما رأى على مرآة خاطره عمامته البيضاء التى تزين رأسه ، وشالها المزهر الأبيض الناصع البياض الذى يلفه حولها . وكان قد وصل إلى باب الشقة ، ووقف أمامه ، فبسمل وقرأ بعض آيات قصار من سورة الحجرات تعود أن يقرأها ، كلما أراد أن يخرج من حرج .

ومد يده وضغط على الزر الكهربائى ووقف ينتظر ، وكل حواسه عيون متجهة إلى الباب ، ومد يده مرة أخرى ليضغط على الجرس ثانية ، بيد أن الباب فتح فجأة وظهرت غادة حسناء لم تر العين أجمل منها . وما إن رأت أمامها رجلا عملاقاً فارع الطول ، حتى اضطربت ، وردت الباب سريعاً فى وجهه ، وهى تسأله من خلف الباب : ماذا يريد ؟ فلم يجب على الفور ، بل لم يجب إطلاقاً ، لأنه ارتبك ارتباكاً شديداً ، وشعر بالخجل والخزى يكتنفانه ، لأنه ظن نفسه قد أخطأ فى العنوان ، بيد أنه عندما سمعها تعيد عليه السؤال مرة أخرى وتسأل من هو ؟ وماذا يريد ؟ وهل هو فعلا يقصد هذا البيت بالذات ؟ استطاع أن يحرك شفتيه ويتمتم بصوت خفيض كاد أن يتلاشى قبل أن يبلغ أذنيها الواعيتين : أليس هو منزل الأستاذ الشرنوبى أبى إسماعيل .

فأجابه الصوت الأنثوى الرقيق من خلف الباب : أجل . من حضرتك ؟

— أنا . إمام . .

— من ؟ . . إمام ؟

فاضطرب الشاب أكثر وهو يقول : إمام بلتاجى حسنين ، من البتانون مركز المنوفية .

فعقدت الدهشة لسان الفتاة وهى تفسح لعينيها فرجة فى الباب وتنظر إليه دهشة مستغربة : إمام ابن خالتى آمنة ؟ !

ولم ينطق الفتى بشىء ، لأنها كانت قد اندفعت إليه ناسية نفسها

حتى كادت ترتمى فى أحضانه وتعانقه فى شوق زائد وحرارة ، وهى تسحبه من يده سريعاً إلى الداخل ، والفرحة تكاد تطير صوابها ، حتى إنها تركته واقفاً فى قلب صالة البيت الفسيحة حائراً أين يجلس ؟ وراحت تركض فى طفولة ، وهى تنادى صارخة فى فرحة لا حد لها : ماما ، ماما ، إمام ابن خالتى آمنة .

وخرجت الست صبرية التى تقدمت بها السن بعض الشىء من المطبخ ، وكانت تحمل فى يدها مصفاة فيها بعض حبات الطماطم ، وهو الشراب المفضل عند الأستاذ الشرنوبى . وما إن رأت إمام حتى ألقت بالمصفاة سريعاً ، ومسحت يديها سريعاً أيضاً فى ثوبها المنزلى الفضفاض ، وتلقفت الشاب فرحة بين أحضانها ، وعانقته وقبلته كما كانت تعانقه وتقبله وهو صبى يلعب مع سلوى فى الحارة ، ثم راحت مرة أخرى تعانقه وتقبله وهى تقول فى غبطة وسرور وعيناها تتفحصانه من الرأس للقدم : صلاة النبى ، صلاة النبى . شباب وجمال ، وطول وعرض .

فقالت سلوى وهى لا تكاد تملك نفسها من السعادة : تصورى يا ماما أننى لم أعرفه عندما رأيته ، وكدت أغلق الباب فى وجهه .

وكان هذا اللقاء الكريم قد أطرب الشاب إلى حد كبير ، فقال مسروراً وهو ينظر إلى سلوى ، وكأنه ينظر إلى شىء ينير عينيه : أنا أيضاً لم أعرفك ، حتى إننى خشيت أن أكون قد أخطأت العنوان .

فقالت الست صبرية وهى تجلسه بجوارها على الكنبة مرحبة : عمر . سبع سنوات . من أيام البتانون للآن .

وجلس الثلاثة يتحدثون ، عن الزمن والأيام ، والسنوات السبع التى مرت ، وقفزت بسلوى وإمام من الطفولة إلى الشباب ، كما راح الشاب يحدث الست صبرية وسلوى عن القرية وأهلها ووفاة والده ، ومرض والدته ، وداء الكبد الذى يعاودها من حين إلى آخر .

وكلما امتد الوقت بالشاب وأراد أن ينصرف ألحت عليه سلوى فى البقاء ، وأقسمت الست صبرية عليه أن يظل حتى العشاء ، وحتى يحضر الأستاذ الشرنوبى الذى سيسر كثيراً لرؤيته ، والذى كان دائم السؤال عنه وعن أخباره . وبلغ من حرص سلوى على بقائه أنها غافلته ، وسرقت منه العمامة التى كان يضعها بجانبه على أحد المقاعد حتى لا يخرج . وظلوا كذلك إلى أن أقبل المساء ، وعاد الأستاذ الشرنوبى من الخارج ؛ وما إن دق الجرس وعرفت سلوى أنه والدها حتى راحت فى طفولة وسرور تعد له مفاجأة . . إذ تركت الشاب الذى يجلس معها فى الصالة ، وأسرعت تفتح الباب لوالدها ، ثم اختبأت خلف الباب بدون أن يراها والدها أو يراها الشاب ، وما إن خطا الوالد إلى الصالة . ورأى رجلا غريباً فى البيت حتى وقف مبهوتاً ، يسأل من هو ؟ ولولا الضحكات التى لم تستطع أن تكتمها سلوى ، وانطلقت منها مدوية خلف الباب ، لتحرج موقف الشاب .

وكما استقبلته سلوى ، واستقبلته أمها ، استقبله أيضاً الأستاذ الشرنوبى ، وراح يهنئه على نجاحه الكبير فى الدراسة ، وكيف أنه حقق رجاء والده — رحمه الله — فيه ، وكيف أن الأستاذ الشرنوبى كان يحرص دائماً على تتبع أخباره أولا بأول ، ولذلك ساءه جداً عندما عرف من الشيخ فراج عمدة البتانون — الذى قابله مصادفة فى ميدان الخازندار وشرب معه فنجاناً من القهوة — أن إماماً هنا فى القاهرة منذ زمن ، ولم يتصل به .

وراح الأستاذ الشرنوبى فى حنان الأب ووفاء الصديق يرحب بالشاب ، ويسأله عن مدرسته ودروسه وسكنه الجديد ، وعما يحتاج إليه من مساعدة . ولما قدم له الشاب الرسالة التى قد أملاها عليه الشيخ بسيونى مأذون الشرع ، وقرأها تأثر جداً ، إذ استشعر من ثناياها مدى ما يعانيه الشاب من فقر بعد وفاة والده ، ومدى حاجته إلى المعونة الصادقة فى القاهرة الواسعة ،

التي يتخبط في خضمها كل فقير معوز يطلب العلم في معاهدها .

وود الرجل أن يقرض الشاب قرضاً حسناً يعينه على حياته الشاقة وضيق ذات اليد الذي يقاسيه ، بيد أنه خشي أن تؤلم هذه المعونة الشاب ، وأن تحدث حرجاً في نفسه وكرامته وعزته الريفية التي يفخر بها ، ولذلك عرض الأمر على زوجته الست صبرية ، وتفاهما في الأمر ، ثم اتفقا على حل يجنب الشاب هذا الحرج ، ويحفظ له كرامته وعزته وكبرياءه ، وهو أن سلوى في حاجة إلى دروس في النحو واللغة والدين ، وأن الشيخ الخزرجي يعطيها هذه الدروس مرتين في الأسبوع نظير مائة وخمسين قرشاً ، فلماذا لا يستعاض بالشاب عن هذا الشيخ ؟ والشاب أقرب صلة بهم ، وأكثر مودة لهم ، وهو للفتاة بمثابة الشقيق ، وللبيت بمكانة أحد أفراد أسرته . ورحب الأستاذ الشرنوبي بفكرة زوجته الصائبة ، وشكرها عليها ومثلها لها ضاحكاً كما كان يمثل لها دائماً أفكارها الصائبة التي كانت تواتيها من حين إلى حين ، بأنها كالساعة المعطلة دائماً تمر عليها لحظة ما تكون فيها أضبط ساعات العالم ! وأسرع من فوره وعرض الفكرة على الشاب ، بدون أن يشعره بالهدف الذي يرمي إليه من ورائها ، فرحب بها الشاب ترحيباً كبيراً ، وعدها مفخرة له وشرفاً كبيراً أن يكون أستاذاً لابنة أستاذه ومربيه .

وقضى السهرة تلك الليلة في بيت الأستاذ الشرنوبي ، وتعشى مع الأسرة ، وظل معها إلى وقت متأخر من الليل ، يتحدث ويسمر ، كما كان يتحدث ويسمر بين أمه وأبيه . ثم انصرف على أن يعود أول الأسبوع القادم ليبدأ دروسه مع الفتاة . . وودعته الأسرة بحرارة ، كما استقبلته ، فرحة به كما لو كان ابناً لها عاد من غيبة طويلة .

وبعد أن انصرف الشاب ، سألت الست صبرية زوجها عن مستقبل الشاب ومركزه في الهيئة الاجتماعية ، بعد أن ينال شهادة التخصص ، والوظيفة المحترمة التي سيتقلدها ، والمرتب الذي سيتقاضاه .. ولما أجابها الأستاذ الشرنوبي عن كل سؤال ، وكانت إجاباته جميعها فيها ما يطربها ويثلج

صدرها ، أطرقت قليلا ثم نظرت إليه وكأنها واتتها فكرة من تلك الأفكار الصائبة التى توافيها من الحين إلى الحين . . وما إن أشرقت عيناها نوراً بالفكرة ، حتى أحست سلوى بما ترمى إليه الأم ، فتورد خداها ، وانصرفت خجلة إلى مخدعها ، متعثرة الخطوات ، مضطربة الفؤاد ، وتسللت إلى فراشها الدافئ الوثير ، وانطرحت عليه مغمضة العينين ، مسبلة الهدبين الطويلين . . ومن ثم راحت تستعيد حوادث كثيرة ، وأحداثاً جمة ، يرجع العهد بها إلى ما قبل سبع سنوات أيام أن كانت طفلة تعيش فى قرية البتانون ، وتقطن زقاق المرعشلى ، وتلعب فى الحارة ليالى رمضان ساهرة فى الجرن تلعب الاستغماية ، وجمال المالح ، وحلقة ومضرب ، والكرة الجورب . . وفجأة زمت شفتيها ، وجحظت عيناها ، وظلت كذلك جاحظة العينين ، إلى أن غلبها النوم فنامت مطبقة العينين على هذه الأحلام الجميلة ، وعلى هذه الذكريات التى يعيش عليها الإنسان دائماً أكثر العمر إن لم يكن العمر كله .

١٣

فى حياة بعض الناس ، فى أحاسيسهم ومشاعرهم ، أشياء كثيرة غريبة الشأن . أشياء ليست مجهولة لديهم ، وليست أيضاً معروفة عندهم ، فهى أشياء تعرف ولا تعرف ، نحبها ونحس بها ونكاد نلمسها بأيدينا ونراها بأعيننا ولكننا لا نعرف شيئاً عنها . ما هى ؟ ما سرها ؟ ما حقيقتها ؟ إنها أشبه بالخيوط الدقيقة التى لا ترى . . والتى تربط بعض الناس ببعضهم الآخر ، وتصل بينك وبين الآخرين فى المشاعر والأفكار والأحاسيس ، وهى التى نعبر عنها أحياناً بقولنا بين القلب والقلب رسول . وهذا الرسول كثيراً ما يكون رسول حق وصدق ، لا يعرف الكذب ولا النفاق ، وهو إن همس فى أذنك شيئاً ، فإنما يهمس لك بما فى قلب

الآخر ، فإن كان صدقاً وإخلاصاً لا يزيده شيئاً أو ينقص منه شيئاً ؛ وأحس الفتى وهو يسير فى الطريق ، بأن شيئاً ما يبهجه ، ويفيض عليه ، ويغمر فؤاده ومشاعره ، ويكاد يربط تلك المشاعر وذلك الفؤاد بسعادة ضخمة ، سعادة جعلته يسير فى الطريق مرحاً ، خفيفاً يكاد يطير بجناحين . إنه يضحك ويبتسم ، ويسير ويقفز ، وينظر ذات اليمين مرة ، وذات الشمال أخرى . إنه يريد أن يقطع كل الطرقات ، ويرى كل المارة ، ويمتع عينيه بكل شىء ، بالمركبات التى تروح وتجىء ، بالأنوار التى تتألق فى عينيه . إنه لا يريد أن ينام ، إنه لا يريد لهذا الليل أن ينقضى ، إنه يريد الآن أن يرى أمه ، وأن يرى الشيخ نوفل ، والشيخ بسيونى مأذون الشرع ، وكل من يحب . يريد أن يرى الذين يحبونه جميعاً ، ولكنهم الآن فى البتانون ، وهو فى (مصر) . مصر الواسعة ، مصر أم الدنيا . . مصر التى كان يسمع عنها فى الكتب ، وتذكر الذين عرفهم من أهلها ، وذكر عدة أسماء . . وتذكر محمدين . . ولوكاندة المدينة المنورة ، ومسجد سيدنا الحسين الذى يجاورها . . وكان قد بلغ ميدان العتبة الخضراء ، وأحس برغبة شديدة فى أن يرى محمدين ، وأن يجلس إليه ، ويتحدث معه وهو يشرب الشاى . وسأل أحد المارة فدله على الطريق . وراح وحده فى الليل يقطع شارع الأزهر إلى أن بلغ المسجد ، فعرف اللوكاندة من تلقاء نفسه . . واستقبله محمدين استقبالا جميلا . . وجلس معه يتحدث ويشرب الشاى ، ويقص عليه قصة اللقاء الأول بعد سبع سنوات لسلوى ووالدتها الست صبرية . . ووالدها الأستاذ الشرنوبى . ورأى محمدين النور الذى يتألق فى عينيه وهو يتحدث ، والفرحة التى تغمر فؤاده وهو يذكر اسم سلوى ، ففطن إلى شىء ، ولذلك قال له وهو يناوله كوباً من الشاى : عليك إذن أن تسهر الليل بطوله ، ولا تنام فى النهار إلا قليلا .

فأجاب الشاب مستغرباً : لماذا ؟

ــ لكى تستطيع أن تحصل على الشهادة .
فاندهش أكثر لهذا الحديث الدخيل الذى لا صلة له بما كانا يتحدثان فيه ، وقال وهو ينظر إليه مستغرباً جداً : وما الصلة بين حصولى على الشهادة ، وحديثى معك عن سلوى وأسرتها ؟

فقال محمدين ضاحكاً : إذا استطعت أن تحصل على خمسة القروش ، تستطيع أن تنام فى لوكاندة المدينة المنورة ، أما إذا حصلت على الشهادة فقد تستطيع أن تحصل على سلوى .

فارتبك الشاب واحمر وجهه خجلا ، وكاد كوب الشاى أن يسقط من يده ، لولا أن محمدين فطن إلى ارتباكه فقال وهو ينهض وينهضه معه : ما رأيك لو صلينا الفجر فى سيدنا الحسين ؟

فزالت ربكة الشاب ، وظهر الارتياح على وجهه ، وراح يسير بجواره فى الظلام ، ويخترق معه فى صمت الزقاق الممتد خلف المسجد مباشرة ، إلى أن دخلا المسجد ، وذابا فى زحمة المصلين . ولما انتهت الصلاة ، وودع الشاب صديقه محمدين ، وجد نفسه وهو يودعه يضغط على يده ، ويشكره من كل قلبه شكراً حاراً ، لا على اللحظات الجميلة التى قضاها معه ، ولا على كوب الشاى الذى قدمه إليه ، وإن كان محمدين قد ظن ذلك ، ولكن حقيقة هذا الشكر الحار كانت لأشياء أخرى كثيرة هامة لفت نظره إليها محمدين بكلمة عابرة .

إذا حصلت على الشهادة ، استطعت الحصول على سلوى .

فانطبعت على ثغره ابتسامة عريضة كادت تنير وجهه كله ، وتنير أيضاً الطريق أمامه ، بيد أنها سرعان ما أخذت تغيب إذ اكتنفها بعض الغمام الذى تمثل له فى الشهادة نفسها ، والطريق إليها ، وسبيل الحصول عليها ، وتلك الطلاسم العديدة : الكنز على الدر المكنون ، الرسالة التفسيرية فى التوحيد ، حاشية اليازجى فى المنطق « هذه الكتب التى ليس فيها من الجمال أو اليسر غير أسمائها فقط » .

وأراد أن يقول لنفسه شيئاً ، بيد أنه كان قد بلغ البيت ، فمد يده إلى ذلك الجنزير الطويل ، ورفع به سقاطة الخوخة فى حذر شديد حتى لا يسبب للمعلمة المستغرقة فى نومها فى الغرفة المجاورة قلقاً أو إزعاجا . ثم اخترق الدهليز على أطراف قدميه فى الظلام ، حتى بلغ باب غرفته ، فأدار مفتاحها فى حذر ورفق . وما إن عاد فأغلقه أيضاً فى حذر ورفق ، حتى تنفس الصعداء ، وراح — فى ظلام الغرفة لأنه لم يشأ أن يشعل مصباحها الزجاجى — ينزع ملابسه رويداً فى هدوء واطمئنان وسعادة طاغية لم يستشعرها فؤاده منذ زمن بعيد . ولما وضع ملابسه فى أماكنها المعدة لها : العمامة فى السقط المغلف بالورق السميك ، والكاكولة على المسمار ، والحذاء فى مكانه من الأرض ، ولما اطمأن إلى ذلك كله ، استلقى على سريره كما تعود أن ينام عارياً إلا من سرواله الطويل الذى تنسدل أطرافه إلى ما بعد الساقين ، وبقى صدره العريض عارياً تغطيه تلك الطبقة السوداء من الشعر الكث الخشن . ومن ثم راح وهو مستلق على ظهره يسبح فى دوامة من الأحاسيس الجميلة والآمال العراض ، والأمانى العذاب ، وهو يستعرض بعينيه الواسعتين المعلقتين فى الهواء بسقف غرفته الرطبة المظلمة ، شريط حياته الطويل . . القرية . . دهليز المرعشلى . . الزقاق . . عم نوفل . . طبلة المسحراتى . . الجرن . . فوانيس رمضان . . سلوى . . الثلاث بيضات التى سرقها . . الحلوى الطحينية التى ابتاعها لسلوى . . الضربات التى سددتها له أمه . . طبلية العمدة . . ورك الدجاجة . . السطح . . كومة التبن . . وفجأة زم شفتيه وتصلبت أصابعه الخشنة وهو يغرسها فى الوسادة النائم عليها ، وعيناه تبرقان بريقاً خاطفاً ، وأنفاسه تترى لاهثة متقطعة ، فيعلو منها صدره وينخفض ، وهو يستعرض حادث الكرة التى سرقتها سلوى ، وخبأتها فى صدرها ذات يوم .

وظل كذلك لحظات يعلو فيها صدره ويهبط ، وتبرق عيناه وتلتمع ،

وتسرع أنفاسه وتنقطع ، إلى أن اكتحلت عيناه بالسواد، وغامت نظراته خلف سحابة من الخيالات المتشابكة التى لم يستطع أن يتبين منها شيئا ، إلى أن أطبق عينيه وأطبق أيضاً شفتيه وسبح فى نوم عميق ، وما زالت أصابعه الخشنة مطبقة على الوسادة .

١٤

المرء بأعصابه ، هذه حقيقة مقررة ، ولكنها ليست الحقيقة كلها، لأن هناك قوة غير عادية هي التى تتحكم فى هذا العضو المادى ، أو هذه الأعضاء التى يتكون منها العصب على حد قول الأطباء .

وهذه القوة غير العادية لم يعرف لها اسم محدد حتى الآن ، فتارة هى الإحساس ، وتارة هى الشعور ، ومرة هى الفؤاد ، وأخرى هى العواطف . ولعل هذا الاسم الأخير هو أقرب الأسماء إليها ، لأننا فى حقيقة الأمر نعيش بعواطفنا . وإن عواطفنا هى التى تتحكم فى أعصابنا هذا التحكم المرير ، وهى التى تجعلها بلا أدنى سبب ترغى وتزبد وتثور إلى درجة الغليان ، وهى نفسها أيضاً التى تجعلها تهدأ أو تطمئن وتهبط إلى درجة الصفر.

ونقول بلا أدنى سبب ، لأن نظرة عابرة تلقيها عينك مصادفة على شيء ما كفيلة بأن تقلب حياتك رأساً على عقب ، وتجعلك تعيش فى ضيق وفى قلق ، وفى جحيم أيضا ! وهذا ما حدث بالذات لشفعات أو للمعلمة شفعات التى لا ترضى بغير هذا اللقب بديلا ، فهى منذ اللحظة التى وقعت عيناها على هذا الشاب الريفى الساذج وهى تشعر بأنها فى ضيق.. ضيق تبعده عنها أحياناً فيبتعد ، ولكنه سرعان ما يعود متسللا إليها من حيث لا تدرى . وهو لا يلم بها فى أول الأمر مظلماً مقبضاً بحيث يثيرها ويقلقها ، وإنما هو يلم بها كما يلم نسيم الفجر الرقيق

العليل بالزهرة الجافة الظامئة فينديها ويرطبها ويرويها ويفتح أفواهها للحياة ، وأوراقها للدنيا ، وعبيرها للخلود . ثم فجأة تطلع الشمس القائظة فتحيلها إلى الجفاف والقحط والظمأ الذى لا يستشعر حرقته إلا من عرف نعيم الارتواء .

كانت هذه هى حالها تماماً منذ أن رأت « إمام » ، تذكره وتذكر اللحظة التى رأته فيها ، وكتفه العريضة التى رأتها تحمل بهلول ، ويده الخشنة الغليظة التى شاهدتها قابضة على معصمها فى عنف فتضطرب ، وتسر ، وتشعر بفيض من الرضا ، ثم فجأة تذكر أشياء أخرى كثيرة ، هذا الإنسان العابر ، هذا الطالب الذى لا يعدو أن يكون واحداً من آلاف الطلاب الذين تمتلئ بهم القاهرة كل عام . . سنه ، سذاجته ، الفرق الهائل الذى بينها وبينه ، كبرياؤها ، غطرستها ، سطوتها فى الحارة والزقاق والحى كله ، القاصى والدانى يرهبها ويخشاها . . تذكر كل هذا ، فتبعده عنها سريعاً ، والغريب أنه يبتعد ، ويبتعد سريعاً كما تريد له ، ولكن هذا الضيق الذى تشعر به ، هذا الظمأ الذى تعيش فيه ، هذا الجفاف الذى يكاد يقتلها ، هذا الظمأ الذى يكاد يحيل كل جارحة فيها إلى رماد . . هذه النار التى تكاد ألسنتها تأكلها أكلا . . ما هذا ؟ وما هو ؟ وأين كان ؟ . . ولماذا لا يأتيها إلا إذا ذكرت هذا الشاب ، ورأت صورته ماثلة لعينها ، أو بمعنى أصح لماذا لا تستشعر كل هذا الظمأ إلا إذا أبعدت صورته عن خاطرها ؟ . .

إنها من غير شك تريد منه شيئاً ، وهى تعرف جيداً هذا الشىء الذى تريده ، وتعرف أيضاً كيف تحصل عليه ، وتعرف كذلك أن لها من الوسائل ، وعندها من الأسلحة التى زودتها بها الطبيعة ما يجعلها تظفر دائماً بما تريد ، وإنها فى تاريخ حياتها الطويل لم يستعص عليها أمر ، فما بالها اليوم تتعقد أمورها كل هذا التعقيد ، وتضيق بحياتها وبنفسها كل هذا الضيق ، وتستشعر كل هذا التعلق الذى يشبه تماماً

الخوف من الإخفاق ؟ ! ألأنه أغلظ لها فى القول ؟ ألأنه كاد يضربها ويطردها من غرفته شر طردة ؟ ألأنه لم يطر جمالها ، ولم يأخذه هذا الجمال ويستحوذ عليه ، ويجعله يسجد أمامة ، كما سجد أمامه جميع الرجال الذين رأتهم وأطروه وأخذوا به ؟ أم لسنه الصغيرة ، وعمره هذا الذى لم يتجاوز الثمانية عشر عاماً ؟ ولكن أهى من البلاهة بحيث يستهويها رجل فى هذه السن ، وتشتهى إنساناً فى عمر أولادها لو أنها أنجبت وكان لها أولاد ؟ أم ترى هذه السن نفسها هى التى تغريها به وتجبها فيه وتقربها منه ؟

وشعرت بشىء كثير من الضيق يلم بها ، وازداد هذا الضيق عنفاً عندما جاء الليل ولم يجئ هذا الشاب معه إلى غرفته كما تعود أن يجىء ، وراحت فى قلب فراشها الدافئ الوثير ، تتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، تدفن رأسها فى الوسادة حيناً ، ثم تريحها عليها حيناً آخر ، وتلقى بالغطاء من على جسدها مرة حتى يتعرى جسدها تماماً ، ثم هى مرة أخرى تشد الغطاء عليها ، وتلف جسدها فيه كأنها تخاف من شىء يتربص بها . وكلما سمعت حركة خارج غرفتها ، أو أحست بدبيب فى الدهليز ، شعرت بشىء من الراحة ، وفتحت عينيها ومدت أذنيها مداً طويلا فى الظلام ، وكلما أدركت أنه دبيب بهلول فى السرجة أو خطوات الأستاذ حسبو يدخل غرفته أو يخرج منها : عاودها الضيق ، ورفست الغطاء بقدمها فى عنف ، ثم عادت ثانية وفى العنف نفسه وسحبته عليها ولفت جسدها فيه ثانية ، وفجأة تذكرت شيئاً أطربها وهدأ من أعصابها ، وجعل الابتسامة الجميلة ترتسم على شفتيها الغليظتين . إنه لم يأت حتى الآن لأنه تعود أن يصلى العشاء فى المسجد ، وإذن فهو سيأتى تواً وبعد صلاة العشاء مباشرة ، وسوف تنتحل عذراً أى عذر لتراه وتلتقى به ، لا لشىء ولكن لترى هذا الشاب الذى يقلقها طيفه كل هذا القلق ، ويحيرها كل هذه الحيرة ، حتى كأنها ترى فيه شيئاً لم تره فى غيره من الرجال ،

ولكن ما هذا الشيء ؟ . . إنها تريد أن تعرفه ، تريد أن تراه ، وتراه الآن بل فى هذه اللحظة . . إنه لا بد أن يكون شيئاً ، هاماً . . هائلا . . ولكن إلى هذا الحد تمتد بالناس صلاة العشاء فى المساجد ؟

وأرادت أن تعرف الوقت ، كم الساعة الآن ، وهل فرغ الناس منذ زمن بعيد من صلاة العشاء ؟ أو ما زلوا فى المساجد يصلون . ؟

ونفضت الغطاء عن جسدها للمرة العشرين أو المائة بعد العشرين لا تدرى ، وغادرت الفراش ، ومدت يدها إلى المصباح الزجاجى الذى كان على البوريه وأشعلته . وألقت على نفسها نظرة فى المرآة ، فرأت أشياء كثيرة رضيت عنها بعض الشيء ، وأشياء كثيرة أخرى رضيت عنها كل الرضا ، ثم ألقت نظرة على ذلك الشحوب الذى ارتسم على وجهها ، وتلك الحمرة التى فى عينيها ، وكادت هذه النظرة تطول وتطيل وقوفها أمام المرآة ، غير أن شيئاً آخر لا تدريه على وجه التحقيق ، ولكنها تدرى أنه أهم عندها من هذا الاصفرار والشحوب ، وأهم عندها أيضاً من هذا الاحمرار الذى أحال لون عينيها إلى ما يشبه الدم ، جعلها ترتد سريعة من أمام المرآة . . ووقفت لحظات حائرة وسط الغرفة تنظر إلى لا شيء ، ثم مدت يدها إلى الباب لتفتحه ، وأحست أنها تمدها فى حذر ، وحذر شديد أيضاً ، وضايقتها هذه الحركة الحذرة منها ، إنها لم تتعود الحذر فى حياتها ، إنها دائماً المغامرة الجسور ، إنها كثيراً ما ألقت بنفسها فى النار ، فلم تحترق ، وإنما احترق الذين حاولوا إنقاذها ، فما بالها اليوم خائفة وجلة تكاد يدها ترتعش ، وصدرها يعلو ويهبط ؟ !

وحانت منها نظرة أخرى إلى المرآة ، بيد أنها لم تكد تفعل حتى وقفت فجأة جاحظة مسمرة العينين على شيء أمامها لم تره إلا الآن ، ولم تكن لتقدر أنها ستراه . . وراحت تنظر إليه وتدقق النظر فيه وتتفحصه جيداً ، وتتفحص أيضاً عينيها لعل نظراتهما خاطئة . . لعلهما تتوهمان ، ولكنها تراه فعلا ، وتراه مخيفاً هائلا برغم دقته ورقته . . إنه تماماً أشبه

بالخيط الرقيق الدقيق الذى لا يكاد يرى ، ولا تكاد العين تقع عليه إلا إذا كانت قوية الإبصار . . إنه يتسلل إلى رأسها خلسة ، وفى مهارة فائقة ، حتى لا يراه أحد ، إنه يختفى بين خصلات شعرها الأسود الفاحم حتى غدا بينها — بين تلك الخصلات الفاحمة الناعمة ، وفوق هذا الرأس الصغير الجميل الذى يتوج أجمل وجه عرفته امرأة ، إنه يبدو فوق هذا الرأس تماماً أشبه بالكسر الذى لا يكاد يرى فى آنية غالية . ومدت يدها التى تقلصت أصابعها وارتعشت . . مدتها إلى هذا الثعبان الدنىء الذى اختفى فى طيات شعرها ، وقطعت تلك الشعرة الدخيلة التى لم تكن قط لتقدر أنها ستراها بيضاء !

إنها إذن تلعب لعبة خطرة لم تأمن عاقبتها ، إذن هى تخشى الإخفاق ، ولكن لماذا تخشاه هذه المرة ، وهى التى لم تجربه قط فى حياتها ؟ بل لماذا ذكرته الآن ؟ وما الذى جعل هذا الخاطر يمر بخيالها ، أو هذه الكلمة تمس شفتيها ؟ ورنت فى أذنها كلمة . . بل كلمات فراحت فى انتباه شديد تصغى إليها وكأنها تصغى إلى حديث يدور بين اثنين يتحدثان على مسمع منها . .

وهل ستغفر أنت لى معك اليوم . . تهجمى عليك . . وغلظتى لك فى القول ؟ . .

— وهل يملك الابن إلا أن يغفر لأمه كل شىء ؟

وزمت شفتيها ، وزوت أيضاً ما بين عينيها ، ووقفت لحظة فى مكانها خلف الباب جامدة لا تطرف . . ولكن ما الذى يضايقنى فى هذا القول ؟ . . وما الذى أريده منه حتى يضايقنى منه هذا القول ؟ . . إن الذى أريده منه شىء واحد . . واحد فقط هو أن يخرج من بيتى فوراً الليلة . . هذه اللحظة بالذات .

واتخذ وجهها الذى ما زال يكتنفه بعض الشحوب ، واتخذت أيضاً عيناها اللتان بلون الدم ، صورة اللبؤة العجوز الثائرة التى فقدت وعيها ،

ومدت يدها بعنف وفتحت الباب ، وما إن توسطت الدهليز الذى اكتنفت الظلمة كل جوانبه حتى صرخت بأعلى صوتها صرخات مدوية .. فى رعب وخوف شديد . . حسبو . . ولما لم يجب عاودت النداء عليه مرة ثانية ، فلم يرد . حينئذ اقتحمت عليه الباب فى عنف ، ودخلت منه كالغول الكبير ، وما إن رأته نائماً ، ورأته مخموراً يترنح والزجاجة على صدره حتى دوى صوتها فى الليل كالصاعقة : أطرش ، هل فقدت سمعك ؟ . . هل أصبت بالصمم ؟ . .

وروع الأستاذ حسبو وهو فى مكانه ، وأطبق عليه الخوف ، وتكور أشبه بالقنفذ محاولا ما استطاع أن ينهض من مكانه وينتصب واقفاً وينحنى أمامها احتراماً ، ولما تمكن من هذا كله بعد جهد ، تمتمت شفتاه المرتعشتان ، واضطربت عيناه اللتان لا تكادان تبصران شيئاً من فرط شرب الخمر ، وقال : لم أسمع النداء يا معلمة . .

ــ سمعت الرعد ، قل لى كم الساعة الآن ؟ . .

ــ كما تريدين لها أن تكون يا معلمة .

فاحتدم غيظها وقالت : أنت الذى يجب أن يدور فى الساقية بعد بهلول .

ــ أدور ، يا معلمة . .

ــ أنت حيوان . .

ــ ولكنه حيوان أليف ، يا معلمة ! . .

فصرخت فى وجهه صرخة مفاجئة ، أرعبته وجعلته يرتعش فى مكانه ، ويرتعش أيضاً وهو يبحث عن الساعة التى أخطأ مكانها تحت الوسادة ، ولما نفد صبرها وغاظها بحثه الطويل عن الساعة ، قالت وهى تنظر إليه فى ضيق لا حد له : هل حان موعد صلاة العشاء ؟

فتراخت يداه وهما لا تزالان تبحثان عن الساعة ، والتفت إليها مبتسماً فى دهشة كبيرة : سلامة عقلك يا معلمة ، أى صلاة عشاء ،

لقد انتهى الناس من صلاة الفجر أيضاً . .

ـــ ماذا تقول ؟ . .

نطقتها ذاهلة مرتعشة الشفتين وقد اكتنفها خجل شديد تراجعت على أثره وخرجت، وما إن بلغت غرفتها وأغلقت الباب خلفها، حتى ارتمت لاهثة على السرير ، ودفنت وجهها الذى أغرقته الدموع فى الوسادة إنها مجنونة . . مجنونة . . لا بد أن تكون قواها قد اختلت ، وعقلها قد ذهب ، حتى استأهل منها التفكير فى هذا الشاب كل هذا الوقت الطويل. كل هذه اللوثة التى جعلتها تسأل الناس عن صلاة العشاء ، فى حين أن صلاة الفجر قد انتهت وأوشك الليل أن ينتهى . وأجهشت باكية تنتحب ، وراح صدرها على الفراش يعلو ويهبط . . وظلت كذلك إلى حين . .

ولكنى ذهبت إلى حسبو لكى يطرد هذا الشاب فوراً ، فمالى نسيت ذلك ، ورحت أسأله عن الساعة ؟ وهل فرغ الناس من صلاة العشاء ؟.. ومع ذلك لم يحدث شىء . . سوف أطرده أنا اليوم . سوف أجعله لا يبيت فى هذا البيت ليلة أخرى . . إن هذا هو أسلم الأشياء . . إن هذا لا بد أن يكون . . لا بد أن يحدث . . ويحدث قبل أن ينقضى النهار .

واطمأنت إلى هذه الفكرة الصائبة ، وارتاح إليها قلبها راحة أضفت على كيانها كله الكثير من الهدوء والاطمئنان الذى كانت تعيش فيه قبل يومين ، قبل أن يأتى هذا الشاب إلى بيتها ويقطن فيه ، وتقع عيناها عليه ، ولما اطمأنت حقيقة إلى هذه الفكرة ، وأحست بكل هذه الراحة إليها ، أحست أيضا أنها فى حاجة إلى أن تنام ، فأغمضت عينيها ، واستغرقت فى نوم هادئ عميق، بيد أنها لم تمكث طويلا حتى استيقظت، ولم تدر ما الذى أيقظها ؟ أهى الشمس التى طلعت سريعاً ، أم ضجيج السابلة فى الزقاق ؟ ولكن الذى تدريه أنها بقيت فى مكانها فى الفراش

تسترق السمع إلى غرفة الشاب من خلف الجدار . . ولكن لماذا لم يستيقظ هو الآخر مبكراً كعادته ؟ لماذا لم يذهب كعادته ليغتسل ويتوضأ؟ ولماذا لم تحدث خطواته بالقبقاب هذا الضجيج الذى تعودته ؟ . . لماذا لم يشعل وابور الجاز الذى تعودت أن يزعجها صوته فى النوم ؟ لماذا لم يقرأ فى كتبه ، وينفذ صوته إلى غرفتها واضحاً ، وإن كانت لم تعرف لفظاً واحداً مما يقال ، ولا معنى لحرف مما يقرأ ؟ . . ألم يجئ بعد ؟ ولكن أين ذهب ؟ وأين سيبيت إن لم يكن فى غرفته ؟ . .

وتسللت من فراشها فى حذر بدون أن تحدث أدنى حركة ، وأتت بمقعد وضعته أمام الدولاب الذى وضع خلف الباب الذى يفصل بين الغرفتين ، ووقفت عليه ، ومدت عنقها مدًّا طويلا كما مدت أيضاً نظراتها مدًّا طويلا ، وراحت تنظر من خلال الزجاج المغبر الذى عششت عليه العناكب وأقامت بيوتها فوق شراعة هذا الباب المعطل من عدة سنين . واستطاعت أن ترى . . وأن ترى أشياء كثيرة ، منها جسده الضخم الفتى الذى استلقى نصف عار على الفراش ، كما يستلقى الوحش المفترس على العشب ، ورأت أيضاً صدره العارى ، وتلك الظلة الكثيفة من الشعر الأسود الخشن التى عششت على الصدر ، ورأت الذراعين القويتين الغليظتين اللتين التفتا بجانبى الصدر العريض ، كما رأت أصابعه الخشنة الغليظة التى تشابكت فوق تلك الظلة من الشعر الكثيف ، وكأنها اللجم الفولاذية التى تكبح جماح الجواد القوى من الانطلاق وهو نائم . رأت هذا كله ، وحدقت إليه ، وأدامت النظر طويلا ، ولكن ماله ما زال مستغرقاً فى نومه حتى الآن ؟

وهبطت من على المقعد ، وأسرعت إلى الشال الأسود الخفيف ، ووضعته على كتفيها العاريتين ، وهمت بالخروج سريعاً ، بيد أنها توقفت لحظات عند الباب ، ثم عادت إلى البوريه وفتحت أحد أدراجه ، وأخرجت منه بعض أدوات التجميل ، ووقفت حيناً أمام المرآة تتزين

وتتجمل ، ولما اطمأنت إلى كل شيء ، تسللت من الغرفة تخطر على مهل ، وتسير على أطراف قدميها ، إلى أن بلغت باب غرفته ، وراحت فى حذر شديد تنقر عليه نقراً هيناً حيناً ، وأقرب إلى العنف حيناً آخر ، حتى استيقظ الشاب . وما إن فتح الباب ورآها أمامه وجهاً لوجه حتى أخذته المفاجأة ، واضطرب اضطراباً شديداً ، وراح فى خجل زائد ينظر إلى نصف جسده العارى ، ويحاول أن يختفى به خلف الباب ، ويحاول أيضاً أن يحرك شفتيه ليقول لها تأدباً : تفضلى . .

وما إن رآها استجابت ودخلت حتى ازداد اضطرابه ، وراح يركض كطفل باحثاً عن أى شيء يغطى به هذا النصف العارى من جسده ، ووجد أمامه تلك البطانية فالتف بها ، ونظرت هى إليه وإلى خجله الزائد، وارتباكه الذى لا حد له ، وقالت : رأيت الشمس تطل من النافذة ، وسمعت الناس يروحون ويجيئون فى الزقاق ، وأنت لم تستيقظ كالعادة لتذهب إلى المعهد .

— أشكرك . .

قالها الشاب فى امتنان ، وشكر حقيقى ، فسرها منه ذلك ، كما سرها البشر الذى رأته مرتسماً على وجهه ، وقالت : لعلك لم تتأخر كثيراً عن موعد المدرسة ؟

فقال ممتناً وهو ينظر إليها : اليوم يوم الجمعة ، وهو يوم العطلة الأسبوعية . .

فبلعت أنفاسها ، وارتبكت بعض الشيء ، بيد أنها تمالكت نفسها وقالت فى شيء من الخجل : لم أكن أعرف ذلك . .

وصمتت لحظات ثم قالت : الأيام ، والليالى ، والدنيا ، والشقاء الذى أنا فيه ، كل ذلك أنسانى نفسى . . أنسانى حتى أسماء الأيام وأن اليوم هو يوم الجمعة .

ثم تهدج صوتها وقالت فى أسف : أنا متأسفة إذ أزعجتك ، وأقلقتك وأيقظتك من النوم .

– أبداً ، أبداً ، أنا أشكر لك هذا الاهتمام .

فقالت وهى تتجه إلى الباب محاولة الخروج : سأتركك لتنام بعض الوقت : طالما أن اليوم عطلة .

– لا ، إننى أريد أن أخرج الآن .

فالتفتت إليه ، ورفعت مع التفاتها بعض خصلات ناعمة من الشعر كانت تنسدل على الظهر ، وقالت : وأين تذهب فى يوم عطلتك ؟

– تعودت كل يوم جمعة ، أن أقرأ الفاتحة لأبى فى ضريح أم هاشم ، ثم أصلى الجمعة فى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه . .

فزوت ما بين حاجبيها وقالت وكأنها تذكرت شيئاً هاماً : فكرتنى ، أنا أيضاً متعودة كل صباح جمعة أن أزور قبر المرحوم ، أقرأ له الفاتحة وأوزع على روحه الصدقات .

فتطلق وجه الشاب بشراً وقال وهو ينظر إليها نظرة تقدير : هذا عمل جليل : يحفظه لك الله ويثيبك عليه ويجزيك عنه خير الجزاء .

فرفعت ذراعها إلى الحائط ، فارتفع مع الذراع شىء ما على الصدر ، ولاح من طوق الثوب ، ثم قالت وهى تسند رأسها على الذراع المتكئة على الحائط ، وتنظر إليه بعين واحدة لأن عينها الأخرى كانت مختبئة خلف ذلك الشىء الذى برز على الصدر : أحقيقة أن الله يجزينا خير الجزاء إذا ما زرنا مقابر موتانا ؟ . .

– وأمرنا رسوله صلى الله عليه وسلم بأن نزورها دائماً إذ قال . .

والتفت إليها سريعاً ليذكر لها نص الحديث الشريف ، بيد أن عينه ما كادت ترى ذلك الشىء الذى ارتفع مع الذراع إلى أعلى وبدت قمته عارية فوق الصدر ، حتى ارتدت نظراته خجلى تضطرب ، وأدار وجهه بعيداً عنها ، وقال متمتماً نص الحديث فى خجل شديد وكأنه

يخاطب شخصا آخر : « زوروا القبور ، فإنها ترق القلب ، وتدمع العين ، وتزهد فى الدنيا ، وتذكر بالآخرة » .

فقالت وقد فطنت إلى اضطرابه الشديد . متعمدة أن تنزل ذراعها : حديثك جميل .

ـ إنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

فاقتربت منه بعض خطوات وقالت : كم أنا فى حاجة إلى رجل مثلك . يخفف عنى آلامى .

فقال وهو ما زال ينظر إلى بعيد : آلام الدنيا . . تكتب حسنات لنا فى الآخرة . .

فاقتربت منه خطوات أخرى وقالت : إننى جاهلة . . إننى أريد أن أعرف . قل . . اضرب لى مثلا . كيف أن هذه الدموع تنقلب فى الآخرة ضحكات ؟

ـ مثلا حزنك هذا الدائم على زوجك ، وحفظك لذكراه ، وحرصك على زيارة قبره كل يوم جمعة . هذه كلها حسنات يضاعفها الله لك يوم القيامة . . ويجزيك عنها جزاء طيباً . .

فصمتت حيناً ثم رفعت عينها إلى وجهه وقالت : واللواتى يتزوجن بعد وفاة أزواجهن .

ـ لكل فى الحياة ظروفه . وكثيراً ما تحتاج المرأة إلى الرجل ، ولا تستطيع أن تستغنى عنه .

فتهدج صوتها وهى ترنو إليه وتسأله متلهفة : قلت لك إننى جاهلة ، فوضح لى ما تقول . كيف لا نستطيع أن نستغنى عن الرجل ؟

فاضطرب بعض الشىء وهو يقول : لأنها بطبعها ضعيفة ، وفى حاجة إلى من يعينها .

ـ وماذا أيضا ؟

ـ ولأن الرجل يكفل لها دائماً الرزق .

ــ وماذا أيضا ؟

فازداد خجلا وهو يقول : ولأنه يسعى فى الأرض من أجلها .

ــ قل . قل . وماذا أيضاً ؟

ــ ولأنه . . .

وصمت ولم يجب . .

فقالت لاهثة مضطربة الأنفاس تتطلع إليه : وماذا أيضاً . قل . . قل . .

فهمهمت شفتاه لحظة . . وهو يتمتم بشىء من القرآن كان يحفظه ثم وجه الحديث إليها : قال الإمام على كرم الله وجهه : « الرجل الصالح للمرأة ظل . والمرأة الصالحة للرجل ظل . . فحافظوا على ظلالكم » .

وفجأة انسابت الدموع من عينيها ، وفجأة أيضاً ألقت بنصفها الأعلى على سرير الشاب دافنة وجهها بين ذراعيها وراحت معولة تبكى وتنشج نشيجاً موجعاً ، وكل جارحة فيها تهتز وتضطرب ، فارتاع الشاب وارتبك ارتباكاً شديداً ، وراح حائراً يتلفت حواليه . وكلما ألقى نظره عليها ورأى ما بدا عارياً من جسدها ، ورأى ظهرها يعلو ويهبط والدموع التى أغرقت وجهها وذراعيها العاريتين ازداد خوفه واضطرابه . . وكلما حاول أن يسألها من بعيد بدون أن يقترب منها عما بها لم تجب ، بل تمعن فى البكاء والعويل ، وتضاعفت حيرته وارتباكه . وأخيراً أسرع ناحية الباب محاولا أن ينادى الأستاذ حسبو ، ولكنها صرخت فيه صرخة مدوية وهى تنشج وترتعش : دعه . . لا أريد أن أراه . . لا أريد أن أرى أحداً .

فارتد الشاب إليها وكل شىء فيه هو الآخر يرتعش . . واستطاع أن يجاهد نفسه حتى اقترب منها ووضع يده المرتعشة على رأسها ، وهو يقول فى نفس الخوف والاضطراب : ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فمدت أناملها ، وأمسكت بيده وتمتمت وهى ترفع إليه وجهها الذى

أغرقته الدموع : إنني أبكى الظل الذى فقدته !

فتأثر الشاب تأثراً شديداً جداً ، وتمتمت شفتاه وهو يمد يديه إلى كتفها لينهضها : اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله . .

ثم أنهضها وأجلسها بجواره على الحشية ، وراح فى حنان جم يجفف لها دموعها ، كالابن الحنون الذى يجفف دموع أمه الثكلى وهو يقول وكأنه يخاطب نفسه : إنك طيبة القلب حقيقة . إن من تحمل مثل هذا القلب الكبير . وتحس هذا الإحساس النبيل ، لن تتخلى عنها عناية الله أبداً ، وحسب المرء أن يكون الله عوناً له .

فقالت وهى ما زالت تبكى وتنظر إليه : إننى متعبة جداً ، فهل لك أن تصنع معروفاً ، فتصحبنى معك لزيارة المرحوم . إننى أخشى إن ذهبت وحدى أن أصاب بسوء .

فقال سريعاً وهو ينهض محاولا أن يستعد للخروج : وسوف أصحبك كل يوم جمعة إلى هناك . وسوف أكون دائماً كما قلت لك وبمثابة الابن البار .

فاضطربت ثانية بعد أن هدأت بعض الشىء ، ونهضت سريعاً فى ضيق شديد محاولة الخروج ، بيد أنها وقفت عند الباب لحظات وقالت بدون أن تنظر إليه : إلى أن ترتدى ثيابك سأنتظرك عند السلالم بجوار السبيل . فقال الشاب فى اهتمام زائد : دقيقة واحدة وألحق بك . .

١٥

أسرع الشاب بعد أن خرجت فاغتسل ، وحرص على أن يتوضأ فقد قرأ فى كتاب « بهاء الضوء فى الصلاة وفرائض الوضوء» أن الإمام على كرم الله وجهه ، كان لا يذهب إلى زيارة مقابر الموتى ، إلا إذا تطهر وتوضأ وارتدى ثياباً نظيفة . . وكذلك فعل هو . ثم لحق بها عند

سلالم السبيل كما وعدته . . وهناك وجدها تنتظره داخل عربة حنطور ، فاندهش وتردد قبل أن يركب ، وأفهمها أنه كان يفضل السير على الأقدام ، ففيه فائدة للصحة ، وتوفير للمال . فضحكت فى ابتهاج كبير ، وهى تمد إليه يدها ليركب بجانبها بعد أن قالت له إنها متعبة كما يعلم ، ولا تستطيع أن تذهب من باب الخلق إلى المحمدى سيراً على الأقدام ، فاقتنع وركب بجوارها ولكن بدون أن يمد يده إلى يدها الممتدة إليه . ولما جلس بجوارها داخل العربة ، لاحظت أنه يتعمد الابتعاد عنها بشكل ظاهر ، فضايقها هذا ، وضايقها إلى حد الغيظ ، ولكنها تظاهرت بالسرور وقالت ضاحكة تنظر إليه وهو منزو فى ركن العربة يتمتم بكلمات من القرآن : لماذا تجلس هكذا ؟ . . استرح فى جلستك .

ــ مستريح . الحمد الله . .

فنظرت إليه مرة أخرى ، وإلى المسافة التى تفصل بين ثوبيهما وقالت وهى ما تزال تضحك : تأكد أن ثيابى نظيفة ، وليس فيها ما يلوث ثوبك إذا جلست مستريحاً .

فخجل الشاب وقال : العفو . . لم أقصد ذلك . .

فقالت وهى تنظر إليه النظرة نفسها : ولكنك قصدت متعمداً ألا تلمس يدى التى امتدت إليك وأنت تركب العربة .

فتضاعف خجله وقال وهو ينظر إليها مبتسماً : لم أقصد ذلك أيضاً ، وإنما تحاشيت أن ينقض وضوئى إذا صافحتك ووضعت يدى فى يدك .

فقالت وقد ارتسمت بعض أمارات الدهشة على وجهها : أ أنقض وضوءك إذا صافحتك ، ووضعت يدك فى يدى ؟ . .

فصمت قليلا وقال : الدين يقول ذلك . .

ــ وهل ينقض وضوؤك إذا صافحك رجل أيضاً ؟

ــ الرجل لا . .

ــ ولماذا إذن المرأة ؟

فارتبك ، وأراد أن يقول شيئاً ولكنه لم ينطق . وأحست بسرور داخلى لهذا الحرج الذى أوقعته فيه ، فصمتت هى أيضاً لحظات . ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها فى دهشة : شىء غريب . .

— ما هو ؟

— أن يصافحك رجل فلا ينقض وضوءك . . وتصافحك امرأة فتنقض هذا الوضوء . .

فقال الشاب فى سذاجة كبيرة : هذا شىء طبيعى . .

— وما الطبيعى فيه ؟

— إن هذا رجل ، وهذه امرأة .

فتهدج صوتها وهى تقول : وما الفرق بين الاثنين ؟

— كبير جداً . .

فقالت بنفس الصوت المتهدج الخافت الذى يكاد يشبه الهمس : ما هو ؟ . . حدثنى عنه قلت لك إننى جاهلة . . وأريد أن أتعلم . . قل . . تكلم . .

ثم أمعنت إليه النظر وهى ما زالت تتمتم : تحدث . . قل . . ما هو الفرق ؟ . .

فقال الشاب : لا أستطيع أن أوضحه لك . . ولكن الذى أعرفه . . أن أصحاب المذاهب لم يتفقوا على رأى . فمثلا ابن حنبل . . يحتم وجوب الغسل إذا لامس الرجل المرأة ، ومالك يكتفى بإعادة الوضوء . . أما الشافعى فيجيزه اضطراراً ما دامت النيات خالصة والنظرات طاهرة . . والملامسة بريئة . .

— رجل طيب الشافعى هذا . .

— الفاتحة لروحه . . الفاتحة . .

ومد الشاب يده إلى أمام وراح يقرأ الفاتحة بصوت عال ، واضطرت هى إلى أن تجاريه فقرأتها معه ، ثم قالت وهى تنظر إليه وهو يمسح

على وجهه بعد أن قرأ الفاتحة : وأنت ما مذهبك ؟

— حنبلى . .

— يا ساتر ! . . ولماذا لم تكن شافعيا ؟

— هكذا كان أبى رحمة الله عليه . .

وكانت العربة قد بلغت بهما نهاية الطريق فهبطا منها ، وراحت هى تسير وسط القبور ، والشاب يسير خلفها مغمض العينين ، يقرأ آيات من القرآن فى تأثر شديد . . وزاده تأثراً ذكره لأبيه ، حتى اخضلت عيناه ، وراح من حين إلى آخر يجفف دمعة تسقط هنا وأخرى تسقط هناك ، إلى أن بلغت به قبر المرحوم فدارت حوله مرات وهى تقرأ الفاتحة وتبكى ، فى حين جلس الشاب بجانب القبر متربعاً ، وأخرج من جيبه مسبحة طويلة سوداء كان قد ورثها عن والده . . وراح يقرأ سورة الحجرات بصوت مرتفع ويجود ما يقرأ وهو يهتز ذات اليمين وذات الشمال ، كما كان يهتز وهو يجود القرآن على يدى الشيخ نوفل فى القرية وهو صبى .

وراحت هى تنظر إليه مبتهجة مسرورة مقدرة له هذا الخلق الطيب وهذا التدين الكبير ، وهذه الصحبة التى أنستها الكثير من متاعبها . . حقيقة هى لم تزر قبر المرحوم منذ سنوات ، بيد أنها كانت إذا رأته مرة أحست بانقباض شديد وضيق يكاد يجثم على قلبها . أما زيارته اليوم فهى أشبه بأن تكون رحلة جميلة . وزادها سروراً أنها التقت عند القبر ببعض النسوة التى كانت على صداقة قديمة بهن ، ورحن يتحدثن إليها وتتحدث إليهن ويلمنها لوماً شديداً لأنها بقيت أرملة حتى الآن ولم تتزوج ، وكيف أنها ستقضى على جمالها بهذا الحزن الذى تعيش فيه ، وتقضى على شبابها بهذه الحياة الجافة التى تحياها ، وأن المرأة إن لم يكن لها خير فى شبابها ونفسها لم يكن لها خير فى أحد ، وأن الذى مات ، مات وانتهى .

وأطربها هذا القول وراحت تصغى إليه فى سرور ، وكلما أوشك

هذا الحديث أن ينتهى ، مدته بكلمة عابرة ، أو نظرة ساهمة ، أو حسرة على فقد المرحوم الذى لم تعوضه . .

وطال الحديث بينهن ، بيد أن واحدة منهن لم تكن مشتركة فيه . ضايقها هذا القول الممل ، وهذه النصائح التافهة ، وكانت لا تعرف شيئاً كثيراً عن شفعات . فقالت وهى تنظر إلى إمام الذى كان قد فرغ من قراءته ومن قراءة الفاتحة أيضاً ، واتجه إلى شفعات لينصرف بها : لا تصغى إلى هذا القول . ويكفيك سعادة أن يصبح ابنك هكذا ولو كان لى ابن مثله لكفانى وأسعدنى أن أترمل عليه إلى الأبد .

واكفهر وجهها فجأة ، وزاده عبوساً أن بقية النسوة نسين ما كن يتحدثن فيه ، وأيدن هذا القول ، ومددن أيديهن إلى إمام يصافحنه ويشدن برجولته ويوصينه خيراً بأمه هذه التى جعلت منه رجلا . وارتبك إمام ولم يجب : بل أمن على هذا القول . وارتبكت هى أيضاً ، وكأنها خشيت أن ينفجر غضبها ، فمدت يدها وصافحتهن سريعاً وانصرفت تسير بالشاب صامتة بين القبور إلى أن رفعت إليه رأسها المحترق ، ونظرت إليه وقالت ضاحكة فى مرارة كبيرة : أترى أنى أشبهك إلى حد كبير ، حتى إنهم يظنون دائماً هذا الظن ؟

— إنه ظن جميل ، ويسرنى أن يظنوه دائماً . .

— لست أرى فرقاً كبيراً بين الحقيقة وبين ما يظنون . .

— أبداً . . أبداً . .

ففطن الشاب إلى شىء ، وقال سريعاً فى مجاملة حلوة : فى شىء واحد فقط . .

فأمسكت أنفاسها وهى تقول : ما هو؟

فقال مبتسماً بدون أن ينظر إليها : فى السن .

فقالت مبتهجة تضحك من قلبها : أينا أكبر سناً يا ترى ؟ .

— أمى من غير شك ؟ .



ـــ هذه مجاملة منك . .

فقال الشاب جاداً : أمى عجوز . . تزيد على الأربعين . .

فارتعش قلبها حتى لكأنه أصيب بحجر . . وارتعش معه كيانها كله ، ولكنها قالت متماسكة وهى تنظر إلى مكان خطواتها على الأرض : والتى فى سن الأربعين عجوز ؟ . .

ـــ تخطت سن الشباب على الأقل . .

فصمتت ولم تجب ، وظلت تسير بجانبه ساهمة واجمة تنظر إلى مكان خطواتها على الأرض . وأدرك هو أنها محزونة ، ولكنه لم يدرك سبب أحزانها . فنظر إليها وقال : فيم تفكرين ؟ . .

ـــ أحس بانقباض شديد . .

فقال فى سذاجة : هكذا نكون دائماً بعد زيارة مقابر موتانا ، ولكن بذكر الله تطمئن القلوب ، فاذكرى الله سبحانه وتعالى ، واذكرى أيضاً أن هذا مصير الخلق جميعاً وأن هذه هى سنة الله فى خلقه . .

فقالت وهى تحاول جاهدة أن تبتسم : أأثقل عليك لو أننى طلبت منك طلباً يسيراً ؟

ـــ بالعكس يسرنى . . وثقى أننى لن أرفض لك طلباً . .

ـــ أى طلب ؟

ـــ أى طلب . .

ـــ احلف . .

ـــ وجلال الله . .

قالها الشاب فى ثقة وإيمان لا حد لهما . وسرها ذلك بعض الشىء ولكنه لم يسرها السرور كله ، ولذلك صمتت ولم تجب فسألها باهتمام : ماذا تطلبين ؟

ـــ إننى أشعر بضيق شديد ، والذهاب إلى البيت الآن سيزيدنى ضيقاً ، ولذلك أنا أريد أن أتنزه بعض الشىء .. وليس من عادتى أن

أتنزه بمفردى ، لأن نظرات الناس وأحاديثهم السمجة تزيدنى ضيقاً . . لذلك أريدك أن تصحبنى . .

ــ إلى أين ؟

ــ كما تريد أنت . .

فقال ضاحكاً فى ابتهاج : إننى من الأرياف ، ولا أعرف عن القاهرة شيئاً . .

ففكرت بعض الشىء . . أو تظاهرت بأنها تفكر بعض الشىء ، ثم بعد حين رنت إليه بعينيها الواسعتين . . وقالت متمتمة وكأنها ما زالت تفكر : نذهب . نذهب يا سيدى . . نذهب . .

ثم قالت وكأنها تذكرت شيئاً جميلا : أولا نتناول الغداء ، ثم نذهب إلى السينما الساعة الثالثة .

فتردد الشاب ثم قال فى شىء من الحرج : الغداء أمر سهل . . أما السينما ؟

وأطبق شفتيه ولم يجب ، فقالت : أتكره السينما ؟

ــ لم أذهب إليها فى حياتى . .

ــ ألأنك تكرهها ؟

ــ لا . . ولكن لأنى سمعت فضيلة الشيخ الفرجانى فى المعهد يقول إنها من المحرمات . .

فقالت فى دهشة : السينما حرام ؟

ــ مكروهة على أية حال . .

ــ لماذا ؟

ــ يقولون إنها تعرض أحياناً بعض الصور الخليعة ، وترى من أعضاء الجسد ما حرم الله أن يرى ، وهذا حرام . .

ــ ليست كما تظن . . وسنذهب إلى سينما مؤدبة جداً . . وسوف ترى . .

ـ إذا كان الأمر كذلك أوافق . .

فتطلقت أساريرها ، وشعرت بنشوة لا حد لها . . إذ استجاب هكذا سريعاً إلى رغبة من رغباتها ، وانطلقت معه خفيفة رشيقة مرحة ، كالعصفور الذى انطلق من سجنه يحلق فرحاً فى الفضاء الكبير . وراحت تسير معه فى شوارع القاهرة وأحيائها الشعبية كطفلة حديثة السن يسيل لعابها لكل شىء . . حيناً يشربان عرق السوس . وحيناً يأكلان الترمس والحلبة . وحيناً الحلوى ، وحيناً تتحدث إليه حديثاً جميلا ، يستغلق عليه باطنه فيبتهج لظاهره ابتهاجاً شديداً . وحيناً يتحدث هو إليها عن دهشته من أهل مصر ، ونساء أهل مصر . وكيف يسرن فى الطرقات هكذا سافرات متبرجات ، يبدين من زينتهن ما لا يجب أن يبدى ، ويظهرن من مفاتنهن ما حرم الله أن يظهر ، تروح تحدثه ضاحكة عن هذا التزمت الذى يعيش فيه ، وعن الحرية التى تتمتع بها فتاة الحضر ، والسجن الذى تعيش فيه فتاة القرية . .

وظلا كذلك إلى أن انتصف النهار . وحل موعد الغداء ، فذهبت به إلى « حاتى العائلات » . وهو مطعم معروف فى ميدان باب الخلق ، تعودت المعلمة شفعات أن تتردد عليه من حين إلى آخر . وهناك استقبلهما حسان السفرجى استقبالا حسناً ، وأعد لهما مائدة منعزلة كما أرادت ، واستقبلهما عصعص الشواء استقبالا حافلا ، وترك فحمه وناره وأسياخه وراح يرحب بها ، ويسألها عما تريد وعما تشتهى أن تأكل اليوم . . فطلبت منه فى فرحة زائدة أن يعد لها الكثير من أنواع الشواء . . أما الشاب فكان فى شغل عن هذا كله برائحة الشواء الشهية اللذيذة التى تداعب منخاريه وتنفذ كرائحة العطر الجميل إلى خياشيمه . وزاده سروراً أن حفلت المائدة أمامه بأنواع الطعام المتعددة ذات الرائحة الزكية ، فراح يأكل بفرحة غامرة ، ويلتهم الطعام التهاماً غير ملتفت إلى شىء . . لا المعلمة . . ولا فرحة عينيها اللتين تريانه وهو يأكل بهذه الشهية ، ولا

إلى ملاءتها الحريرية التى تركتها تنسدل من على الرأس والكتفين . تاركة الرأس الجميل والشعر الكستنائى اللامع تتهدل خصلاته وتنساب على ظهرها . . وفوق كتفين بلون العاج . حتى الصدر العريض العارى يتموج نوره ويتيه استعلاء بقيمته ودلالا بتوأميه؛ وإن لم يفطن إليه ولم يره . . ولم يغضبها ذلك أو ينغص من سعادتها . لأن فرحتها بسعادته بالطعام وإقباله عليه . وأساريره التى فاضت بشراً بطلعة المائدة : كل ذلك أحب عندها من كل ما عداه . إنه عندها كل شيء . إنه مطلع النور ، إنه أول الغيث . . أول لبنة فى صرح الحب . . تحقيق الآمال . . استجابة الرجاء . . إنه الوسيلة . . وهل الحب إلا الوسيلة التى نعبر عليها الطريق إلى الغاية . . إنه لم يكن قط الغاية نفسها . . إننا إذا بلغنا النهر نكون قد ارتوينا . . نكون قد نلنا كل شيء . لذلك فإن الوفاء والعطف والإخلاص والحنان والدموع والتضحية والشقاء وإنفاق المال — ليس كل ذلك إلا من أجل الوصول إلى الغاية فقط . . إن هذه كلها مطايا نعبر عليها الطريق إلى النهر . . أما إذا بلغنا النهر فلن نكون فى حاجة إلى هذه المطايا . . لن نكون فى حاجة إلى شيء منها أبداً . . لأن أمواجه ستأخذنا قسراً . . ستنسينا حتى متاعب السفر ومشاقه . . إذن فكل شيء هو الطريق ، والطريق فقط . .

ونظرت إليه وهو يلتهم قطعة من اللحم يحشو بها فمه ، فمدت يدها واقتطعت له قطعة أخرى ، وناولته إياها ، ولاحظ هو أنها لم تأكل كما يأكل هو ، ولم تقبل على الطعام الإقبال نفسه الذى يقبل هو به عليه . فقال لها وهو يتناول قطعة اللحم من يدها : لماذا لا تأكلين أنت أيضاً ؟

— يكفينى أن أراك تأكل . .

فقال على الفور فى سذاجة لا حد لها : هذه عاطفة نبيلة . . لا يستشعرها إلا قلب أم فعلا . .

فلم تسمح لفرحتها الغامرة أن يعكرها هذا المعكر الكريه ، ولذلك قالت على الفور ضاحكة فى سرور ، وهى تنتقى قطعة أخرى من اللحم وتناوله إياها : كل هذه . .

ــ أكلت كثيراً !

ــ هذه فقط . .

فقالت بدلال وهى تبعد بطرف أصبعها خصلة خبيثة من الشعر كانت قد تسللت إلى مكان ما على الصدر : وهل ترد لى يداً ؟

فتناولها من يدها سريعاً وهو يقول ضاحكاً فى بشر : ولن أرد لك طلباً ما حييت . .

فقالت وهى تمد قدمها تحت المائدة وتضغط فى حنان على قدمه : ولا حتى هذا الطلب ؟

فارتعدت قدمه تحت المائدة كأن عقرباً لدغتها ، ومد عينه سريعاً تحت المائدة ، فطالعته يدها تحمل نقودا ، فقال وهو ما زال يضطرب : ما هذه ؟

ــ ادفع الحساب . .

فتردد وأراد أن يقول شيئاً ولكنها سبقته قائلة : ألم تقل بأننا أهل ؟

ثم قالت وهى تضغط على يده : وأنا التى أضفتك ، ولكن هذه أيضاً أشياء بيننا فقط . . أما فى نظر الناس فأنت الرجل . .

ثم عقبت ضاحكة وهى تصفق لتستدعى الخادم : وسوف تكون الرجل دائماً . .

وكان الخادم قد أقبل ، فقدم هو له الحساب . ولما انصرف أراد أن يعطيها ما تبقى معه من نقود ، بيد أنها قالت وهى تنهض وتتناول الملاءة الحريرية السوداء ، وتلفها فى إحكام على ذلك النور الذى يشع من الظهر والكتفين : أنسيت أننا اتفقنا . .

ــ على ماذا ؟

– على أنك رجلى . . وأنك ستأخذنى اليوم إلى السينما . .

فقال فى شيء من الخجل والارتباك : سوف أدفع أنا ثمن السينما . .

فقالت ضاحكة وهى تضع يدها تحت إبطه وتنصرف : عيبك أنك لا تفهم سريعاً . .

وكأنها أدركت ما يؤلم فى هذا التعبير . فأسرعت قائلة وهى ما زالت تضحك : أقصد أنك سريع النسيان . .

– نسيت ماذا ؟

– أنك ابنى فيما بيننا ، ولكنك رجلى أمام الناس . .

فقال وهو يجاريها فى الضحك : لك الحق . . وسوف لا أنسى هذا بعد الآن . .

وكانا قد انصرفا من المطعم . وكما كانا يقطعان الطرقات ويتفرجان على الناس والمعروضات حتى يحين موعد الغداء ، كذلك فعلا حتى يحين موعد السينما . بيد أنهما كانا هذه المرة أقل تكلفاً ، وأقل تحرجاً أيضاً . فمثلا لم يجد الشاب حرجاً فى أن يضع يده فى يدها فى الطريق ، ولم يجد أيضاً تحرجاً كلما رأى شيئاً جميلا أعجبه وأراد أن يلفت نظرها إليه أمسك بها من ذراعها . . وسرها هذا سروراً لا حد له ، حتى إن الوقت مر سريعاً ، على غير ما كانت تنتظر .

ولما جاء موعد السينما ذهبا إليها . وراحت تريه الإعلانات ، وراح هو فى طفولة ينظر إليها ويقرأ أسماء الممثلين والممثلات ، وهى تمدحهم جميعاً : دون أن تعرف شيئاً عنهم ، ولكن لتحببه فى الدخول . .

ولما استقر بهما المكان داخل السينما ، وأطفئت الأنوار ، سرتها منه أشياء كثيرة جداً كان يجب ألا تسرها ، ولكنها تغاضت عن الكثير من سذاجته البالغة التى كانت تضايقها ، فقد جلس الشاب بجوارها قلقاً ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، وعندما بدأت إشارة الفيلم ظهر عليه الخوف والاضطراب ، وجحظت عيناه وهو يحملق جيداً فى الصور حتى

إنه حدث ما جعلها تنفجر ضاحكة ممسكة بكتفه ضاغطة عليها حتى لكأنها تريد أن تثبته فى مقعده ، فقد حدث أن أقبل على الشاشة وابور فى سرعة هائلة وقد تعالى دويه وصفيره المزعجان ، فخاف الشاب واضطرب وأمسك بيديه المرتعشتين فى مقعده ، كأن الوابور سيسير عليه . ولا تدرى هى لماذا سرتها سروراً بالغاً هذه السذاجة التى لا حد لها . ولهذا راحت تتحدث إليه مرة فلا يجيب ، وتضع يدها على كتفه فلا يتحرك . وكانت الرواية من روايات رعاة البقر التى فيها الكثير من البطولة والفروسية ، مما أعجب الشاب كثيراً وجعله فى مقعده يميل ويتحرك ويحس بأحاسيس البطل ، حتى إنه أحياناً كان ينسى نفسه ويندفع فى حماس مع البطل الذى يروح يكيل الضربات لعدوه ، ويصرخ بأعلى صوته فى الصالة ، مشيراً بقبضة يده للبطل بقوله : اديله — اديله — وعندما يرى كميناً أعد للبطل الذى يقبل عليه بدون أن يدرى حتى يكاد يسقط فيه ، يصرخ الشاب أيضاً بأعلى صوته فى الصالة محذراً : ارجع — ارجع — حاسب .

وبالرغم مما فى هذا من إحراج كبير للمعلمة ، التى راحت نظرات الجمهور وسخرياته توجه إليها وإلى الجالس بجوارها . . فإنها كانت هى الأخرى سعيدة سعادة لم تستشعرها منذ سنوات ، وذلك لسبب واحد فقط هو إحساسها بأنها استطاعت أن تصنع شيئاً لهذا الشاب يسعده إلى هذا الحد ، ويخرجه عن وقاره الجامد الذى يعيش فيه .

ولما انتهى العرض وخرج الجمهور . وكان المساء قد أقبل ، ظل الشاب غارقاً فى فرحته ، سابحاً فى سعادته هذه التى تفيض عليه ناسياً نفسه ووقاره ، كما كان تماماً فى السينما يعيش مع البطل ، لدرجة أنها لما استدعت أحد الحوذية فى الطريق ، ووقفت أمامهما العربة ، وركبت هى ومدت يدها إليه ، لم يرفض يدها كما فعل ذات مرة ، وإنما تناول يدها فى فرحة غامرة ، وصعد إليها خفيفاً رشيقاً غير هياب ولا وجل .
ولما جلس لم يجلس بعيداً عنها ، وإنما جلس ملتصقاً بها يضحك

ويقهقه كما كان يضحك فى السينما . وانتهزت – وهى ملتصقة به – هذه اللحظات ، والطريق المقفرة التى تسير فيها العربة ، وراحت تذكره بالأشياء التى أطربته فى الفيلم والتى تزيد من سروره ، فراح الشاب يضحك مبتهجاً كما لو كان ما زال جالساً فى السينما يشاهد الأحداث أمامه على الشاشة . بيد أنه حدث فجأة ما عكر عليه صفو هذا المرح وهذا الابتهاج . فقد شردت المعلمة فجأة وصمتت منكسة الرأس ، أشبه بمن يعالج ألماً حاداً ، ومدت يدها إلى جبينها الذى تتلألأ عليه حبات التوتر وخرج النجف المدلاة من المنديل أبو أويه الذى عصبت به رأسها الجميل ، وراحت تعصر جبينها عصراً فى ألم . .

وسألها الشاب عما بها ، فطمأنته فى أول الأمر ، وأفهمته بصوتها الخافت المحموم بأنه الصداع الحاد ؛ فتألم الشاب ألماً شديداً محاولا أن يصنع لها شيئاً ، وسرها إلى حد كبير منه هذا الاهتمام . . محاولة أن تطمئنه ما استطاعت . . بيد أنها لما عجزت عن احتمال الألم وعن حمل رأسها أيضاً أخذت تزفر زفرات حادة متقطعة وهى تميل برأسها على رأس الشاب الذى راح يمسح عليه بيده ، وهو يقرأ سورة الفلق . وكلما أمعن الشاب فى القراءة ازداد وجعها ، وارتعش جسدها كله وهى ملتصقة به ، طالبة منه فى توسل أن يحضر لها سريعاً شيئاً يخفف هذه الآلام . .

وحاول الفتى – وهو فى غاية الحزن – أن يرفع رأسها من على كتفه لكى ينصرف سريعاً ليشترى لها « برشامة » ، بيد أنها توسلت إليه ألا يتركها ، وأشارت له أن يوقف العربة ويرسل الحوذى ليشترى هو البرشامة . وانصرف الحوذى سريعاً يبحث عن «البرشامة» . . ونظر الشاب إليها مشفقاً جداً ، وراح بيده يمسح على رأسها النائم على كتفه مرة أخرى . وهالته كثرة الدموع التى رآها تنساب من عينها ، فأخرج منديله وراح يجفف لها هذه الدموع ، فأمسكت هى بأصابعه ، ونظرت إليه من خلال

تلك الشبكة المرتسمة على وجهها ، وقالت بصوت أشبه بلفحات النار : إنى أرتعش . . إنى أرتعش . . إن رأسى يكاد يتفتت .

ثم انفجرت باكية مرة أخرى وهى تقول متوسلة : إن رأسى يكاد يحترق . . خذنى إلى جوارك . .

فالتصق بها الشاب أكثر من ذى قبل وهو أكثر اضطراباً .

ـ خذ رأسى إلى صدرك .

قالت ذلك ثم ارتمت برأسها وكتفيها على صدر الشاب الذى من شدة حزنه راح يفسح لها المكان الذى تريد . .

ونظر الشاب إلى الجسد الذى يرتعش على صدره والوجه الذى تغمره الدموع وهو يتمتم فى حزن شديد : اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله . تشجعى .

ونظرت هى إليه من خلال شبكة الدموع مرة أخرى ، ونظرت إليه جيداً هذه المرة ، ومدت ذراعيها المضطربتين ، وتحسست بيديها كتفيه وعنقه الضخم ، وراحت تبكى ، فازداد اضطراب الفتى ، ومال بعنقه الذى بين ذراعيها على رأسها الذى يحترق ، واقتربت برأسها من رأسه ، ووجهها من وجهه . . وأنفاسها من أنفاسه ، وعيناها من عينيه ، وراح ينظر فى إشفاق زائد وأسف مرير ، إلى هذه العيون التى كانت تضحك منذ لحظات ، فإذا بالدموع تغمرها الآن ، وتنظر هى من خلال تلك الشبكة المائية المرتسمة على عينيها إلى عينيه القاسيتين اللتين تشبهان عينى صقر . . وأحست بشىء من الخوف يكتنفها ويخنق أحاسيسها جميعاً ويضغط عليها فى عنف . وكما يخشى فاقد الوعى المقدم على الانتحار أن تخونه قواه فيسرع بلا أدنى تفكير بالضغط على الزناد ، كذلك أغمضت هى عينيها سريعاً ، وجذبت بذراعيها الملتفتين حول عنقه ، وجهه إلى وجهها سريعاً أيضاً ، ومن ثم تمتمت فى حشرجة الميت تماماً وهى تطبق بشفتيها على شفتيه : إمام . . إنى أحبك . قبلنى .

ولم تفطن بعد ذلك إلى ما حدث على وجه التحديد . . وإنما الذى تذكره تماماً أنها رأت جسدها كله ملقى فى وسط العربة ، كما رأت أيضاً فيما رأت الشاب يفر هارباً يتخبط فى الظلام . . كما يتخبط تماماً الإنسان الذى يطارده فى الليل ثعبان هائل مخيف . .

١٦

« لكل شىء إذا ما تم نقصان» !

بهذا كان يتحدث الشاب إلى نفسه وهو يسير فى الليل خائفاً مضطرباً يتلفت ذات اليمين وذات الشمال كأن ذلك الثعبان الهائل ما زال يطارده !

إنه كان يقدر كل شىء ، ويفكر فى كل شىء ، وينتظر أيضاً من الدنيا والناس كل شىء ، إلا أن تكون هذه المرأة التى تحمل هذا الخلق الطيب ، وهذا القلب الكبير ، وهذا الكرم الذى أغدقته عليه تكون على هذا السوء ، أو هى تريد منه هذا السوء . . ولكن كيف سولت لها نفسها هذا الإثم الكبير ، الذى دونه الموت من غير شك ؟ . . وكيف لم يفطن هو إلى غرضها ؟ ولكن هل هى بهذا الخبث بحيث جعلته يتخذها كأم له . . بحيث جعلته يظنها ملاكاً فى حين أنها فى الحقيقة شيطان رجيم . . فى حين أنها تريد منه . . تريد منه ماذا ؟ وانفجر باكياً ، وأخرج منديله المحلاوى الكبير وجفف به دموعه التى سالت واختلطت بحبات العرق المتصبب من جبينه . . وواصل سيره ، كما واصل أيضاً حديثه إلى نفسه . . ولكن! ماذا يفعل الآن ؟ وكيف يعود إلى هذا البيت الدنس ثانية ؟ . . إلى هذا الشيطان الرجيم مرة أخرى ؟ . إلى هذه المرأة الداعرة ؟ وهل أساء هو إلى أحد حتى يسىء إليه القدر ، ويوقعه فى هذا السوء ؟ . . وأخرج منديله مرة أخرى وجفف بعض الدموع . . وواصل حديثه إلى نفسه . . إنه حقيقة استطاع أن يرد عنه هذا الشر

بمجرد أن فطن إليه ، فهل يستطيع ذلك مرة أخرى ؟ . . ألم تكن هذه المرأة التى استطاعت أن تجعله يحسن بها الظن ، وكانت لها القدرة على أن تجعله يتخذها أماً فعلا ، ألم يكن فى استطاعتها أيضاً — ولها من الدهاء هذا القدر — أن تجعله . . تجعله ماذا ؟ .. وجحظت عيناه جحوظاً غريباً وهو ينظر إلى السماء وكأنه يستجديها ويسألها العون . .

إن أسلم الأشياء ألا يعود ثانية إلى هذا البيت . . ولكن ماذا يصنع ؟ وأين يبيت ؟ . . أيذهب إلى محمدين ويطلب منه أن يبحث له عن مسكن آخر ؟ . . وماذا يقول له إذا سأله عن السبب ؟ أيقول . . ودمعت عيناه وتمتمت شفتاه بألفاظ من القرآن كان يحفظها . .

وظل يقرأ وهو يسير على غير وعى ، ويقطع الطرقات خائفاً يضطرب إلى أن وجد نفسه بدون قصد يقف متردداً أمام بيت من البيوت ، . . وجد نفسه بدون قصد يصعد السلم ويقف أمام باب إحدى الشقق ، ويدق الجرس ، وما إن فتح الباب حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام سلوى ، ونظرت الفتاة فى دهشة إلى وجهه الأصفر الشاحب ، وعينيه الزائغتين . . وقالت مضطربة قبل أن تدعوه للدخول : إمام ، ما بك ؟

فتذكر كل شىء وتمالك نفسه وقال مبتسماً : لا شىء ، لا شىء ، فقط أردت أن أتريض فجئت ماشياً ، والمسافة بعيدة أتعبتنى . .

فانفرجت أساريرها فى ابتهاج وهى تقول وتدعوه للدخول : أزعجتنى يا شيخ . . حسبتك مريضاً . . ادخل .

ودخل الشاب . ولما جلس هدأت أنفاسه ، وعاد إلى طبيعته ، وأقبلت الست صبرية مرحبة ، كل ذلك بدون أن يفطن إلى دهشتيهما من حضوره المفاجئ ، ولما أدرك فى نهاية الأمر ، انتحل لمجيئه هذا عذراً ، وقال : وجدت عندى من الوقت والفراغ ما يمكننى من أن أبدأ الدرس مع سلوى الليلة ، بدل من أن نبدأه فى الأسبوع القادم . .

ففرحت الست صبرية ، وشكرت له هذا الاهتمام ، وتركتهما ليبدأ

الدرس ، وانصرفت لتصنع لهما الشاى ، وجلست معه سلوى ، تنظر إلى وجهه ، وإلى الفرق الهائل الذى كان عليه منذ لحظات عندما فتحت له الباب ، وكيف أنه تغير سريعاً من الاصفرار والشحوب والاضطراب ، إلى هذا البشر وهذا الابتسام والهدوء والاطمئنان ، فقالت متخابثة وهى تتعمد البحث عن الكراسة التى سيبدأ فيها الدرس الأول : أظنك ما زلت تذكر أيام زمان !

— وهل تنسى أيام العمر ؟

— وتذكر أنك تعودت دائماً أن تقول لى الصدق ، ولا تكذب على .

— وسأتعود دائماً أن أقول لك الصدق ، ولا أكذب عليك .

— قل إذن ماذا كان يزعجك عندما فتحت لك الباب ؟ !

فعاد الاصفرار يرتسم رويداً على وجهه ، ويبين فى نظراته الخوف ، وقال سريعاً كمن يريد أن يبعد سوءاً عنه : لا شىء ، لا شىء ، قلت لك لا شىء . .

— إذن أنت تكذب .

فارتبك الشاب وقال : كلا ، وإنما الأمر أيسر مما تظنين . .

— ما هو ؟

— الحقيقة أننى غير مستريح إلى السكن الذى أقطن فيه .

فعقدت الدهشة لسانها وهى تسأله : قلت لى أمس إنك مستريح إلى حد كبير .

— اتضح أن البيوت كالناس . . لا نعرفها على حقيقتها إلا إذا خبرناها . .

— وما الذى يضايقك فى البيت ؟

فعاوده الارتباك وزم شفتيه فى حزن ، وتمتم وهو ينظر إلى الأرض ويضغط على أنامله حتى ليكاد يعصرها : السيرجة ، ورائحة الزيت ،

والعفن الذى يتصاعد من الكسب . . و . . وأشياء أخرى ، قذرة . . قذرة جداً .

ولاحظت عليه الحزن الشديد الذى هو فيه ، فتركت مقعدها وانتقلت إلى جواره ، وقالت له وهي تربت على ذراعه مطمئنة : من الغد سوف أبحث لك عن سكن ملائم عندنا هنا فى الوايلية . فقال وهو ما زال يفرك أصابعه وينظر إلى الأرض : وهل يكون بالقيمة التى أقطن بها الآن ؟

ــ ليست العباسية كما تظن ، إن فيها الكثير من الأحياء الشعبية الملائمة جداً ، ومع ذلك اترك هذا لى وسوف ترى .

ــ يفعل الله ما يريد .

نطق هذا فى إيمان لا حد له ، ثم نظر إليها وقال : هه . . لنبدأ الدرس الأول .

فقالت ضاحكة وهى تتناول الكراسة من على الطاولة التى أمامها : سيكون ثقيلا من غير شك .

ــ لماذا ؟

ــ لأنك غير منشرح الصدر الليلة .

ــ قلت يفعل الله ما يريد ، هه لنبدأ الدرس .

فقالت وهى تضع الكراسة أمامها وتمسك بالقلم : اتفضل . .

فصمت حيناً طويلا ثم رفع عينيه إليها وقال : اكتبى أولا فى وسط الصفحة الأولى . . بسم الله الرحمن الرحيم . . وبه نستعين .

فأشرق وجه الفتاة وهى تكتب ما أملاه عليها بعناية وخط جميل . . وبعد أن كتبت قال لها : أى شيء يضايقك فى العربى .

فقالت ضاحكة : صدقنى ! إذا قلت لك . . إن اسمه يضايقنى . .

فقال وهو يجاريها فى الضحك : لهذه الدرجة !

ــ ثقيل ومعقد ، جر ، ونصب ، وكسر ، وإعراب . .

فقال ضاحكاً : وماذا تقولين إذن عندما تدرسين المتن ، والفقه والعروض ؟

ثم نظر إليها وقال : لعل الإعراب هو الذى يضايقك بعض الشيء .

– بل ينغص على حياتى . . ذهب عمر لينام . . عمر لم يذهب لينام . . شرب عمر الشاى . . عمر لم يشرب الشاى . . مالى أنا شرب أو لم يشرب !

فقال بعد أن أغرق ضاحكاً : إنك تتوهمين . . إعراب هذه الجمل البسيطة من أيسر ما يمكن ، اكتبى . .

فتناولت القلم ونظرت إليه .

– احتفظ عمر ب . . . .

فقالت ضاحكة : تانى عمر ؟ . .

– دعى عمر هذا الذى يضايقك وليكن مثلا . . مثلا . .

وأخذ يفكر فى اسم علم غير عمر ، فقالت هى ولكن بدون أن تنظر إليه : إمام مثلا . .

فقال مبتسماً فى ابتهاج : إمام . . إمام . . اكتبى يا ستى . . احتفظ إمام ب . . ب . . .

فقالت وهى تضحك : يا ترى بماذا احتفظ :

فقال وكأنه عثر على ما يريد : احتفظ إمام بذكرياته . .

فقالت وهى تضع القلم ضاحكة : ليس لهذا محل من الإعراب . .

– لماذا ؟ . .

– لأنك قطعاً لم تحتفظ بها كلها . . كما أحتفظ أنا بها كلها . .

– ومن قال لك ؟

– إذن قل لى ما هو الذى احتفظت به ؟ . .

– أيام الطفولة . . القرية . . والحارة . . ودهليز المرعشلى . . عم نوفل . . عم فضل السقا . .

– وماذا أيضاً ؟ . .

ـ ودار الأستاذ الناظر . . وابنته سلوى .

فقالت وهى تخفض عينيها : وماذا أيضاً ؟ . .

ـ والجرن ، وفوانيس رمضان ولعب الاستغماية ، وجمال المالح ، وحلقة ومضرب ، والسهر للفجر .

ـ وماذا أيضاً ؟ . .

ـ وخالتى مقبولة . . والترمس . . والسودانى . . وكيزان الحلبة والحلوى الطحينية . . و . . و . .

ـ وماذا ؟

فقال ضاحكاً : وسرقة البيض . . والعلقة التى ما زلت أذكرها .

ـ وماذا أيضاً ؟ . .

وانخفض صوته وهو يتمتم فيما يشبه الخجل : والكرة (الشراب) .

فخفق قلبها وتعالت دقاته . وصعد الدم إلى وجهها فورده ، وتمتمت بصوت شبه مختنق وهى تنظر إلى الأرض وتضغط بأصابعها المضطربة على القلم الذى فى يدها : وماذا أيضاً ؟

ـ وليلة السفر ، والقطار الذى يبتعد عن القرية ، والموال الذى كان يغنيه عم غنيم خفير المحطة ، والذى أسال دموعى ، وأنا أستمع إليه ، وما زالت تسيل كلما ذكرته . .

ـ ما هو . . ؟

زعق الوابور على السفر   قلت رايحين فين
ح تغيبوا سنه   ولا تغيبوا اتنين
. يا اللى ملكتو الفؤاد   . يا كحله جوه العين

ـ تسمح أكتبه ؟ . .

وبينما هو يمليه عليها وهى تدونه على هامش الكراسة أقبلت الست صبرية حاملة صينية الشاى ، وما إن رأتها تكتب حتى ابتهجت ابتهاجاً شديداً ، وقالت لإمام وهى تناوله كوب الشاى : اعمل معروف .

أحسن دى فى العربى . . حُطِّى كَلَمُن . .

وبعد أن قدمت الشاى للاثنين ، وحاولت أن تخرج ، عادت ووقفت عند الباب مخاطبة الشاب : ولكن اسمع . . حاذر أن تشغل بالدرس الذى تعطيها إياه عن درسك أنت ، ليس المهم أن تنجح هى ، وإنما المهم أن تحصل أنت على الشهادة هذا العام .

قالت ذلك ولم تنتظر جواباً وخرجت ، ولم يدر الشاب لماذا خفق قلبه لهذا القول ، ولم يدر أيضاً لماذا رنت فى أذنه كلمة محمدين له : إذا حصلت على الشهادة استطعت أن تحصل على سلوى — ونظر إلى الفتاة فرآها تنظر فى خجل إلى الأرض وقد تورد وجهها أكثر من ذى قبل ، ومرت لحظة صمت طويلة عليهما ، حانت خلالها نظرة من الفتاة إلى وجهه فرأته يسبح فى تفكير عميق ، فقالت له : فيم تفكر ؟

— لا شيء ، لا شيء . .

— وهل زال الشيء الذى كان يضايقك عندما أقبلت ؟

— الحمد لله ، عندما رأيتك زال كل شيء .

نطقها الشاب بسرعة ومن غير أن يدرك ، ولما فطن إلى ما قال وإلى ما فيه من حرج ، احمر وجهه خجلا وارتبك ارتباكاً شديداً ، وقال وهو يعود ثانية إلى يديه يعصر أصابعه : أقصد أننى أحس كلما جئت إلى هنا ، أننى بين أهلى وعشيرتى .

فقالت غضبى تزم شفتيها فى طفولة محببة : ورؤيتى . . ألا تسرك ؟

— بل تسعدنى ، وتخفف عنى الكثير من المتاعب ، ولولا ذلك لما جئت الآن .

فسألته جادة : وما هى الأشياء التى تسبب لك المتاعب ؟

فعاوده الاضطراب بعض الشيء وقال : أشياء كثيرة . . كثيرة جداً .

— منها . .

فصمت ولم يجب ، فقالت : أتنكر عنى شيئاً ؟

ـ حتى إذا رغبت فى ذلك لم أستطع . .
ـ إذن قل ، ما الذى يؤلمك إلى هذا الحد ؟ . .
ـ قلقى على أمى المريضة ، وشوقى الزائد لرؤيتها .
ـ إنها بخير ، وسوف أجعل أبى يكتب لها خطاباً يستفسر عن صحتها . .
ـ شكراً . .
ـ قل وماذا أيضاً . .
ـ هذا السكن الذى أسكنه . .
فنظرت إلى أساريره التى أظلمت فجأة وقالت : إلى هذا الحد يضايقك هذا السكن ؟
ـ بل يخيفنى ، إننى أتمثل باب غرفتى الآن أشبه بثعبان ضخم ، فاتحاً فكيه ، شاهراً أنيابه ، ليلتهمنى . .
فقالت فى ذعر : ولماذا قطنت فيه ما دام هو بهذه البشاعة ؟ . .

فصمت ولم يجب ، وراحت هى تتطلع إليه ، وإلى العبوس المرتسم على وجهه ، ثم قالت مشفقة فى حنان كبير تسرب مع صوتها الناعم إلى قلبه فأرضاه وأطربه : سوف لا أعود إلى البيت غداً إلا بعد أن أجد لك السكن الذى تطمئن إليه . .
ـ أنا لا أعرف كيف أرد لك كل هذا الجميل . .
فقالت ضاحكة : إن هذا ميسور جداً ، عليك أن تسرق ثلاث بيضات أخرى ، وتشترى لى بها حلاوة طحينية . .

فضحك حتى استلقى ، وتركته يضحك ، ثم قالت جادة وهى ترنو إلى عينيه الجميلتين ووجهه الذى يقطر صفاء وطهراً : كنت أظن أن الذى يشغلك هو نفسه الذى يشغلنى ويسبب لى بعض القلق . .
ـ ما الذى يشغلك ؟
ـ رغبتى فى أن تنال الشهادة هذا العام .

ــ عندى إيمان صادق بأنى سأنالها بإذن الله .

فقالت فى فرحة غامرة وهى ترنو إليه نصف رنوة : إذن ، أعد لك هدية النجاح من الآن .

فتذكر ما قاله له محمدين ، ونظر إليها بعينيه الواسعتين ، وقال بصوت لا يعرف لماذا خرج خافتاً أشبه بالهمس : وما الهدية التى ستعدينها لى ؟

فتمتمت متوردة الوجه ، وهى تغمض عينيها ، وتنظر إلى الأرض فى خجل : لا أعرف . .

ــ أنا أعرف . .

فقالت وهى ما زالت تنظر إلى الأرض : ماذا تعرف ؟ . .

ــ أعرف . .

وأمسك ولم يكمل ، ومنعه الحياء أن يقول لها الشىء الذى يريده ، ويحدثها عن السعادة التى يعيش فيها ، والتى يستمد منها قوته ، وظل صامتاً ينظر إلى الأرض ، وظلت هى أيضاً صامتة تنظر إلى الأرض ، وطالت فترة الصمت هذه بينهما طويلا . . طويلا جداً ، وامتدت بالاثنين إلى أشياء كثيرة مجهولة ، تستشعرها الأحاسيس ، وتهزج بها القلوب ، وتترنم بها العواطف ، وتجعل الجسد كله أشبه بالطائر الذى يحلق فى عوالم شتى من البهجة . . واللذة . . والسرور . . تماماً كتلك التى حلقا فيها ذات ليلة . . ذات ليلة خالدة . . ليلة لا تنسى . . ليلة كانت هى الحياة . . وكانت هى الدنيا . . وكانت هى العمر . . وكانت هى الذكرى . . ليلة انهارت بهما كومة التبن . . واكتشف فيها سرقة كرة من الكرات . . فارتعشت الأصابع وخفقت القلوب ، واشتعلت الأحاسيس ، وهزج الجسد ، وغنت الحياة ، ورقصت الدنيا !

وظلا كذلك يحلقان إلى أن هزج عصفور فى السماء ، وأرسل صوتاً أشبه ما يكون برعشة وتر . . أو رجفة قلب ، أو اختلاج شفاه . . ورن

الصوت فى أذن الفتى : قل . . تعرف ماذا ؟

ففتح الشاب عينيه ، محاولا أن يفيق من ذلك الحلم الذى يعيش فيه ، ومسح شفتيها بلسانه ، وقال وهو ينظر إلى صورة صغيرة لسلوى بملابس المدرسة أمامه على الحائط : أعرف أنك ستهدينى هذه الصورة .

فقالت وهى تخرجها من الإطار وتقدمها إليه : ظننتك ستطلب شيئاً كبيراً . .

فقام وهو يتناولها من يدها متلهفاً ، ويضعها فى جيبه ، وينهض سريعاً كمن يريد أن يهرب بشىء ، ولما رأته يتجه إلى الباب قالت : ولكنا لم نبدأ الدرس .

فقال ويده ما زالت على الجيب الذى فيه الصورة فوق القلب : دائماً اليوم الأول فى الدراسة ، ينفق فى الإعداد للدروس .

فقالت وهى تنظر إلى الأرض ، وتمد يدها لمصافحته : ومتى ستعود ؟

ـــ غداً إن شاء الله .

وتماماً كما هبط هو السلم يحرك أصابع يده ، التى كانت فى يدها ، ويضغطها ويفردها ، وهو يتحسس حائط السلم . كانت هى فى الغرفة ، تحرك أصابعها وتضغطها وتفردها وهى تتحسس الكراسة ، التى كتبت عليها بخط يدها : احتفظ إمام بذكرياته . .

١٧

وهبط إلى الطريق ، وغمرته وحشته ، واكتنفته ظلمة الحوارى والأزقة التى راح يسير فيها ، بيد أنه تجلد وتماسك وراح يسير . فقد كان لا بد له أن يسير ، إلى أن بلغ أول الزقاق ، وطالعته الحونخة ، والخنزير الضخم المعلق فى وسطها ، فإذا به يتراجع خائفاً ، وأخافه هذا المنظر ، وأراد أن يرتد راجعاً ، وحرك قدميه ، وحاول أن يدير وجهه وينطلق

راكضاً ، بيد أن رجفة ارتجفتها عيناه فتغير المنظر أمامه ، ورأى الباب قائماً تتوسطه الخوخة ذات الجنزير الضخم ، ومد يده التي كانت ترتعش ، وجفف العرق البارد الذي كان يتصبب من وجهه ، واقترب خطوات ، ومد يده إلى الجنزير وهو يبسمل ويستعيذ بالله ويتلو آية الكرسي ، وما إن فرغ منها حتى انفتح له الباب في يسر اطمأن إليه كثيراً . . لأن الجنزير لم يحدث تلك الأصوات المزعجة التي تعود أن يحدثها ، وكان ذلك يهمه جداً ، لأن الذي كان يطمع فيه ويرجو من الله تحقيقه هو أن يبلغ غرفته ، وأن يتمكن من إحكام إغلاق بابها خلفه قبل أن يشعر به أحد ، حتى إذا ما طلع النهار استطاع أن يدبر من أمر نفسه الكثير ولو أدى به الحال أن يعود ثانية إلى لوكاندة المدينة المنورة ، ولو أنفق بدل القروش الخمسة . . عشرة ، وبدل أن يمكث يوماً بغير طعام يمكث أياماً ، فكل ذلك أحب إليه مما يدعونه إليه ، وقد كان فعلا حذراً الحذر كله ، موفقاً التوفيق كله ، فقد استطاع أن يعيد الخوخة إلى ما كانت عليه ، والجنزير إلى مكانه ، وأن يخترق الدهليز بدون أن يشعر به أحد ، ولا الأستاذ حسبو الذي كان في السيرجة مع بهلول ، يرتب له شئونه ويعد له عليقه وهو مخمور يترنح ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويغني مبتهجاً ، وزجاجة الخمر في يده :

سبع سواقي بتنعي   لم طفوا لي نار
يا منية القلب قول   لي إزاي عشق الجار
يبقى النظر في النظر   والقلب قايد نار

كما يطمئن الغريق ويلفظ آخر أنفاس الخوف ، عندما يمسك بحبل النجاة ، اطمأن الشاب ، وتطلقت أساريره عندما دخل غرفته بدون أن يراه أحد ، وأغلق بابها خلفه إغلاقاً محكماً ، واطمأن إلى قوة رتاجها وإلى أنه لا يمكن لقوة ما أن تقتحم عليه غرفته أو تحرك هذا المزلاج الضخم السميك ، وراح وسط الغرفة يجفف عرقه ، وينزع

ثيابه رويداً بعد أن أشعل المصباح ، وهو يبتسم من حين إلى آخر ، فقد تذكر حديثه مع سلوى ، ونظرات الخجل التى تبودلت بينهما ، وعبارات الإخلاص والحب التى ترددت على شفاههما ، وتذكر مع ما تذكر الشهادة و رغبة سلوى فى حصوله عليها ورغبة أمها أيضاً فى ذلك ، ورنت فى أذنه كلمة محمدين ، وانفرجت أسارير وجهه وهو ينظر إلى الصورة ويتأملها ، وانفرجت أساريره مرة أخرى وهو يمد يده فى إيمان لا حد له إلى الرف الخشبي الذى فوقه بعض الكتب التى عليه أن يدرسها ويستوعبها ويحل طلاسمها ، ولم يشعر هذه المرة بصعوبة هذه الكتب أو ثقل موادها كما كان يشعر من قبل عندما يتناولها ويبدأ القراءة فيها ، كما أشعل فى حذر ما بعده حذر وابور الجاز ، وأعد عليه كوباً من الشاى الثقيل الأسود الذى يساعده على السهر ، وجلس على الأرض أمام المصباح ، يقرأ الدروس ويذاكر . .

وكلما نسى نفسه ونسى أيضاً حذره الذى يجب أن يحذره ، وارتفع صوته بالقراءة ، كما تعود أن يرفع صوته وهو يقرأ ، عاد سريعاً وزم شفتيه فى اضطراب ، وراح يتلفت حواليه خشية أن يكون قد سمعه أحد ، وحين يطمئن إلى أن أحداً لم يسمعه يعود إلى القراءة سرًّا، وظل كذلك زمناً لا يدرى تحديده ، أطال أم قصر . . وإنما الذى يدريه أنه أغرق نفسه إغراقاً فى الكتاب الذى بين يديه ، وراح يقرأ ويعيد ويحفظ ، وراح أيضاً يهتز ذات اليمين وذات الشمال ، وهو مغمض العينين يتلو ما يريد أن يحفظ بصوت مرتفع كعادته عندما يريد أن يحفظ جيداً ، وإذا به فجأة يسمع شيئاً . . لم يسمعه بأذنه كما تعودت الناس أن تسمع بآذانها ، وإنما سمعه بقلبه وبإحساسه ، ففتح عينيه فإذا شفعات منتصبة أمامه كالسهم أو كالهول ، أو كالقدر لا يعرف كيف نفذ إليه ، أهبط عليه من السماء ، أم خرج من الأرض ؟

ونظر إليها مرتاعاً ، ممسكاً بشفتيه آخر لفظ كان ينطق به وهو

يقرأ ، كما تصلبت أصابعه على الكتاب الذى كان فى يده ، وراح ينظر خائفاً . . ورأى بنظراته المضطربة فيما رأى الباب الذى بين الغرفتين ، والذى كان خلفه دولابها الكبير — رآه مفتوحاً بعد أن نقل الدولاب الذى كان خلفه من مكانه ، فعرف عند ذلك أنها حقيقة ، وأنها لم تكن خيالا كما كان يظن ، ولم تكن أيضاً عفريتاً خرج إليه من الأرض أو هبط عليه من السماء ، وإنما هى شفعات جاءته من هذا الباب الذى لم يكن يذكره أو يذكر له وجوداً . وارتعدت فرائص الشاب ، وهو جالس أمامها القرفصاء على الأرض ينظر إليها ، وتنظر إليه ، وامتدت هذه النظرات بينهما لحظات ، انحنت خلالها عليه ، وراحت تربت على كتفه التى ترتعد تحت يدها وهى تقول : ما الذى يخيفك إلى هذا الحد ؟

فلم ينطق وإنما انفجر باكياً ، وراح يولول كطفل ، فأخذته إلى صدرها وراحت تمسح على رأسه بيدها وهى تجفف له دموعه التى انسابت على صدرها العارى دافئة فزادتها هى أيضاً اضطراباً وهى تقول : قلت لك ما الذى يخيفك إلى هذا الحد ؟

فرفع الشاب وجهه المبلل بالدموع عن صدرها وفتح عينيه . ولما رأى صدرها ، قال يخاطبها بصوت رعش مضطرب ، كما يخاطب القتيل قاتله قبل أن يجهز عليه : إننى أخاف منك . .

فقالت وهى ما تزال تمسح على رأسه ، وتتحسس شعره بأصابعها : تخاف منى أنا ؟ !

ولما لم يجب قالت وهى تمسك بذقنه وتنظر إليه : قل . . تكلم . . مم تخاف ؟ !

— قلت منك أنت . . منك أنت !

— وهل أنا أخيف الناس إلى هذا الحد ؟

فقال الشاب باكياً : أجل . . أجل . .

فجحظت عيناها فى دهشة وهى تسأله : أنا أخيف الناس ؟ . .

كيف ؟ . . قل . . تكلم . . كيف أخيفهم ؟ ومم يخافون ؟ . .
— من الله . . من الله . . :
فزمت شفتيها ثم قالت هامسة بعد حين : وهل فيما بيننا ما يغضب الله ؟!
— أخشى أن يكون . .
— يكون ماذا ؟ . . تكلم . .
فصمت ولم يجب . . فمدت يدها ومسحت على رأسه مرة أخرى . .
ولما لاحظت اطمئنانه بعض الشيء قالت وهى ما تزال تمسح بأناملها المرتعشة على رأسه المحموم : قل . . تكلم . . تخشى ماذا ؟ !
فأراد أن يقول شيئاً ولكنه لم يقدر . . فصمت مطرقاً . . ولما طال صمته قالت : لماذا لا تريد أن تتكلم ؟
— ماذا أقول ؟
— ما الذى جعلك تتركنى فى العربة وتفر هارباً ؟ . .
— لأنى . . لأنى . .
ثم أطبق شفتيه ، فقالت هى : لأنى أردت أن أقبلك ؟ !
وكأنه ظفر بالرد الذى لا يحرجه ، لذلك نطق على الفور : أجل . . أجل . .
فسرحت طويلا ، ثم قالت وكأنها تريد أن تغمض عينيها : ألم تقل لى إننى كأمك ؟
فنظر إليها الشاب ذاهلا وقال : أجل . . قلت لك ذلك . .
ثم عاد فتمتم وهو يحول نظراته عنها فى ألم ، وكأنه يخاطب نفسه : وكنت أقولها من قلبى . . علم الله . .
فصمتت لحظات ، ثم قالت له : هل بين الأم وابنها هذا الذى تظن . .
فلم يجب ، وأطرق إلى الأرض . فاقتربت منه قليلا ، وقالت وهى تربت على كتفه : ألم أقل لك يا بنى إننى يتيمة وحيدة لا أب ، ولا

أخ ولا زوج ، ولا ولد . . ولما قلت لى إننى كأمك ظننتك ابنى حقيقة . . وأردت أن أقبلك . . فهل فى هذا ما يغضب الله . . ويغضبك إلى هذا الحد ؟

فقال فى فرحة لا حدّ لها : حقيقة أن بعض الظن إثم . . و . .

بيد أنه عاد فأغمض عينيه سريعاً . . عندما رأى صدرها العارى ، وقميصها الخفيف الذى انشق من أمام عن ثديين بارزين مخيفين . ولما عاودته إطراقته قالت وهى تربت أيضاً على كتفه : تكلم . . ماذا كنت تريد أن تقول ؟ . .

فتمتم بصوت خافت وهو ما زال ينظر إلى الأرض : إذا كان هذا حقيقة فإنى أرجو أن تغفرى لى هذا الظن . .

فنظرت إليه طويلا هذه المرة ، ثم قالت بصوت متهدج فيه الكثير من البكاء : والآن أظل ساهرة حتى تجىء ، لكى أسألك : لماذا هرب الابن من أمه ؟ فتقابلنى هذه المقابلة الجافة !

ـ قلت لك إننى أخطأت . . وحقيقة أنا أسأت الظن .

فأدارت وجهها بعيداً ، وقالت وهى تبكى بصوت مرتفع : وما الذى جعلك تسىء بى الظن؟

ـ صور لى الشيطان أشياء كثيرة . . ووسوس لى أيضاً بأشياء كثيرة .

فالتفتت إليه والدموع فى عينيها قائلة : ماذا صور لك ؟

فأطرق الشاب إلى الأرض ، ولم يجب . .

فقالت وهى تمد يدها إلى ذقنه مرة أخرى ، وترفع وجهه إلى وجهها : تكلم . . قل . . ماذا صور لك الشيطان ؟ . .

ـ أشياء كثيرة كلها فتنة وإغراء . . وخشيت . .

ثم زم شفتيه ولم يكمل . فقالت له بصوت لا يكاد يبين ، ويدها الممسكة بذقنه ترتعش ارتعاشاً عنيفاً : خشيت ماذا يا إمام . . قل . . تكلم . . أنا أمك . .

ــ خشيت أن . .

وزم شفتيه مرة ثالثة أو رابعة . . وقال وهو يكاد يبكي : أرجو أن تعفيني من هذا الحديث . .

فقالت ، وظل ابتسامة حلوة تتألق على شفتيها المبللتين بالدموع : أنت تسيء بي الظن إلى هذا الحد .. وأنا قلبي يحرم عليّ العشاء ، حتى تجيء ؟ !

ــ أنا سببت لك كل هذه المتاعب ؟ !

قالها الشاب في إشفاق وأسف لا حدّ لهما . . فقالت هي الأخرى في أسف مرير : وما زال العشاء أمامي لم أقربه . .

ــ أرجو لك عشاء هنيئاً إن شاء الله . .

فقالت على الفور ضاحكة في بشر : سيكون هذا إذا تناولته الأم ، مع ابنها العزيز . .

ــ أنا تعشيت ، والحمد لله . .

ــ إذن ، فلن أتعشّى أنا . .

ــ قلت لك أنا تعشيت . .

فقالت وهي تنظر إلى عينيه الجميلتين : على الأقل . . اجلس مع أمك حتى تتناول عشاءها . .

ولم تمهله حتى يجيب ، وإنما مدت يدها إليه وأنهضته ، وسارت أمامه ، وسار هو خلفها : وحانت منه التفاتة ، وجاءت منه مصادفة على الرغم منه ، فرأى ظهرها الذي يكاد يكون عارياً ، والقميص الأملس الناعم ، الذي يتماوج فوقه ويهتز ، فتماوج معه وتهتز أشياء ، فأغمض الفتى عينيه سريعاً في ألم ، كما يغمضهما الإنسان تماماً على نار تلفحه ، وراح يتمتم وهو يدلف خلفها إلى الغرفة في الليل ببعض آيات من القرآن ، ويتلو سرًّا في سرعة واضطراب : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس

فى صدور الناس . من الجنة والناس) .

ولما دخل الغرفة وفتح عينيه ، وكان قلبه قد اطمأن بعض الشىء ، لفت نظره السرير الضخم المرتفع عن الأرض ارتفاعاً كبيراً ، والدرجات الثلاث المبطنة بالقطيفة التى توصلك إليه ، ورأى الكلة الحمراء التى تشبه قبة السماء المنقلبة ، والمساند الثلاثة ذات القطيفة الخضراء والصفراء ، فقال ضاحكاً ، وكأنه يتذكر شيئاً : ما زالت هذه الأسرة باقية إلى الآن ؟

فقالت له ، وهى تنظر فى ضيق إلى الدولاب الذى ازدحمت به الغرفة بعد أن نقلته من خلف الباب : وهل رأيت سريراً مثله ؟ . .

— سرير أمى كان مثله تماماً . .

ثم عقب ضاحكاً : وكنت لا أستطيع أن أصعد إليه إلا إذا قفزت كما يقفز الحصان تماماً . .

فقالت ضاحكة : وهل كنت تنام فى أحضانها ؟ . .

فقال وهو يضحك فى سذاجة لا حد لها : وظللت أنام فى أحضانها إلى أن بعنا السرير ، والبيت أيضاً ، وانتقلنا إلى دهليز المرعشلى .

فقالت وهى تحاول أن تزحزح الدولاب من مكانه ، لتفسح الغرفة : أنت طيب القلب . .

فقال وهو يبعدها عن الدولاب ويقترب هو منه : أين تريدين وضعه ؟

فقالت وهى تشير إلى حائط آخر غير الذى به الباب الموصل للغرفتين هنا . .

فلم يفطن إلى شىء . . وقال وهو ينظر إلى ضخامة الدولاب : عليك أن تسندى فقط .

وفى أسرع مما كانت تظن ، حمل الدولاب على كتفه ، ونقله إلى المكان الذى أشارت إليه ، وراحت هى تنظر إليه وإلى عضلاته التى نفرت مرة أخرى كما نفرت وتجمدت يوم رفع بهلول من البئر ، وقالت

ضاحكة فى بشر وهى تجره من ذراعه إلى الكنبة المقابلة للسرير . والتى أمامها العشاء : أنت ضيفى الليلة . .

ثم أردفت وهى تجلسه بجوارها على الكنبة ، وترفع الغطاء عن الطعام : ستأكل معى . . أليس كذلك ؟

فنظر نظرات سريعة إلى الطعام الذى حفلت به المائدة ، وقال وهو ينظر بالذات إلى دجاجة سمينة كانت تتصاعد منها رائحة حلوة : قلت لك تعشيت .

ــ وإذا استحلفتك بأمك . .

ــ هذا يمين عزيز . .

فقالت وهى تنقل الدجاجة من مكانها ، وتضعها أمامه : إذن فأنت تعزنى حقيقة . وإذن تأكل . .

وراح الشاب فى غفلة من نفسه يلتهم الطعام التهاماً ، وراحت هى تنظر إليه فرحة فى صمت كما كانت تنظر إليه تماماً فى المطعم ، وطالت فترة الصمت بينهما حيناً ، إلى أن حانت التفاتة من الشاب إلى الباب الذى بين الغرفتين والذى كان لا يزال مفتوحاً ، فأحس بشىء من الريبة أو الخوف يعود إليه ثانية ، فأنهى طعامه سريعاً وفجأة قال لها : ولكن لماذا أتعبت نفسك ونقلت الدولاب من وراء هذا الباب ؟ ولماذا أيضاً دخلت على منه ولم تدخلى من باب الدهليز كالعادة ؟ !

فأدركت على الفور كل ما يجول بخاطره ، وقالت وهى تنهض لترفع المائدة وتعد له الشاى : أهذا الذى أغضبك ؟

ــ بل زاد من شكى . .

فقالت فى حزن وهى تحسر عن ساقيها وبعض فخذيها وتجلس القرفصاء لتتناول وابور الجاز من تحت السرير : صنعت هذا الذى صنعت ، ودخلت عليك من هذا الباب ، لأن الأيام علمتنى أن الناس لا ترى دائماً إلا الجانب الأسود فقط . .

فقال وهو يحاول أن يبعد عينيه عن تلك الساق التى انحسر عنها الثوب حتى ثنية الفخذ : أى جانب أسود فى هذا ؟

ـ لو أننى طرقت بابك فى هذا الوقت من الليل ، ورآنى حسبو ، أو أحد من الذين يعملون فى السيرجة ، فماذا كانوا يظنون ؟

فقال الشاب فى حدة تشبه الغضب : كانوا يظنون ماذا ؟ . . قاتلهم الله !

فقالت ضاحكة ، وهى تنهض ، وتجلس بجواره ، ملقية بذراعيها العاريتين على كتفه ، ووجهها لوجهه : يظنون الذى ظننته أنت تماماً . .

فقال وهو يغمض عينيه ، عن شىء ما على الصدر : أنا لم أظن شيئاً . .

فمدت إحدى ذراعيها ، وأمسكت به من أذنه ، متصنعة الغضب تنظر إليه بنصف عين : بل ظننت . .

ثم قالت وهى تعرك أذنه مستطردة : قل . لا تكذب . ظننت أم لا ؟

فتمتم ووجهه إلى الأرض : ظننت . .

فقالت وهى تمسك به من ذقنه وترفع وجهه إلى وجهها الذى التهب فجأة : ظننت ماذا ؟

فلهثت أنفاسه ، وهو يقول : قلت لك إنه الشيطان . . ومع ذلك اعتذرت إليك .

فتهدج صوتها وهى تأكل من وجهه بعينيها : أهذا الاعتذار من قلبك . .

فاضطرب وهو ينظر إلى فخذها التى تعرت بجواره ، وتمتم : من قلبى . .

ـ أتقسم ؟

ـ أجل . . أقسم . . أقسم . .

فاقتربت منه حتى لفحت أنفاسها الدافئة وجهه كله ، وقالت وكل شيء فيها يرتعش : وتقسم على شيء آخر ؟

فتمتم مرتعشاً بين ذراعيها : ما . . ما هو ؟ . .

– ألا تعود ثانية إلى هذا الظن السيء .

فقال مضطرباً ينظر إلى ذلك الشيء الذى على الصدر: أبداً . أبداً .

حتى لو أحسست إحساس الأمومة الذى أحسه الآن . . و . . وعانقتك .

– أ . . أبداً . . أ . . أبداً .

– و . . وقبلتك .

– أ . . أ . . أبداً . . أبداً .

– وأخذتك هكذا بين أحضانى ؟

وفجأة جحظت عيناه جحوظاً مخيفاً ، وتصلبت أسارير وجهه ، واكفهرت سحنته ، حتى غدت مغبرة قاتمة . فخافت وارتعدت فرائصها ، وأغمضت عينيها متراجعة تريد أن تصرخ . . أن تستغيث . . أن تهرب من بين ذراعيه . ولكنه كان قد أطبق عليها فى عنف ، كما يطبق الوحش على فريسته فى عنف ، فلم تستطع أن تهرب ، ولم تستطع أيضاً أن تستغيث ، وكل الذى فعلته أنها مدت ذراعاً مرتعشة تضطرب إلى مصباح زجاجى كان بجوارها على البريه ، ومن ثم أطفأته رويداً . . ورويداً أيضاً تسلل من الباب الذى بين الغرفتين ، والذى كان لا يزال مفتوحاً ، تسلل نور شاحب مصفر ، وتسلل مترنحاً على الأرض ، يقصر ظله حيناً ويمتد ظله حيناً آخر ، ويلتمع نوره الشاحب مرة ، ويخفت مرة أخرى ، حتى لكأنه شعاع ضئيل ينبعث من عين راهب كهل يبحث عن إنسان لم يعد . فى حين ظل السراج نفسه فى الغرفة الأخرى طوال الليل تتأرجح ذبالته فوق كتابين من كتب الفقه والدين ، حتى لفظ آخر أنفاسه ، مع الفجر !

١٨

منذ ذلك اليوم ، أو منذ هذه الليلة تغيرت أشياء كثيرة . . تغير حتى فضاء الدهليز ، وغدت ظلمته الداكنة ظلا ظليلا تستريح له العين ، وغدت وحشته المقبضة أمناً جميلا وهدوءاً محبباً ترتاح إليه النفس . وتغير أيضاً صوت السرجة الأجش الذى كان يشبه فحيح الأفاعى فى الليل ، ورائحتها الكريهة التى كانت تضيق بها النفس ، وغدا الصوت ينبعث فى الليل كاللحن الجميل ، وغدت رائحتها الكريهة كالمسك أو الطيب حتى الخوخة ومنظرها البشع ، والجنزير الضخم الذى يشبه الثعبان الكبير الفاغر فكيه ، الشاهر أنيابه ، غدا حبلا رفيعاً كأوراق الورد ، ناعماً كنسج الحرير . .

وتغير كذلك الشاب ، فلم يعد أبداً إمام بلتاجى حسنين كما كان من قبل ، أو الشيخ إمام المجاور فى الأزهر ، وإنما غدا شاباً وسيماً ، وأفنديا أنيقاً للغاية ، يرتدى البذلة الفخمة ذات اللون الجميل ، والأزرار الستة المصفوفة على الجانبين ، والطربوش الأحمر الفاقع بدل العمامة والكاكولة ، كما راح المنديل الأحمر ورباط الرقبة الذى من لونه يزينان صدره ويتألقان نوراً على الصدر ، حتى شعر رأسه الخشن الكث الذى كان لا يعرف الحلاق إلا نادراً غدا ناعماً لامعاً مصففاً تنبعث منه رائحة عطر القسيس الزكية التى تشمها على بعد أمتار .

وتغيرت غير ذلك أشياء أخرى هامة منها أو لعل أهمها وجه المعلمة شفعات نفسه . فقد غدا وجهاً جديداً تكاد لا تربطه صلة بالوجه القديم . فقد ذهبت تلك الغبرة وذلك العبوس الذى كان يكتنفه دائماً ، وغابت تلك الخطوط السوداء وتلك التجاعيد والأخاديد التى كانت قد بدأت ترتسم معالمها على الوجه ، كما زالت أيضاً تلك الدائرة الزرقاء التى كانت

تتراءى حول العين حتى لتكاد تلتف بها ، وغدا الوجه فى مجموعه مشرقاً فتاناً يقطر شباباً وبهاء ونوراً ، تزينه عينان جميلتان تشعان نوراً يشبه الابتسام ، أو ابتساماً يشبه النور ، ويتوسطه فم لا ينى يضحك دائماً ، يضحك لنفسه ، ويضحك للناس ، ويضحك أيضاً للنهار إذا أدبر ، ويضحك ويغرق فى الضحك لليل إذا أقبل ، ولا تنى أيضاً شفتاه الغليظتان الحمراوان تتلمظان وتبتسمان حتى فى النوم ، كما غدا الشعر الطويل الناعم الذى كانت تهدل خصلاته حيثما اتفق ، مرة على الظهر ، أو على الصدر ، وأخرى بين النهدين ، والذى كان لا يعرف الغسل إلا من الحين إلى الحين — غدا فاحماً ناعماً تطرحه دائماً على الكتفين العاريتين ، كما تنطرح الرقعة السوداء الناعمة على العاج ، وغدا الجبين تزينه القصة الملتفة به كما يلتف الغمام حول الفجر ليزيد من بهائه ويزيد هو من ظلمته ، وتمايل عليه — أى على الجبين — كله حبات القرنفل وخرج النجف والبلابل السبع التى انسابت على عقدة المنديل أبو أويه وتدلت مع أطرافه ومع خصلة شعر واحدة على يمين الأذن ، فيحدث صوت البلابل السبع مختلطة بصوت القبقاب المطعم بالصدف ، يحدث صوتاً أشبه ما يكون بهزيج أو وسوسة الحلى ، أو أنغام الموسيقى فى الليل تنبعث إلى أذنك من مكان بعيد .

وتغيرت غير ذلك أيضاً أشياء أخرى كثيرة ، كانت لها أهمية كبرى فى حياة بعض الناس ، لعلها زادتهم بؤساً على بؤس . أو لعلها أضفت عليهم أمناً وهدوءاً وراحة بال . فهم أنفسهم لا يعلمون ، ومن هؤلاء الناس الأستاذ حسبو القط الذى أخذت حياته تسير سيراً مرضياً إلى حد كبير — فى نظر من يراه على الأقل — فلم تعد المعلمة كما كانت من قبل ثائرة عليه دائماً ، غاضبة عليه أبداً ، تغلظ له فى القول كلما رأته ، وتعنفه تعنيفاً مراً كلما التقت به ، وتتطاول عليه باللسان وباليدين بين الحين والحين ، بل أخذت تلاطفه ، وتداعبه أحياناً ، بل تتندر معه

فى بعض الأحايين ، ولم تعد تحاسبه ذلك الحساب العسير إذا ما أخطأ فى شىء ، أو أهمل فى خدمة بهلول ، أو أساء التصرف فى أمر من أمور السيرجة ، بل أعطته الكثير من الحرية ، وأعطته أيضاً مطلق التصرف فى شئون السيرجة جميعها ، ونفضت هى يدها من هذه المتاعب ، وانصرفت إلى شأنها ، تغيب ما تشاء ، وتعود إلى البيت متى تشاء . ونتج عن هذا ، أو عن تغيبها الدائم ، ما مكن الأستاذ حسبو من مضاعفة دخله ، فجميع الأوقات التى كان يقضيها فى العمل فى السيرجة راح يقطعها فى كتابة «العرضحالات» وخطابات العشق والغرام ، مما جعله يملك القروش الكثيرة ، التى يشترى بها الخمر ، ويشتريها بكثرة ملحوظة . وبعد أن كانت الزجاجة صغيرة يتسع لها جيب بنطلونه الخلفى فقط ، أصبحت كبيرة وممتلئة بصفة دائمة ، بل أصبحت أكثر من زجاجة ، يعب منها عباً ، يعب منها كلما قام أو قعد ، ويعب منها إن غفل أو استيقظ . . ويعب منها أيضاً كلما سالت دموعه ، فقد كان من عادته إذا أغرق فى الخمر أن يبكى . . يبكى أحياناً وهو يضحك ، ويبكى أحياناً وهو يبتسم . . ويبكى أحياناً أخرى إذا ابتهج وأرسل صوته الأجش مغنياً ومردداً مواله الحبيب إلى نفسه :

سبع سواقى بتنعى لم طفوا لى نار
يا منية القلب قول لى إزاى عشق الجار
يبقى النظار فى النظر والقلب قايد نار

* * *

ولا يدرى ، ولا يدرى أحد أيضاً ، لماذا كان يردد هذا الموال دائماً وترتفع به عقيرته كلما أغرق فى الخمر ، وكلما رأى بعينيه المحمرتين المقرحتين اللتين كانتا تبدوان من خلف منظاره الزجاجى الملوث أشبه بقطعتين من القطن منغمستين فى الدماء شبح إمام مقبلا على الزقاق ، أو خارجاً منه ، يتيه فى حلته الأنيقة ورباط رقبته الفاقع وشعره المصفف

الذى تنبعث منه رائحة عطر القسيس ، فيحس الشاب بشىء من الخجل فيسرع الخطو أو يخففه . فإذا التقى به وجهاً لوجه ، واضطر الشاب إلى مصافحته ، قال له حسبو — وهو يتمايل من الخمر ضاحكاً — جملته التقليدية التى لا يغيرها كلما التقى به أو تحدث إليه فى أيامه الأخيرة : أين أراضيك ؟ !

— فى المدرسة .

— قواك الله . .

ثم يتركه وينصرف يتمايل مخموراً وهو يضحك كعادته ، وتسيل الدموع من عينيه كعادته أيضاً كلما أغرق فى الضحك . ويظل يسير حتى يبلغ نهاية الزقاق ، ويهبط على مهل متحسساً بيديه الواهنتين سلالم السبيل حتى يبلغ نهايتها . ثم يسير بضع خطوات حتى يبلغ « خمارة كرياكو » ، وهى ما زالت قائمة إلى الآن فى ميدان باب الخلق . ويقف بجوار البرميل فإذا يده المرتعشة بالزجاجة الفارغة والقروش الثلاثة يقف إلى كرياكو وهو يقول ضاحكاً : السولار . .

وتغير ضمن ما تغير أيضاً أشياء أخرى ذات بال . . أشياء رقيقة ناعمة ، ذات أحاسيس ومشاعر وقلب ينبض بالحياة وآمال عراض تكاد تبلغ العمر ، وتمتد إلى الدنيا والحياة ، تغيرت هى الأخرى ، أو لعلها تأثرت على الرغم من بعدها البعيد عن كل شىء . . تغير وجه صبوح كان أشبه بالقمر الوليد يقطر ضياء وطهراً ، فإذا الغمام الداكن يكتنفه ويغرقه فى لجة من السواد . وتغير فم رقيق رقة الورد كان لا يكف دائماً عن الافترار والابتسام لكل شىء كما تبتسم الأقحوانة لكل شىء ، لسكون الليل . . وقطرات الندى . . وطلعة الفجر . . . وطلعة الصبح وإشراقة النور . . تغيرت وجفت واصفرت كما تصفر ورود الصيف وتجف أوراق الشجر . ولولا رعشة تكتنف الشفتين من حين إلى حين ، لظننتهما أى شىء غير أنهما شفتان شهيتان لثغر جميل . وتغيرت أيضاً عيون

ومحاجر وأهداب ذات ظلال كانت تبعث السحر وترسل النور ، فغدت معتمة مظلمة تبعث الوحشة وترسل السواد . وحدث هذا كله من يوم أن انقطع الأستاذ عن تلميذته ، أو المدرس عن دروسه بلا مقدمات .

لقد انتظرت التلميذة أستاذها فى اليوم الثانى ولكنه لم يعد . وهو لم يعد أيضاً منذ أيام، بل منذ أسابيع وشهور . وهى قد ظنته فى أول الأمر مريضاً أو أصيب بسوء ، وظنته كذلك الست صبرية . وظنه كذلك أيضاً الأستاذ الشرنوبى ، وازداد قلقه عليه . فذهب إليه فى المدرسة ، وهى المكان الذى يعرفه . حقيقة لم يجده ، وحقيقة أيضاً أنه لا يذهب إلى المدرسة بانتظام ، وحقيقة ثالثة أنه بخير ، وأنه لم يصب بسوء . وترك له خبراً يرجوه فيه بأن يزوره فى البيت وأنه فى انتظاره من وقت إلى آخر . وحقيقة رابعة أن هذا الرجاء قد بلغه ، ولكنه لم يعمل به . وبذلك قام الأستاذ الشرنوبى بكل ما يجب أن يقوم به رجل طيب . يهمه أمر إنسان يعزه . أما أن ذلك الإنسان لم يستجب إلى الرجاء ، ولم يعمل بما يجب أن يعامل به الأهل والأصدقاء ، فهذا شأنه هو ، وليس للأستاذ الشرنوبى أو أسرته دخل فيه . ولكن هذا القلب . . هذا القلب الطفل الأخرس الذى لا يعرف النطق ، هل ينسى الإنسان الذى أنطقه بأول حرف من أحرف الكلام ، وألهب أحاسيسه كما تتحرك شفاه الطفل وتنطق بأول لفظ فى الحياة ؟ هل ينسى هذا ؟ هل ينسى حياته ؟ هل ينسى دنياه ؟ هل ينسى وجوده كله ؟ ! وأخيراً هل ينسى القلب . . القلب الذى عاد فأصيب بالخرس سبع سنوات ، ثم عاد فجأة إلى النطق ليلة أن عاد إليه الذى أنطقه أول مرة ؟ هل ينسى ذلك ؟ وهل من الممكن نسيانه ؟ هل فى طوق بشر أن ينساه ؟

ولاحظت الست صبرية هذا كله ، وأحست به إحساساً عميقاً أقلقها ، وأشفقت على ابنتها الوحيدة من هذا الضنى الذى تعيش فيه ، والذى شقيت به هى أيضاً لا بحسبانها الأم فقط ، ولكن بحسبانها أيضاً

امرأة تعرف كيف تحس قلوب النساء وتشعر وتتعذب بالحب الأول . ولذلك اختلست من وقتها ساعة من الزمن ، كما هربت من الناس جميعاً حتى ابنتها وزوجها ، وذهبت فيها إلى الكلية لمقابلة الشاب . وكم لاقت السيدة المحافظة الخجول التى لم تتعود الخروج من البيت ، من صعاب ومشاق ومتاعب فى السؤال والاستقصاء ، ومعرفة الطريق الموصل إلى المعهد ، وركوب الترام وزحام الناس إلى أن بلغت المعهد ووقفت على بابه تنتظره خجلة مرتبكة يكاد يوقعها الخجل والارتباك فى شر ما تقع فيه سيدة مثلها ، إلى أن جاء إمام مقبلا من بعيد ، فأنكرته ، ولم تتعرف عليه أول الأمر ، حتى إنه عندما أقبل عليها أدارت وجهها خجلا من هذا الأفندى الوسيم الرقيق الذى يسير فى دلال ، ولولا أنه مد يده لمصافحتها لظلت فى مكانها تنتظر الشيخ إمام بلتاجى حسنين الذى جاءت من أجله وطلبت مقابلته .

ولذلك كانت دهشتها بالغة عندما صافحها وحياها ، فلم ترد عليه التحية ، بل لم تسحب يدها من يده من فرط المفاجأة التى أذهلتها ، وراحت تنظر إليه وتتفحصه جيداً . الحلة الأنيقة التى يرتديها ، والقميص الحرير الذى تزينه ربطة العنق الحمراء ، والشعر المصفف الذى يتضوع مسكاً من تحت الطربوش الأحمر الذى مال زره الأسود على مؤخرة الأذن .

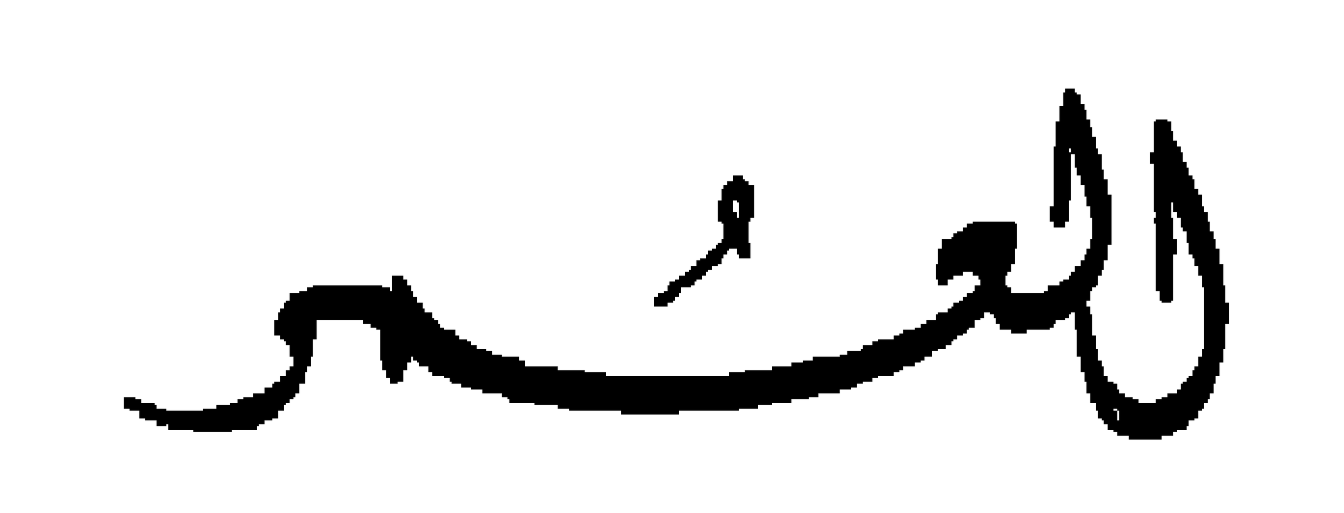
وبعد فترة صمت طويلة قضاها الشاب ناظراً إلى الأرض فى ارتباك شديد ، راحت تتحدث معه حديثاً طويلا ، انتهى بأنها تركته وانصرفت غير مؤمنة بكلمة واحدة مما قاله لها . لا بالمرض الطويل الذى أقعده عن زيارتهم وعن مواصلة الدروس للفتاة ، ولا بقصة خاله الذى مات وورثت أمه ماله ، الذى مكنه من أن يعيش ميسوراً ويرتدى الزى الإفرنجى ، ويتحلى بالذهب الخالص ، الساعة الثمينة التى تزين سلسلتها صدره ، والخاتم الغالى الذى يتألق فى يده ، وأزرار قميصه الذهبية

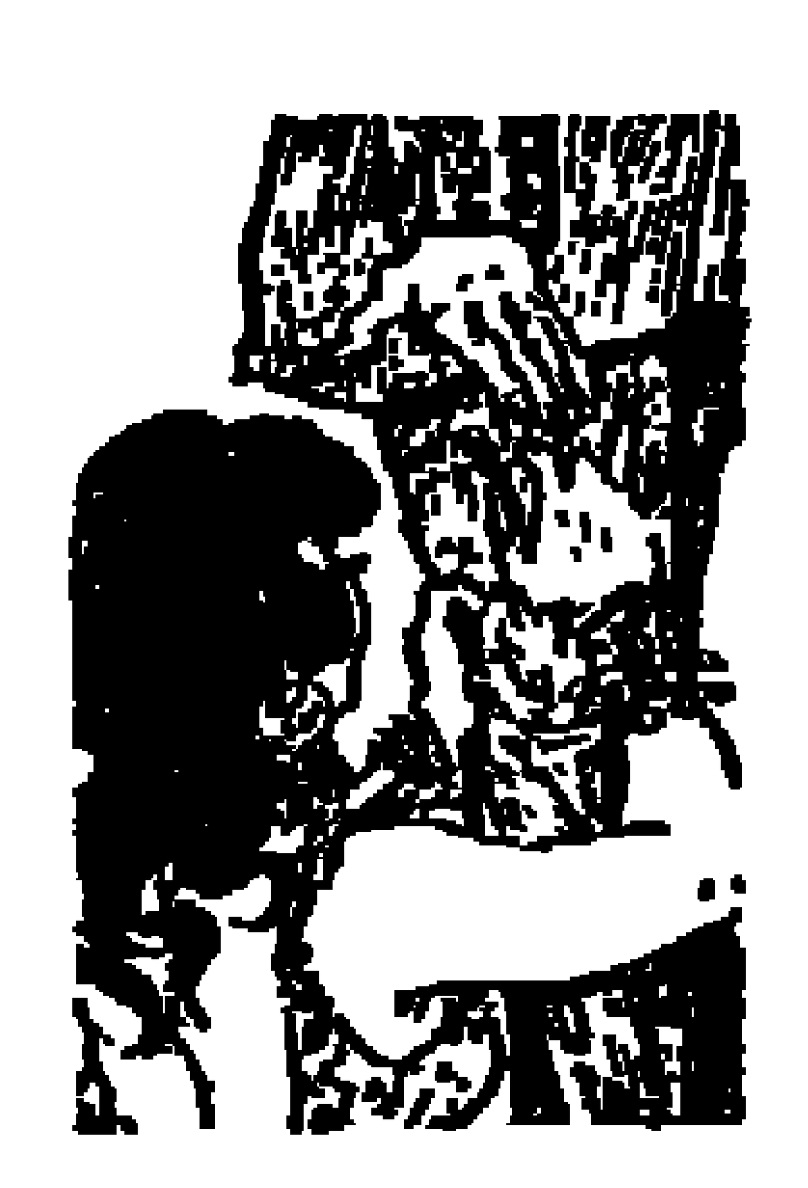
ذات السلاسل الدقيقة اللامعة . لم تصدق شيئاً من هذا كله ، ولا الوعد الذى قطعه على نفسه بزيارتهم الليلة أو غداً، واستئناف الدروس من جديد للفتاة .

وكما خرجت الست صبرية من البيت صباحاً صامتة لا يعرف أحد وجهتها ، عادت إليه ظهراً صامتة أيضاً لا يعرف أحد أين كانت ؟ بيد أن الصمت أحياناً لغة تفهمها القلوب التى شفها الحزن، وصهرها الألم . وقد فهمت الفتاة كل شيء ، وكأنها كانت فى صحبة أمها لزيارة الشاب ، ورأته رؤية العين ، وسمعت حديثه كله . ولذلك حاولت ما استطاعت فى ذلك اليوم أن تتجنب أمها حتى تتجنب حديثاً عرفته من ألفه إلى يائه . كما حاولت أن تكون أكثر مرحاً وضحكاً وابتساماً لعلها بذلك تستطيع أن ترسل بصيصاً من نور يزيل بعض السواد الذى يكتنف وجه الأم . وقد نجحت الفتاة فى هذه الرواية المرحة التى نقلتها ، وفصول الضحك والابتسام والمناغاة التى لعبتها ، مما خفف كثيراً عن قلب الأم ، وأعاد إليها وإلى البيت بعض الأمن والهدوء وبعض الاطمئنان وراحة البال .

وظلت الفتاة كذلك إلى أن جاء الليل ودخلت حجرتها ، بيد أنها لم تكد تغلق الباب خلفها حتى نزعت ثياب التمثيل التى ارتدتها طوال اليوم . فعاد القلب إلى وجيبه ، والثغر إلى ارتعاشه ، واللحظ إلى رجفته واضطرابه ، فصعدت إلى الفراش لاهثة مغمضة العين ، وألقت بجسدها الذى حطته فى ثياب النوم على الفراش فى غير انسجام . حتى ذلك النور الذى كان يرسل شعاعه الهادئ فى الظلام وهى نائمة إذا ما انحسر الغطاء عن فخذ أو انشق الثوب عن صدر تلاشى نوره ، وذهب ضياؤه، وإن كان قد بقى أصله يذكرك به ، تماماً كالمصباح الجميل المنطفئ الذى تراه عيناك ، فتكاد ترى معه النور الذى كان يرسله والذى كان يشعه ! . . وظلت الفتاة كذلك منطفئة مظلمة معتمة الروح والجسد ،

نائمة كاليقظى ، ويقظى كالنائمة ، إلى أن انقضى الليل برغم طوله المرير ، لأنه كان لا بد له أن ينقضى ، ونهضت من فراشها مبكرة كما تعودت أن تنهض مبكرة ، وحاولت أن ترتدى ثياب التمثيل مرة أخرى . ولكنها لم تقدر ، فارتدت ثياب المدرسة بدلا عنها ، وراحت ترتب حقيبتها المدرسية ، وتضع فيها ما تحتاج إليه من كتب وكراريس وأقلام . فوقعت عيناها على كراسة معينة بالذات ، كراسة بيضاء خالصة البياض لم يكتب فيها سوى جملة واحدة فقط . حاولت أن تقرأها ولكنها لم تقدر . ولما أعادت إليها النظر واستطاعت أن تقرأها لم تعرف لها معنى ، ذلك لأن دمعة من تلك الدموع التى كانت تقطر من عينيها سقطت على لفظ معين من الجملة فطمسته وطمست معه المعنى كله . . وإلا ما معنى « احتفظ . . بذكرياته » ؟ ولكن لماذا تقطر هذه الدموع على هذا اللفظ بالذات . على الاسم دون سواه ؟ ألأن صاحبه مات ؟ وهل من الحتم علينا أن نشيع أمواتنا بهذه الدموع ؟ ولكن هل يموت الناس وهم أحياء ؟ وهل هكذا تكون دموعنا على الذين يموتون وهم أحياء ، أشد حرقة ، وأشد مرارة ، وأشد لوعة . . وأشد أيضاً ناراً ، من تلك الدموع التى نشيع بها الذين يودعون الحياة . الذين يموتون موتاً حقيقياً ؟!





١٩

كان لا بد أن يحدث شيء ما . هذا ما كان يؤكده بينه وبين نفسه أكثر من واحد فى الزقاق وفى الحارة . ويؤكده أيضاً حسبو بينه وبين نفسه كلما رأى المعلمة فرحة مرحة تتيه فتنة وإشراقاً ، وتتضوع شباباً وجمالا ، كما تتضوع الزهرة اليانعة ، وترسل أريجها العبق فى الخمائل . . ويؤكده أيضاً بينه وبين نفسه كلما رأى الشاب يرتدى حلة أنيقة فى النهار وأخرى أكثر أناقة فى الليل ورآه يروح ويجيء فى الزقاق كما يروح ويجيء الطاووس مزهوًّا بوسامته، فخوراً بالألوان المتعددة البراقة التى حباه بها الله . . ويؤكده أيضاً بينه وبين نفسه كلما فرغت الزجاجة وراح مترنحاً يجر ساقيه جرًّا فى الظلام ، وهو يهبط سلالم السبيل فى طريقه إلى« كرياكو » ليأتى بزجاجة أخرى من الخمر .

وتؤكده كذلك المعلمة شفعات نفسها ، وتكاد تؤمن به كلما استشعرت النعيم الذى تعيش فيه ، وأحست الهناءة التى تفيض عليها ، وأظلتها شجرة اللذة التى تتفيأ ظلالها . كانت تؤكده دائماً وتؤمن به كلما أغرقتها لحظات هذه اللذة .

كانت تحس إحساساً غريباً ، كلما نهلت من هذا السلسبيل الذى يغرق الجسد ويفيض على القلب وتنتشى له الروح . أحست أنها أشبه بمتسول كان يطمع فى قرش ، فإذا بك تتصدق عليه بآلاف الجنيهات . حقيقة أن هذه الصدقة أصبحت ملكاً له ، وحقيقة أنه ينعم بها ويعيش فى خيرها ، ولكن هل حقيقة أن متصدقاً يتصدق بكل هذا النعيم ؟ ! كان هذا هو إحساسها ، وكان هذا هو الذى يسبب لها القلق أيضاً ويجعلها تؤكد بينها وبين نفسها أن شيئاً ما لا بد أن يحدث .

ولكن ما هذا الشيء ؟ إن أحداً من هؤلاء جميعاً لا يعرفه . لا الأستاذ

حسبو ، ولا المعلمة شفعات ، ولا إمام أفندى ، أو الأستاذ إمام كما كان ينادى ، ولا حتى الست صبرية أو ابنتها ، لأن واحداً من هؤلاء جميعاً — ولا حتى الشاب نفسه — كان يظن أو يقدر أن مجرد زيارة الست صبرية للشاب فى المعهد سوف تترتب عليها هذه الأحداث الجسام ، فقد حدث أن طالباً خبيثاً كان على صلة بإمام ومعه فى فصل واحد ، ويعرف عنه كل شىء . كان هذا الطالب يجلس فى مكانه فى الفصل ، فحانت منه نظرة عابرة إلى النافذة المطلة على الباب ، فرأى الست صبرية وهى تتحدث إلى الشاب ، فظنها تلك المرأة التى تعيش فى حياة الشاب ، فأشار إلى الطلاب جميعاً ، وعندما عاد إمام مختالا كالطاووس يقطع فناء المدرسة يتيه عجباً بألوان ثيابه انفجر الطلاب فى قلب الفصل يضحكون ضحكات عالية .

ضج الفصل جميعاً بالضحك المدوى والقهقهة العالية ، حتى الأستاذ. واحد فقط هو الذى لم يضحك . هذا هو إمام الذى ظل يتصبب عرقاً وخزياً فى مكانه لا يتحرك ، إلى أن انتهت الحصة . وانتهى الدرس ، واليوم أيضا ، وراح يسير فى الطريق ساهما واجما مطأطئ مرأس ينظر إلى الأرض التى يسير عليها وكأنه يبحث عن شىء عند قدميه .

وظل يسير مغمض العينين لايفتحهما إلا على اضطراب شديد ، فكلما سمع أحداً يضحك فى الطريق ، ظن أنه يضحك منه ويسخر به كما ضحك الطلبة وسخروا هذا اليوم ، كما ضحك الأستاذ أيضاً حتى كاد يستلقى هو الآخر . ولكن لماذا كانوا يضحكون جميعاً هكذا ؟ ألأنهم جميعاً كانوا يعرفون ؟ إذن هم جميعاً يعرفون أن هناك امرأة فى حياته . . امرأة تنفق عليه . وأن هذه الثياب الأنيقة التى يرتديها ، وهذه الحياة الرغدة التى يعيشها ، إنما هى من صنع امرأة — امرأة . . . . . . وأغمض عينيه وثقلت قدمه على الأرض حتى غدا لا يستطيع أن ينقلها إلا بجهد . . وهل الطلاب والأساتذة هم الذين يعرفون ؟ ! والحارة . .

والزقاق . . ونظرات النسوة التى كانت توجه إليه ، وأطفال الزقاق الذين كانوا يتفرجون عليه عندما انقلب أفنديا ، وكانوا ينادونه أحياناً بيا «خواجه» والأستاذ حسبو الذى كلما رآه مقبلا ، أو مدبراً ، أغمض عينه وأخرج الزجاجة من جيبه وأفرغ فى جوفه جرعات . ماذا يقول عنه هؤلاء جميعاً ؟ بل ماذا قالت عنه الست صبرية عندما التقى بها هذا اللقاء العابر الفاتر ، ورأته هكذا كالطاووس يختال مصفف الشعر مزركش الثياب التى اختلفت ألوانها ؟ ماذا قالت عنه ؟ وماذا قالت لسلوى عنه ؟ وسلوى . . سلوى !

وأغمض عينيه ، وظل يسير إلى أن بلغ الزقاق . وحانت منه التفاتة وهو يدلف إلى الدهليز فرأى بهلول وهو يدور فى السيرجة مغمض العينين يجر خلفه ذلك الحجر الثقيل الضخم ، وكأنه يجر أثقال الحياة ومتاعب الدنيا ! وراح يتأمله طويلا . . ولا يدرى الشاب لماذا كانت هذه الوقفة الطويلة ، وهذا التأمل الطويل أيضاً . إن هذا الحمار يدور هكذا ليل نهار فى هذه الغرفة المسماة بالسيرجة ، وهو مغمض العينين لكى لا يرى هذا الثقل الذى يجره ، لأنه إن رآه ، إن رأى هذا الحجر الضخم فسوف لا يجره ، وسوف يمتنع عن الدوران . ولا بد أن حميراً غيره رأت هذا الحجر الضخم فامتنعت عن جره . وإلا لما اخترع هذا الغماء الذى يوضع على العينين فيجعل صاحبه يظن أنه يسير فى طريق سهلة معبدة كما تسير بقية الحمير . ولعله من هذا الاختراع الذى روضت به الخيل والبغال والحمير ، اخترعت تلك الأغطية التى توضع على عيون بعض الناس لكى لا يروا تلك الأثقال التى يجرونها خلفهم ، وإلا كانوا امتنعوا هم أيضاً كما امتنعت البغال والحمير ! ولكن هل يقدر هذا الحمار على أن يقضى العمر هكذا يجر هذا الحجر الثقيل . وحانت منه التفاتة إلى ركن من أركان السيرجة فرأى كمية وافرة من شعير الحنطة والفول والكسب أعدت لطعام الحمار . إنهم يطعمونه بكثرة ، ويغدقون عليه كل هذه

الخيرات لكى تكون له القدرة على الدوران . إذن هو يطعم ويشرب ، ويعنى به لا لشيء إلا لكى تكون له المقدرة على أن يجر خلفه هذا الحجر الكبير!

ومد الشاب يده وفتح باب غرفته ، فطالعته على الطاولة الكبيرة أشياء فوقها غطاء أبيض نظيف ، فمد يده وكشف عنها الغطاء فإذا بها عدة ألوان متباينة من الطعام الشهى أعدته له شفعات التى اضطرت إلى الخروج قبل أن يجيء .

ونظر الشاب إلى ألوان الطعام المتعددة ، وتأمل أوراك الدجاج وشرائح اللحم ، وراح يتفرس فى هذا كله ويتأمله . وكلما نقل عينه من صنف عاد إليه مرة أخرى وراح يتفرس فيه ويتأمله . ثم بعد أن استوعبه جيداً تمتم وهو يدير وجهه بعيداً عنه : تماماً . . نفس الشيء . . الشعير . . والحنطة . . والفول . . والكسب . .

وجلس الشاب على المقعد — بين السرير والمائدة — جلس صامتاً واضعاً خده على يده بدون أن ينبس أو حتى يتنفس ، أشبه ما يكون بآلة صماء . وجلس كذلك طويلا جداً إلى أن سمع نقراً على الباب ، فاعترته رجفة ، هزت كيانه كله ، كتلك الرجفة التى هزت كيانه ، عندما دوى ضحك الطلبة فى الفصل . وقبل أن ينطق ، أو يقول شيئاً ؛ رأى أمامه الأستاذ حسبو يتمايل بزجاجتين فى يده ، إحداهما فارغة ، وهو يضحك ضحكاً متصلا ، وقد وضع طربوشه فوق أرنبة أنفه التى برزت عظمتها ، كما تبرز قطعة الحديد الصدئة من الأرض . وترك صدريته مفتوحة تظهر قميصه البالى الممزق ، وعظام صدره البارزة منه . ووقف أمامه أشبه ما يكون بمسخ فى سيرك ، يريد أن يلعب شيئاً يضحك به الناس . ونظر إليه الشاب ، ونهض ماداً يده إليه ليصافحه ، ولكن حسبو لم يلتفت إليه ، ولم يصافحه ، وإنما نظر إلى المائدة الحافلة بالطعام الشهى وهو يضحك ويقول مغرقاً فى الضحك : كل . . لماذا لا تأكل ؟.

فصمت الشاب ولم يجب ، فصاح حسبو ضاحكاً وهو يمد يده إلى صدر حمامة محشوة ، ويشير إلى الزجاجة التي فى يده : كما أن هذا (الجاز الوسخ) لا غنى لى عنه لكى أنقل قدمى ، فكذلك هذا الحمام ، لا غنى لك عنه لكى تستذكر دروسك جيداً .

فأطرق الشاب مغمض العينين وكأنه يغمضهما على نار تتلظى ، وظل كذلك إلى أن قال حسبو ضاحكاً فى ابتهاج وهو يجلس بجوار الحائط : أعرف أننى استضفتك يوماً على نصف رطل من السمك المقلو ، ولكنى لم أعرف بأنك هكذا سريعاً ستردها لى حماماً ولحماً طازجاً له هذه الرائحة الزكية .

فلم يجب الشاب أيضاً ، وظل فى إطراقته مغمض العينين إلى أن قال حسبو وهو يأكل : منذ أيام ، وأسابيع . . لم أرك إلا أمس . . فأين كنت ؟

فاضطرب الشاب وارتبك ارتباكاً شديداً . وقال وهو يرفع إليه طرفه المخضل : المدرسة ، والدروس ، والمذاكرة .

فقال حسبو بعد أن ابتلع شيئاً كان فى فمه وهو يضحك : أعرف أنها أشياء متعبة ، متعبة جداً . . أنا أيضاً ذقت الأمرين من هذه المذاكرة .

فأدرك الشاب ما تنطوى عليه عباراته من تهكم لاذع وقال : وغير ذلك ، فقد اشتقت إلى أمى ، فذهبت لزيارتها فى القرية .

فقال حسبو وهو يحشو فمه بشىء : وكيف صحتها ؟

— بخير . .

— لعلها شفيت من المرض الذى حدثتنى عنه .

— الحمد لله .

فضحك حسبو مرة أخرى وقال : كيف حال القرية ومن فيها ؟

— كلهم بخير . الحمد لله .

وكان حسبو قد فرغ من طعامه ، ومسح أصابعه بورقة كانت أمامه . ثم قال وهو ينظف تلك الأصابع فى أطراف ثيابه الرثة ، ويخرج من بين ثنايا هذه الثياب ، رسالة قدمها إليه : هذه رسالة من أمك تقول لك فيها إنها تشرف على الموت ، وإنها أرسلت إليك عدة رسائل فلم ترد عليها بواحدة .

فارتعشت يده وجحظت عيناه وهو يتناول منه الرسالة ، وما إن قرأها حتى انكفأ على حافة السرير الذى يجلس بجانبه وانفجر باكياً . وراح حسبو ينظر إليه وهو يبكي ، فيضحك حيناً ويبتسم آخر ، وكلما أمعن الشاب فى بكائه ونحيبه ، أمعن حسبو فى ضحكه وابتسامه . وظل كذلك إلى أن قال له وهو يفرغ شيئاً من الزجاجة فى جوفه : لا تبك ، نفس الشيء الذى ألهاك عن أمك ، هو نفسه الذى ألهانى عن أولادى .

فعقدت الدهشة لسان الشاب ، وهو ينظر إليه ويقول : ألك أولاد ؟

فاستلقى الأستاذ حسبو ضاحكاً ، وظل يضحك بصوت عال ، ولما فرغ من ضحكه وأراد أن يقول شيئاً ، اغرورقت عيناه فجأة وانفرطت منها الدموع بغزارة ، وسالت على وجهه المغضن ولحيته المغبرة . وكانت أول مرة يرى فيها الشاب الأستاذ حسبو يبكى ، فانتقل إلى جواره ، وقال له وكأنه لا يصدق ما يرى . : أتبكى ؟

فمسح الأستاذ حسبو شفتيه المبللتين ، ونظر إلى الشاب بعينيه المنغمستين فى الدم وقال : إنى أشفق عليك يا بنى .

فأطرق الشاب إلى الأرض وهو يتمتم بصوت خفيض : أعرف . أعرف كل ما تريد أن تقول .

ــ لا . لا . أنت لا تعرف شيئاً .

فأشاح الشاب عنه مزوراً ، وأدار له كتفه وهو يقول وينظر إلى الأرض : قلت لك أعرف أكثر مما ستقول .

فابتسم حسبو وهو يخرج شيئاً من جيبه ويرى الشاب إياه وهو

يربت على كتفه فى حنان كحنان الأب تماماً : أتعرف صاحب هذه الصورة ؟

فتأمل الشاب صورة جميلة لرجل وقور وسيم مكتمل الرجولة يزين صدره وشاح أحمر يتوسطه هلال ذهبي وثلاث نجوم لامعة . تماماً كذلك الوشاح الذى يزين صدر القاضى وهو جالس فى كرسى القضاء . تأمل الشاب الصورة طويلا ، ثم قال وهو ما زال ينظر إليها : صورة من هذه ؟

ــ ألم أقل لك إنك لا تعرف شيئاً .

ثم نظر حسبو إلى الصورة وابتسم ، وهو يتناول الزجاجة ويفرغ منها شيئاً فى جوفه ، ويقول : أتصدق لو قلت لك إنها صورتى ؟

ففغر الشاب فاه وقال فيما يشبه الذهول : صورتك أنت ؟ !

فقال حسبو وهو يضحك ويعيد الصورة إلى جيبه : وغداً أيضاً سترى الناس صورتك فلا تصدق .

ــ أكنت قاضياً ؟

ــ كاتب أول محكمة « . . . . » .

ــ وما الذى حدث ؟ . .

ــ الذى حدث لك نفسه . . امرأة .

ــ امرأة ؟ !

ــ امرأة لا نظير لها بين النساء .

ــ من هى ؟

ــ كانت لها قضية ، وكانت تتردد علىّ فى المحكمة ، فحدث أن انتهت قضيتها ، وبدأت قضيتى أنا .

ــ أى قضية ؟

ــ قضية الحب .

ــ أحببتها ؟

ــ وما زلت !



فقال الشاب وهو ما زال ينظر إليه فاغراً فاه : قل . . كيف حدث هذا ؟

– نفس الذى يحدث فى قضايا النساء جميعاً . . أحيلت الأوراق إلى المفتى ، فأعدمت أنا ، وبرئت هى .

ونظر إلى حسبو ، فلم يدهش ، وإنما أغمض عينيه حيناً فقد أحس أن تلك الضحكات المدوية من حوله فى الفصل تغرس فى قلبه . وظل كذلك إلى أن استعاد قواه وفتح عينيه وتذكر الحديث فقال : وما زالت هى تعيش ؟

– وتبحث عن آخر لتقدم أوراقه إلى المفتى .

ثم عقب وهو ينظر إليه ويرفع الزجاجة إلى ثغره ويضحك : وأغلب الظن أنها وجدته .

فقال الشاب : أنا لا أفهم شيئاً مما تقول . .

فقال حسبو وهو ما يزال يضحك : والله ولا أنا .

فقال الشاب على الفور : ما هذا الذى تقول ؟ إنك تهذى ! كيف أفقدتك تلك المرأة حياتك ؟ أين وظيفتك ؟ وأين أولادك ؟ وأين أسرتك ؟

ثم نظر إلى لحيته الملوثة ، وثيابه الرثة ، وأصابع قدميه التى برزت حالكة السواد من أطراف حذائه الذى رتقت بعض جوانبه ، وترك بعضها الآخر . . نظر الشاب إلى كل هذا وقال : ثم أين أنت ؟ !

فقال حسبو بصوت كأنه يبعث من قبر : ألم أقل لك بأنه مات .

فأمسك الشاب بكتفى حسبو وراح يهزه هزًّا عنيفاً وهو يصرخ فى وجهه : قل . تكلم . قص كل شىء إننى أحس بأننى سأموت أنا أيضاً .

فقال حسبو وهو يضحك : اطمئن . اطمئن جدًّا . سوف لا تموت إلا بعد أن يموت شبابك أولا .

ثم قهقه وهو يدق الأرض بقدميه كطفل يلهو : ما دام لك هذا الشباب الفتى ، وهذا النور الذى ينبثق من عينيك ، فلك هذا النعيم

كله . لك هذا الحرير الذى ترتديه . . هذا المال الذى تملكه . . هذه المائدة الحافلة . . هذه العليقة التى تعينك على السير إلى نصف الطريق فقط وليس الطريق كله . . أتفهم . . أتفهم . . فقال الشاب وهو يكاد يبكى : أنا لا أفهم حرفاً مما تقول ، ولا أعرف شيئاً من هذه الألغاز .

فأغمض حسبو عينيه حيناً ، ثم عاد ففتحهما على شىء من الدموع وكأنه يخاطب شخصاً آخر لا وجود له : وأنا كذلك كنت مثلك أجهل أشياء كثيرة ، ولا أعرف شيئاً عن حقائق كثيرة ، مثلا كنت أجهل أن للرجل شباباً ، واحداً ، أما المرأة فلها شبابان ، وأن من سوء حظ الرجل الذى فى سنها أن يموت شبابه فى الليلة التى يولد فيها شبابها الثانى . . وكنت أجهل أن هذا المولود الثانى ، إنما يجىء متكاملا بالغ النمو فيه قسوة الحيوان المفترس ، وتطيّر الجواد الجامح الذى لا يصده أو يكبح جماحه إلا (أجير) قوى متين ، شديد البأس ، مثلك تماماً .

ــ ماذا تقول ؟

ــ لا تتكلم . قلت لك إنى كنت مثلك أجهل أشياء كثيرة ، ولا أعرف أيضاً أشياء كثيرة . مثلا كنت لا أعرف أن الإشفاق إنما هو بوادر الحب ، تماماً كما أن ارتفاع درجة الحرارة هى بوادر الحمى . . كنت لا أعرف ذلك ، ولو عرفته لما أشفقت على هذه المرأة التى جاءتنى تبكى والتى ساعدتها بكل ما أملك من وسائل شريفة فى أول الأمر ، وظللت أساعدها ، إلى أن ربحت هى قضيتها ، وخسرت أنا حياتى .

وعاد فأغمض عينيه وأطبق شفتيه وظل كذلك إلى أن قال الشاب : كيف خسرت حياتك ؟ . . قل . . تكلم .

فقال وهو مغمض العينين : سقطت فجأة مريضاً بأخبث أنواع الحمى ، التى لا يعيش ميكروبها إلا فى الدم . . فى القلب . . فى الكبد . . فى الرئة !

— أى مرض هذا ؟

— يسمونه الحب !

قال ذلك وزفر زفرة حارة . ثم استطرد وهو يبتسم : وكان لا بد لى أن أشفى ، أن أعيش ، لأنه ما من أحد يريد أن يموت . . وكان الدواء غالياً جداً . . وواحد . . واحد فقط هو الذى كان يبيعه ، ولكنه لا يعرف الرحمة ، فمددت يدى إلى السلفة من الناس كما هى العادة ، وأول المطر قطرة كما يقولون . استلفت من كل الناس حتى من عم أحمد فراش المحكمة ، حتى من القاضى . كل واحد كنت أروى له رواية تختلف عن الأخرى . مرة زوجتى فى المستشفى . . ومرة ابنى مريض . . وأخرى مصاريف المدارس ، ومع ذلك لم أشف ، وعجزت عن الاثنين . . عجزت عن الشفاء ، وعجزت عن سداد الدين ، وكان لا بد . .

وزم شفتيه فجأة وأغمض عينيه سريعاً كمن يستشعر ألماً . . وظل لحظات وكأنه يتوجع إلى أن تمتم بصوته الذى يشبه الأنين : كان لا بد أن أمد يدى إلى شىء آخر .

فمددتها إلى نفسى هذه المرة . . إلى حياتى . . إلى مستقبلى . . مددتها إلى الخزانة . . زورت أختاماً . . وزورت شيكات ، ورسوم قضايا . ومرتبات موظفين ١٥ ألف جنيه صرفتها على هذا الداء الخبيث ، هذا السرطان الذى فى الدم .

وكان الشاب قد استعاد بعض قواه . . فقال له : بتقول كم ؟

— ١٥ ألف جنيه .

— وبعد .

— ١٥ سنة سجن .

فاضطربت أنفاس الشاب وهو ينظر إليه ذاهلا : أنت سجنت ١٥ سنة .

— من يناير سنة ١٩٠٧ إلى يناير سنة ١٩٢٢ .

ــ وبيتك ، وزوجتك ، وأولادك .

ــ كانوا أطفالا ، لا يزيد عمر كبيرهم على أربع سنوات . . فلما كبروا ، وسألوا عن أبيهم . . قالت لهم أمهم إنه مات . وحسناً فعلت . وقبل أن أخرج بسنتين ماتت هي . . ولما خرجت وعرفت أنهم كبروا ، وفيهم من تزوج ، وأنهم سعداء . . بعدت عنهم . كان لا بد لى أن أفعل ذلك . كنت لا أستطيع أن أخرج عليهم من السجن . وعصر المعجزات انتهى فلا أستطيع أن أخرج عليهم من القبر .

ــ وهل تعرفهم الآن ؟

ــ وهل تجهل العين نورها ؟ !

ــ وكيف تراهم ؟

ــ عرفت أنهم فى كل عيد يذهبون إلى القرافة ويقرءون الفاتحة على روح أبيهم . فأذهب أنا إلى هناك وأقف من بعيد أنظر إليهم وأقرأ معهم الفاتحة على روحه .

قال ذلك وهو يضع يده على كتف الشاب مبتسماً يربت عليها وهو يقول ضاحكاً : ألم أقل لك إنه مات .

فنظر إليه الشاب طويلا ، ثم قال بدون أن يدرك شيئاً : ألا تزال تحبها ؟

ــ لأنى ما زلت مريضاً .

فتأثر الشاب إلى حد كبير . وقال وهو ينظر إليه : ألا تزال تراها ؟

ــ كلما رأيتك .

فاندهش الشاب وقال : كلما رأيتنى أنا ؟ ! . .

ــ أقصد كلما رأيت شبابك الفتى ، وحيويتك الخارقة ، وزيك الوسيم . أنسيت أنى قلت لك كيف يخلق الرجل بشباب واحد ، والمرأة بشبابين ؟

فقال الشاب : تقصد أنها عرفت رجلا غيرك ؟

فقال حسبو ضاحكاً وهو يمسح على شفتيه : وغداً . . شفعات ستعرف رجلا غيرك .

ــ عم حسبو !

نطقها الشاب فى ذعر لا حد له . . وفجأة انفجر باكياً . فنظر إليه حسبو وهو منكفئ على الحشية ، وتركه حيناً يبكى ويولول كطفل ، ثم اقترب منه ، وخلص من بين ذراعيه وجهه المبلل بالدمع ، ونظر إليه وقال فى حنان جم ، وإشفاق كبير : أتتوجع من شىء ؟

ــ لا . . لا . .

ــ هل أصابك المرض الذى أصابنى ؟ . . فانتفض الشاب مرتعشاً وهو يقول : لا . . لا . .

ــ أتحبها ؟

ــ أنا أكرهها . . أكرهها . .

ــ يا لك من محظوظ ! . . وماذا تنتظر إذن ؟

ــ لا أعرف ما ذا أعمل . . قل أنت . . أرشدنى .

فصرخ الرجل فى هياج شديد : اهرب . انج بنفسك . . قبل أن تصبح حسبو آخر . انظر . . انظر إلى هذا المسخ الذى أمامك . هذا الجسد المزيل ، وهذا الوجه الذى شوهه الزمن . . انظر إلى هذه الثياب البالية . . هذه الخرق الممزقة . . هذا الحذاء التى اختلفت ألوانه . انظر . . انظر . . أيضاً .

ومد أطرافه الخشنة إلى القميص الذى يرتديه ومزقه فى عنف وهو يصرخ : انظر إلى هذا الجسد الذى مات ، هذه العظام التى برزت . . أتريد أن تكون كذلك ؟ أتريد أن تصفع فى الليل ، ويبصق على وجهك فى النهار ؟ أتريد أن تبحث عن اللقمة فلا تجدها إلا تحت أرجل الدواب ؟ أتريد أن تكون خادماً لبهلول ؟

فصرخ الشاب صراخ من تمزق جسده السياط التى تنهال عليه :

لا . . لا أريد أن أكون كذلك . . لا أريد أن أكون كذلك .

— إذن اهرب . انج بنفسك .

— وأين أذهب ؟

— إلى الشارع . إلى الرصيف . تسول فى الطرقات . مد يدك للسؤال . ألق بنفسك تحت عجلات الترام . كل ذلك خير من المصير الذى ينتظرك!

فابتلع الشاب دموعه وهو يقول : سأفعل ذلك . أجل سأفعل ذلك .

— والآن . . فى هذه اللحظة . . وقبل أن تجىء . . إنها إن جاءت ووجدتك فلن تتركك تفلت من يدها .

ثم ابتلع حسبو أنفاسه وهو ينهض من مكانه ، ويستطرد : قم . . انهض . . اهرب . . انج بنفسك . . بحياتك . . بدنياك . . بما بقى من شبابك . .

فرفع الشاب عينيه المبللتين بالدموع . . ونظر إلى المسخ الواقف أمامه ممزق الثياب . . يعلو صدره وينتفض كالقربة ، فتبرز عظام الصدر سوداء مدببة كأعواد الحديد تماماً . . ثم نقل عينيه من هذا كله ، وراح ينظر إلى أشياء أخرى فى قلب الغرفة ، وأراد أن يقول شيئاً بيد أن حسبو سبقه هامساً فى أذنه وهو يجره من ذراعه ، ويتجه به إلى الباب : دع كل شىء فى مكانه . لا تخف . اطمئن . . اطمئن جداً . قلت لى يوماً إننى كوالدك . وسوف أكون فعلا هذا الوالد . سأحتفظ لك بكل شىء فى هذه الغرفة . فى هذا المرحاض . إلى أن تجد مسكناً نظيفاً . فأنقله أنا إليه بيدى . فقط انج أنت.

فهوى رأس الشاب حتى كأنه انفصل عن جسده ، وارتمى بوجهه على يد الأستاذ حسبو يقبلها ويمسح عليها بشفتيه ، ثم تركه وانصرف سريعاً وهو يلتفت خلفه كطفل يريد أن ينجو من شىء مخيف يطارده . وما إن غاب فى الظلام ، وتوارى الشبح فى الليل ، حتى مد حسبو أصابعه إلى شفتيه المرتعشتين ، وكأنه أزال عنهما شيئاً كان يمسكهما عن

الابتسام والضحك وترديد هذا الغناء فى الليل :

أنا رحت لشيخ عالم أشتكى ذلى
رمى الكتاب من يمينه والتفت قاللى
من اللى رماك على الهوى يا خالى
يتباع ويرخص فى طريقه الغالى
عشق الصبايا بحره ماله قرار
فى أوله فرحه وفى آخره عذاب ومرار

٢٠

فى مسجد سيدنا الحسين ، وفى ركن قصى من أركان المسجد الكبير ، جلس ثلاثة عند القبلة ، وبجوار المنبر يتحدثون حديثاً هاماً . كان أحدهم جالساً القرفصاء أمام شيخ عجوز تغطى رأسه عمامة خضراء كبيرة ، وتعبث أنامله من حين إلى آخر بحبات عدة مسابح طويلة ملتفة حول صدره كالأوسمة والنياشين ، وجلس الثانى بجواره يصغى إلى الحديث بانتباه ، وكلما اضطرب الذى يتحدث أو تقطع حديثه أو تلعثم ، وهو يريد أن يقص أشياء يمنعه حياؤه أن يذكرها ، نظر إليه الثانى نظرات مشجعة وهو يقول له : قل . . قل لسيدنا الشيخ كل شىء . لقد جئت بك إليه لعله يكون شفيعك عند الله .

فيواصل الشاب حديثه المضطرب المتقطع إلى أن انتهى من الحديث وقال كل شىء ، فنظر إليه الشيخ وقال وهو يتأمل وجهه الشاحب وعينيه المحمرتين : المهم فى هذا كله . . أتركت أيضاً مع ما تركت من أشياء غالية دروسك أم لا ؟

فقال الشاب وهو يتميز غيظاً : إن لم تتخل عنى عناية الله ، فإنى أقول لا .

فقال الشيخ : إذن اذهب إلى فتاتك وأنت مطمئن ، فهى لن يعنيها سوى مستقبلك .

فقال الشاب : وهل تحسن لقائى إذا ذهبت إليها ؟

فقال الشيخ : من رحمة الله يا بنى أن القلوب الطاهرة تلتصق بها الرحمة ، وتنطبع عليها المغفرة ، كما يلتصق القلب بالجوانح ويصبح جزءاً منها ، وتصبح هى جزءاً منه .

ثم أغمض الشيخ عينيه وتمتم بصوت شجى : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

ثم فتح الشيخ عينيه ونظر إلى الشاب ، ومد يده إلى رأسه ومسح عليها وهو يقول : اذهب إليها . . فليس أحب إليها من عودتك . . وسوف تجدها إن شاء الله من الصابرين .

فانحنى الشاب على يد الشيخ وقبلها ثلاثاً ثم انصرف . وعند باب المسجد ودعه محمدين على أن ينتظره فى اللوكاندة ، وسوف يعد له غرفة مناسبة يبيت فيها إلى أن يبحث له عن سكن جديد .

وفى الطريق أحس الشاب أنه ألقى عن كاهله عبئاً ثقيلا بعد هذا الحديث القصير الذى دار بينه وبين الشيخ ، كما أحس الشاب وهو يسير فى الطريق أنه الآن غيره بعد أن خرج من المسجد ، فقد أحس أنه ألقى هناك بآثامه وأوزاره جميعاً ، وأنه الآن كما كان قبل تلك الأيام السود يفيض قلبه بالإيمان ، وأنه الآن إن التقى بسلوى فسوف يلتقى بها خالصاً لها مخلصاً لها كما تريد هى له أن يكون ، وأنها هى أيضاً سوف تلقاه كذلك خالصة له مخلصة إليه . ولكن أقلوب الناس جميعاً كما قال الشيخ تلتصق بها الرحمة وتنطبع بالغفران ، أم هى القلوب التى تحب فقط ؟ هل تلقاه الست صبرية صافية القلب مخلصة الود كما كانت وكما يريد لها أن تكون ؟ وهل يلقاه كذلك الأستاذ الشرنوبى أبو إسماعيل ،

أم ينظر إليه نظرة من صنع الخير فى غير أهله . . نظرة من أراد أن يكون بك حفيا ولك وفيا وعليك عطوفاً ، فكنت له منكراً ذلك كله أشد الإنكار ؟ إن سلوى من حقها أن تصفح وتغفر ، لأن بيدها الأمر . . لأنها تحب . . والذى يحب له قلب . . عرف الحسنة وتناسى السيئة . . إذن هو إلى حد كبير جداً يؤمل الخير فى سلوى أكثر مما يؤمله فى أى إنسان آخر . . أكثر مما يؤمله فى الست صبرية ، وإن كانت أمها . . وفى الأستاذ الشرنوبى ، وإن كان والدها . إذن من الأصوب أن يلتقى بسلوى أولا وقبل كل شىء . . ولكن كيف يلقاها ؟ وماذا يقول لها ؟ أيقول لها كل الذى قاله للشيخ ؟ . . إنه لا يستطيع . . يقول لها ماذا ؟ . .

وأخرج منديلا من جيبه وجفف بعض الدموع ، ومن ثم أخذ يروح ويجىء وهو ينظر من بعيد إلى مبنى كبير يلتف به سور ضخم . . وينتظر خروج التلميذات من المدرسة إلى أن خرجن ، ومن بينهن سلوى . إنها كالعهد بها لم يتغير فيها شىء . . طاهرة كالملائكة . . صافية كالنور . . رقيقة كالزهر . . ولكن أين تلك الإشراقة التى كانت تنير ذلك الوجه ؟ أين تلك الابتسامة التى كانت تتألق على الثغر صفاء كطلعة الصبح ؟ أين تلك النظرة التى كانت رقيقة كالورود ، حلوة كالدنيا ، مرحة كأيام الطفولة ، وما بالها هكذا ساهمة واجمة لا تنظر إلا إلى الأرض ؟ ما بال هذا الوجه الجميل مصفر اللون تكتنفه الوحشة ؟ ما بال ذراعها هكذا متخاذلة متعبة لا تكاد تحمل حقيبة كتبها إلا بجهد ؟ أكانت مريضة ؟ لا شك أنها كانت مريضة . . س . . . س . . . وقفت بقية الأحرف التى يتكون منها الاسم على شفتيه ، ولم يستطع نطقها . . لا . . لا . . إنه لا يستطيع أن يناديها . . إنه لا يستطيع أن يلقاها . . إنه لا يستطيع أن يقول لها شيئاً . . لفظاً ، حرفاً واحداً من الحقيقة . . إنه لا يستطيع . . وأدار ظهره سريعاً وراح يسير ووجهه إلى الأرض . . يسير مرتبكاً جداً ، لا يدرى أهو يريد أن يسرع ليبتعد ، أم هو يريد أن يبطئ لتسبقه ؟ !

ولكن الذى يعرفه أنه كان يسير على الرصيف وهو يود أن تنشق به الأرض وتبتلعه حتى لا يراه أحد فى الوجود كله . . بيد أنه فجأة سمع صوتاً خافتاً بجواره يناديه : إ . . ما . . إمام . .

فأدار وجهه وما إن التفت إليها ورأته حتى نطقت على الفور : أتبكى ؟

فانهلت دموعه بغزارة ، وانتابته رعشة مفاجئة ، وراح ينشج بصوت عال لفت نظر المارة جميعاً وجعل الطالبات يلتففن حولهما . . ويسألن سلوى من هذا ؟ وما به ؟ مما أحرج الفتاة وسبب لها ارتباكاً شديداً . . ولم ينقذها من هذا الحرج الشديد إلا مركبة كانت مارة . . فأشارت إلى الحوذى ، وركبت وأركبته معها . . وفى داخل العربة راحت تسأله فى لهفة عدة أسئلة سريعة : هل هو مريض ؟ هل أصيب بسوء ؟ هل مات له أحد ؟ ثم هل كان يمر الآن مصادفة أمام المدرسة . . أو أنه كان ينتظرها ؟

وأحس الشاب بشىء كبير من الاطمئنان، لأن هذه الأسئلة برغم كثرتها لم تخرج عن هذا المحور. لم تسأله مثلا أين كان طيلة تلك الشهور الماضية ؟ وما الذى شغله عنها ؟ وإلا اضطرب وارتبك وتضاعفت آلامه . ولما قال لها إنه لم يمر مصادفة ، إنما كان ينتظرها ، وكل آماله أن تحسن لقاءه كما أحسنته الآن ، شعرت الفتاة بشىء غريب لا تدرى له كنهاً يسرى فى كيانها ، شىء أشبه بقطرات الندى عندما تمس الزهور فى الخمائل ، لقد أشرق وجه الفتاة فجأة ، وتفتحت عيناها ، وانبعث منهما نور قوى . . وبعد أن كانت تجلس بجواره فى العربة مضطربة مرتبكة من المفاجأة تنظر إليه وهو يبكى ولا تستطيع أن تقول شيئاً ، اقتربت منه وتناولت المنديل من يده وجففت له دموعه . . ثم قالت له أشياء كثيرة لطيفة . أشياء حلوة . . أشياء جعلته يشرق ويبتسم . وكانت المركبة قد قطعت بهما شوطاً ، ورأت الفتاة نفسها بجوار حديقة

عامة ، فأوقفت المركبة وهبطت معه إلى الحديقة . . وراحا يسيران بين أشجارها الوارفة إلى أن بلغا ربوة جميلة فجلسا عليها فى نفس الصمت الطروب الذى يلازمهما وهما يسيران . وبعد حين نظرت إليه وفاجأته مفاجأة غريبة لم يكن ينتظرها . . إذ قالت : المهم فى هذا كله أن تطمئنى على مدرستك ودروسك . . إن هذا هو خير ما تقدمه إلىّ بعد كل هذا الغياب الطويل .

يا لله ! . . ويا للقلوب الطاهرة فعلا ! . . إنه قول الشيخ نفسه . . إنها تنبؤاته نفسها . . إنها الألفاظ والعبارات نفسها التى نطق بها إليه . . إن هذا الشيخ لنبى . . إن محمدين إذن لم يكن هازلا عندما قال له : إن مسح الشيخ المرشدى على رأسك مسح الله خطاياك ومسح أحزانك جميعاً . . ونظرت إليه الفتاة وأحست أنه يفكر فى غير ما قالته له . . فسألته وهى تنظر إليه ، ولولا الحياء لكادت تمسك بيده ، وقالت : فيم تفكر ؟ . .

ــ فى الشيخ المرشدى .

وقص عليها الشاب قصة محمدين ومسجد الحسين والشيخ المرشدى والألفاظ التى صدرت منه ، فضحكت الفتاة حتى كادت تستلقى وهى تقول : إلى هذا الحد كنت تخشى أن تلقانى ؟

ــ لأنى إلى ما قبل هذه اللحظة كنت لا أعرف حقيقة هذا القلب . .

ــ أى قلب ؟ . .

ــ الذى تلتصق به الرحمة والمغفرة كما يلتصق هو بالجوانح فتصبح جزءاً منه . . ويصبح جزءاً منها .

ــ كلام من هذا ؟

ــ الشيخ المرشدى .

ــ وددت لو أنه كلامك أنت . . وددت لو أن ثقتك فى الناس الذين يحبونك ويخلصون لك تظل دائماً ولو كانت تلك الشهور التى

مضت سنين وأحقاباً . . ولو كان فراقاً إلى الأبد . .

ثم اختنق صوت الفتاة ، واحتبست الدموع فى عينيها وهى تقول وتجفف بعض القطرات التى انسابت خلسة من عينيها : شىء أحب أن أقوله لك . . شىء علمتنيه أنت ، هو أن الذكرى الطيبة يعيش عليها الإنسان طوال العمر ، وأن صفحات الخير فيها تظل بيضاء دائماً ناصعة البياض . . وكلما أظلمت الحياة ، وأعتمت الدنيا ، كان ذلك البياض هو النور الذى نهتدى به . . وأظن أن ذكرياتنا كلها كانت طيبة ، صفحاتها كلها خير . . فمم كان الخوف من اللقاء ؟ . .

فقال الشاب وهو ينظر إلى الأرض : أخافنى الخطأ الكبير الذى ارتكبته .

ــ أحياناً تكون الأخطاء التى نرتكبها بإرادتنا .

فقال الشاب مفجوعاً : هل تعرفين شيئاً من الحقيقة ؟

ــ كل الذى أعرفه أن سعادتى الآن بعودتك لا تعادلها سعادة فى الدنيا . .

قالت ذلك وقفزت من جواره ، كما يقفز العصفور تماماً وقالت وهى تجفف آخر دمعة : هيا بنا لنذهب إلى البيت . .

ــ وبأى وجه ألقى أمك ؟ . . وماذا أقول لأبيك ؟

ــ أبى على سفر ، ولو أنه فى البيت الآن لما قلت سعادته برؤيتك عن سعادة أمى بلقائك هذه الليلة . .

قالت ذلك ومدت يدها إليه فأنهضته . . وراح يسير بجوارها وهو غير مصدق شيئاً من كل هذه السعادة التى يعيش فيها . وظل كذلك غير مصدق لشىء لا لنفسه ولا لوجوده ولا لتلك الفرحة الكبيرة التى فرحتها الست صبرية برؤيته . . ولا لتلك الحفاوة البالغة التى استقبلته بها . . ولا لتلك الجلسة الممتعة التى قضاها مع سلوى وأمها . . ولا

حتى لتلك الرسالة الطويلة التى كتبها مع سلوى لأمه يستفسر عن صحتها ويعدها بأنه سيزورها ، ويقضى معها إجازة الأسبوع القادم . إنه لم يذكر شيئاً من هذا كله إلا بعد وقت طويل ، بعد أن انصرف من البيت وذهب إلى لوكاندة المدينة المنورة والتقى بمحمدين وجلس معه يشربان الشاى ، ويتحدثان ، ويذكران الشيخ المرشدى وقوله : « إن القلوب الطاهرة تلتصق بها الرحمة وتنطبع عليها المغفرة ، كما يلتصق القلب بالجوانح ويصبح جزءاً منها ، وتصبح هى جزءاً منه » .

٢١

عادت المعلمة شفعات إلى الزقاق آخر النهار ، بعد أن قضت اليوم كله فى (حمام) المردنلى الذى اعتادت أن تقضى فيه نهار كل خميس ، تغتسل وتستحم ، وتدلك جسدها وتدهنه بالعطور وأصناف الزيوت الغالية ، التى تعيد للجسم بشرته الملساء الناعمة وشبابه الفتى . . وراحت تصعد سلالم السبيل مترنحة الأعطاف ، تتأود كالغصن ، وتخب خبباً كالناقة الحاوب ، وقد تركت ملاءتها الحريرية السوداء التى أحكمتها على الردفين الرجراجين ، وخنقت بها الخصر فزادته وهناً على وهن ، تركتها تنسدل على الرأس وتسقط عن الكتف اليمنى لتظهر القرط الذهبى الكبير الذى صنعته على هيئة دائرة كبيرة وتركته يروح ويجىء على الكتف مع خصلة فاحمة من الشعر الناعم ، يداعبها النسيم فتميل حيناً على الكتف وحيناً تختلط بحبات الترتر وخرج النجف على الجبين .

وتصادف وقت مرورها أن كان الأستاذ حسبو جالساً إلى مكتبه ، على ناصية الزقاق ، فلم تلتفت إليه ، ولم تعره اهتماماً ، وكل الذى صنعته أنها سألته بدون أن تنظر إليه وبدون أن تتوقف أيضاً عن السير قائلة : كل شىء عال ؟ . .

ــ بأنفاسك يا ست .

ونهض سريعاً ، وخلص ساقيه المتخاذلتين من تحت الترابيزة التى يجلس إليها ، وهم أن يلحق بها ، ولكنها كانت قد قطعت شوطاً بعيداً ، فراح يسير خلفها متخاذلا يترنح من فرط الخمر ، وكلما كاد يسقط استند على الحائط . إنه لم يرها فى يوم ما أجمل منها الآن ، ولا حتى فى أيام الشباب الأول ، ولا حتى فى أيام الصبا . . أهكذا تستطيع النساء أن تستعيد شبابها بين يوم وليلة ، تستعيد فتنتها بين عشية وضحاها كما تستطيع الشجرة أن تورق وتثمر وتنضج ثمارها وتتدلى على الأغصان ؟ ونظر إلى ساقيها العاريتين الجميلتين ، وعقبيها الحمراوين اللتين خرجت بهما من الحمام يكاد دم الشباب والصحة يقطر منهما ، ويسيل على القبقاب المطعم بالصدف الذى يزين قدميها ويزيدها فتنة ، كلما نقلت قدماً وهى تسير ، ورنت تلك الموسيقى التى تنبعث من بلابله الستة التى صفت على جانبيه . ونظر أيضاً إلى صدرها العارى الذى يشع نوراً ، والذى ازداد إشعاعه عندما مدت يدها إلى الصدر وكشفت عن جانب كبير منه وهى تخرج المفتاح الذى وضعته بين النهدين . . ثم نظر إلى القرط الذهبى وتلك الخصلة من الشعر الفاحم التى يداعبها النسيم فتنام على الكتف العارية وحيناً تختلط بتلك الوردة الحمراء التى تتدلى بجانبه . نظر إلى هذا كله من خلف منظاره الصدئ الملوث ، وراح يضحك وهو ينظر إليها وهى تفتح الباب لتدخل ، ويردد بذلك الصوت الأجش المبحوح الذى يشبه تماماً صوت خوار حيوان يموت :

يا ام العيون تتعشق
يا ام القوام مياس
يا ام النهود تتعبد
يا ام السيقان تنباس
يارابطه على الفرع ورده

في مكان حســاس
الورد أنا رويتــه
وشــوكه جرحني
وبدال مايداوي جرحي
بالقــدم بانداس

* * *

ووقف لحظات فى الدهليز لا يعرف أين يذهب ، وراح ينظر إلى النور الوهاج الذى ينبعث من شراعة باب غرفة المعلمة ، ذات الزجاج الذى اختلفت ألوانه ، ويصغى إليها وهى تغنى أغنية نسائية خارجة تعودت أن تغنيها فى ليالى الأنس والابتهاج ، وكثيراً ما سمعها منها فيما مضى من الأيام ، وأثارته هذه الأغنية ، وبعثت فى نفسه الكثير من الذكريات ، وأحس بشىء يكاد يطبق على أنفاسه وهو فى الظلام ، فرفع الزجاجة إلى ثغره وتجرع منها عدة جرعات ، ثم عاد وتجرع غيرها أيضاً ، حتى كاد يأتى على ما فى الزجاجة كله . وحانت منه التفاتة فى الظلام فرأى بهلولا فى السيرجة مغمض العينين يجر خلفه ذلك الحجر الضخم . . فنظر إليه طويلا . ولايدرى لماذا أراحته رؤية بهلول ، ولا لماذا ذكرته بأشياء هامة كان قد نسيها تماماً ؟ فابتهج وتمتم فى ابتسامة عريضة ، وهو يحدق إلى بهلول وإلى العصابة التى على عينيه والحجر الضخم الذى يجره خلفه : سوف تستريح أيها الشقى .

وقبل أن يتم كانت يده تدق دقات متواصلة على باب غرفة المعلمة . . التى أجابت من الداخل بعد حين : من ؟

— حسبو .

— لا أريد أن تثقل على الآن . اترك كل شىء إلى الصباح .

فقال ضاحكاً من خلف الباب : إنها أشياء لا صباح لها يا ست .

فقالت صارخة من الداخل فى ضيق : إننى نزعت ثيابى .

ــ إننى أريد أن أحدثك عن بهلول .

ــ انطق . . تكلم . . ماذا تريد أن تقول ؟

فقال وهو يدقق بعينيه المحمرتين فى كل أنحاء جسدها الذى انتصب أمامه عارياً إلا من قميص رقيق هفهاف كأوراق الورد : إنه حمار فعلا .

ــ من هو ؟ . .

فقال وهو يغرق فى الضحك : بهلول . . بهلول . .

فقالت مبتسمة تنظر إليه مشفقة إذ ظنته مخموراً لا يفقه : وماذا كنت تظنه إذن ؟ . .

ــ إنسان . بنى آدم . له قلب يقدر الجميل . . وعين ترى الجمال .

ــ من تقصد ؟

ــ هذا الحمار الذى كان يقطن فى هذه الغرفة .

فقالت شاهقة وهى تحس بقلبها يسقط بين جنبيها : إمام . . ! . .

ــ قال لى إن اسمه الحقيقى بهلول ، واليوم سقطت العصابة التى كانت على عينيه ، ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان يجره خلفه ، خاف وفر هارباً ولن يعود .

وكما يقف التمثال صامتاً صلباً متحجر الوجه ، وقفت هى لحظات تنظر إلى حسبو الذى ظنته خيالا أو حلماً . ولما رأته يتحرك ويريد أن يسير تحرك الدم الذى يغلى فى كيانها وصعد إلى وجهها فيما يشبه لسعات النار ، فجحظت عيناها جحوظاً مخيفاً ، وتصلبت أصابع يديها وهى تطبق بها فى قسوة على عنق حسبو فى عنف ، وتقول شبه صارخة : تكلم . أعد الذى قلته ثانية .

فقال حسبو ، وهو يحاول أن يجد لعنقه متنفساً بين أصابعها ليضحك : قال لى إن اسمه الحقيقى بهلول . واليوم سقطت العصابة التى كانت على عينيه ، ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان يجره

خلفه ، خاف وفر هارباً ولن يعود .

فقالت وهى تضغط على عنقه بيديها لتكتم أنفاسه : وماذا قلت أنت له ؟

ــ قلت إننى مثلك ، ظللت أجر هذا الحجر سنوات ، ولكنى لم أهرب برغم أنها استبدلت بى بهاليل كثيرة ، وقلت له أيضاً . .

بيد أنها فجأة دفعته دفعة قوية فسقط مترنحاً على الأرض . . وتركته وعادت سريعاً إلى غرفتها محمومة كاللبؤة التى تريد أن تفترس كل من أمامها ، وفتحت غرفة الشاب ونظرت إليها ذاهلة . إن كل شىء فيها كما هو لم يتغير . لم ينقصها إلا هو ، هو . .

ونظر إليها حسبو وهى خارجة كاللبؤة المسعورة ، وأغرق فى الضحك ، وظل يضحك وهو فى مكانه ملقى على الأرض ، وظل يضحك وهو يلقى بجسده الخائر على فراشه الخشن محتضناً الزجاجة التى تعود أن يحتضنها إذا أراد أن ينام . وظل يضحك حيناً ، ويحتضن الزجاجة حيناً آخر ، ويغمض عينيه مرة ويفتحهما مرة أخرى بدون أن يدرى من أمره شيئاً ، ولا من أمر الليل الذى يمر به شيئاً . وظل كذلك إلى أن هب مذعوراً على دوى هائل ظنه أى شىء إلا باب غرفته الذى فتح فى عنف على مصراعيه ، ورأى تلك الأصابع المتصلبة القاسية التى تشبه مخلب الهرة الهائجة تنشب فى صدره ، وشفعات تنظر إليه بعينيها اللتين ما زالتا فى جحوظهما الغريب المخيف ، وهى تصرخ فى وجهه تلك الصرخات المتقطعة : قل أين ذهب ؟ بحثت عنه فى كل مكان فلم أجده . . تكلم . . انطق . . أين أخفيته ؟

ولما رأته ما زال يضحك ويغرق فى الضحك ركلته بقدميها ركلة موجعة ، وعادت إلى غرفتها ، ووقفت على الباب بين الغرفتين ذاهلة مبهورة الأنفاس ، تنظر بعينيها اللاهثتين إلى محتويات غرفة الشاب ، وأثاثها الذى أنفقت فيه مالها ، وملابسه الفاخرة التى صنعتها له . والأحذية التى

بلغت الستة ، والحلل الغالية التي تزيد على الثمانية . . والكرافتات ذات الألوان البراقة الزاهية ، والملابس الداخلية التي كلها من الحرير — كل هذا أتت به إليه ، ومع ذلك يهرب منها .

وجحظت عيناها مرة أخرى ، وتصلبت أصابع يديها وارتعشت وهي تنشب أظافرها في هذا كله ، وتلقي به وسط الغرفة لتمزقه . ولما لم يبق شيء في الغرفة حتى بعض ملابسها الداخلية التي كانت في غرفته ، تناولت المصباح الزجاجي من مكانه ، لتفرغ ما فيه من بترول على هذا كله الذي تريد أن تحرقه ، فإذا هي ترى بجانب المصباح الذي كان على الرف مصحفاً ، فظننته كتاباً من كتبه التي يجب أن تحرق ، فتناولته في عصبية ، وهمت أن تلقي به في النار ، بيد أنها رأت تحته شيئاً أدهشها . . رأت صورة لفتاة في الرابعة عشرة من عمرها ترتدي ثياب المدرسة التي زادتها براءة وطهراً . . المريلة والفيونكة والجورب الأبيض وحقيبة الكتب التي تحملها في يدها . .

نظرت إلى الصورة وهي ترتعش ، واقتربت بها من البوريه حيث المصباح ما زال مشتعلا في غرفتها ، وتأملتها طويلا ، ودققت فيها النظر طويلا غير واعية . وكلما أمعنت فيها النظر تجسمت الصورة في عينيها ، وظلت تتجسم رويداً رويداً حتى رأت الفتاة أمامها ، بجمالها الرائع ، وقوامها الرشيق ، ووجهها الذي يكاد دم الشباب يحيله حمرة تشبه حمرة الشفق . وراحت تعيد النظر إلى هذا كله مرة . . ومرة . . وتحدق إليه من جديد ، بيد أن نظرة مضطربة من تلك النظرات الزائغة التي تتدهور من عينيها وهي تنظر إلى صورة الفتاة ، حانت منها إلى مرآة البوريه الواقفة أمامه ، فرأت صورة غريبة مذهلة ، رأت وجهاً لم تكن تعرفه من قبل ، رأت وجهها عجوزاً مغضناً . . تمشت خلف المساحيق التي عليه عدة خطوط سوداء دقيقة أشبه ما تكون تماماً بآثار الثعابين الصغيرة على الرمال . . ورأت تلك الخطوط تزداد وتكبر وتكثر وتتجمع تحت

العينين ، مما زادها بشاعة وقبحاً . .

وقفت تتأمل هذا الوجه ، وتتأمله مليا وتدقق فيه كما كانت تدقق فى وجه الفتاة منذ لحظة ، وقارنت بين الوجهين ، فرأت شيئاً عجيباً . . رأت وردتين إحداهما تتضوع مسكاً وترسل أوراقها الحمراء والبيضاء أريجاً عبقاً نفاذاً ، وتتألق بهاء وفتنة فوق الغصن . . ورأت الوردة الثانية جافة ذابلة تساقطت أوراقها جميعاً ، أو كادت ، ولم يبق فيها سوى تلك الجذور الزرقاء الكريهة المنظر . فاندهشت دهشة كبيرة ، وراحت تنظر ثانية إلى الوردتين ، وتقارن بين أول العمر وآخره ، وبدايته ونهايته : نهاره وليله ، وفجأة سقطت الصورة من يدها على الأرض ، فانكفأت عليها تبكى فى صمت بكاء موجعاً يكاد يمزق أحشاءها ، وتئن أنيناً مختنقاً لا تكاد تسمعه أذناها .

وظلت كذلك زمناً لا تدرى أطال أم قصر ؛ ولكن الذى يدريه حسبو هو أنه لما رآها تتسلل من البيت مع الفجر ، وسألها أين تذهب ؟ انفرطت الدموع من عينيها ، وظلت تبكى . . وتبكى . . حتى توارت عن عينيه .

٢٢

إن الزوج الذى تخونه زوجته ، ويعرف خيانتها ويطلقها ، يكون قد أراح ضميره ، فلم يعد يهمه بعد ذلك تقوّل الناس عليه ، ولا نظراتهم إليه ، ولا ضحكاتهم الخبيثة كلما مر بهم ، ما دام هو فى قرارة نفسه قد اطمأن إلى شرفه الذى دافع عنه .

وكذلك تماماً كان الشاب عندما عاد إلى مدرسته صباح السبت راضياً كل الرضا مطمئناً كل الاطمئنان ، بعد أن فر هارباً من يد الخطيئة ، وطلق حياة الرذيلة طلاقاً لا رجعة فيه . . واجتث جذور الدنس من

أساسها فلم يعد لها فى حياته أثر . إن شيئاً ما لا يهمه الآن ، لا تلك الضحكات الصفراء التى كانت تأكل جسده أكلا ، ولا تلك النظرات الخبيثة التى كانت تخترم صدره وتنفذ إلى القلب فتدميه ، بل راح يشفق على الذين ينظرون إليه ، ويضحكون منه ، ويسخرون به ، لأنهم جهلاء لا يعرفون . وظل كذلك إلى أن انتهى اليوم وخرج من المدرسة مع الخارجين ؛ بيد أنه لم يكد يخطو بعد الباب خطوة واحدة على الرصيف ، حتى وقف شاخصاً فى مكانه ينظر بعينين زائغتين إلى الأرض التى تدور به حيناً ، وحيناً إلى وجوه الطلبة الذين تزاحموا حوله بالضحكات التى يوجهونها إليه والألفاظ الجارحة التى يصفونه بها . . وحيناً آخر إلى شفتات الجالسة أمامه فى العربة الحنطور ثائرة متنمرة ، مربدة السحنة ، مكفهرة الوجه ، ترسل عيناها الحمراوان الجاحظتان بريقاً كأنه اللهب ، وهى تأمره فى ابتسامة صفراء أن يركب . وتعالت ضحكات الطلبة مرة أخرى ، وتهافتت نظراتهم وتزاحمت داخل العربة ، ووضحت ألفاظها الجارحة ، وبعد أن كانت تلميحاً مستتراً غدت تصريحاً مكشوفاً ومفضوحاً أيضاً . وتقدم طالب قوى من الشاب ودفعه فى قوة إلى قلب العربة ، وهو يقول ضاحكاً : اركب .

وحين ركب الشاب وسارت به العربة قالت له : لماذا هربت منى ؟ .

— . . . .

— فى أى بيت قضيت الليلة البارحة ؟

— أى امرأة من النساء أخذتك منى ؟ . . أهكذا يكون الخروج من الحمام سهلا كدخوله ؟

— . . . .

— أهكذا يكون جزائى منك ؟ !

لم يكن أمامها أحد حتى يرد عليها أو يجيب عن هذه الأسئلة . إن الإنسان الجالس بجوارها فى العربة إنما شبه لها ، وإنه إنسان ميت

تماماً لا حياة ولا روح . . كأنه بجوارها جثة هامدة يتفصد منها العرق ويسيل قنوات على الوجه الشاحب والعينين الذاهلتين . وظل كذلك وقتاً طويلا جداً . ظل كذلك حتى بلغت بهما العربة نهاية الطريق ، وهبطت منها ، وجرته فى يدها صاعدة به سلالم السبيل ، واخترقت به الحارة والزقاق ، حتى إن حسبو عندما رآه اضطرب وسقطت الزجاجة من يده ! وكما كانت تجره فى الطريق جرته وهى تدخله الغرفة وتلقى به على المقعد وتغلق الباب خلفها .

وفتح الشاب عينيه ونظر فيما حوله ، ثم عاد فأغمضهما ثانية ، وظل كذلك إلى أن تسربت إلى أنفه رائحة كريهة تشبه العفن ، رائحة سوداء يعرفها جيداً ، لأنه عاش فيها زمناً ، وأحس بها تنفذ إلى أنفه وتتسرب إلى خياشيمه وتطبق على أنفاسه حتى لتكاد تزهق روحه ، فعاد وفتح عينيه ثانية ونظر إلى المرأة المتنمرة المتحفزة الواقفة أمامه كالغول وقال : لماذا جئت بى ثانية إلى هنا ؟

— جئت بك إلى بيتك . .

— لم يكن لى بيت ، وإنما لى ماخورة وتركتها . . هربت منها ، ولن أرجع إليها أبداً . .

— إذن ما قاله حسبو كان حقيقة . .

فقال الشاب وكأن قوى الأرض جميعاً تجمعت على شفتيه : أنا الذى يقول لك الحقيقة . .

— وما هى الحقيقة ؟ . .

— إنى أبغضك . . أكرهك . . أحتقرك . . لن ترى وجهى بعد اليوم . .

فقالت ضاحكة فى ثقة : هل هذا فى يدك ؟ . .

— فى يد من إذن ؟ . . !

ــ حقوقى التى عندك ، مالى الذى أنفقته عليك . . عرضى الذى أبحته لك . .

ــ كل ذلك دفعت ثمنه غالياً . .

ــ أى ثمن دفعت ؟ . .

ــ دينى الذى هجرته ، خلقى الذى فقدته ، شرفى الذى أهدرته . . و . .

وصمت ، فقالت : وماذا ؟ تكلم ، قل كل شىء . .

ــ وأخيراً شبابى ، شبابى الذى فقدته على مذبح هذا الجسد ، الذى هو ملك لكل شاب . .

فقالت ضاحكة فى غيظ : أهكذا قال لك حسبو؟ . .

ــ لم يقل حسبو شيئاً ، ولكن ثقى أننى لن أكون حسبو آخر ، سأنصرف الآن ، سأعود بالحمال الذى سينقل لى متاعى من هذه البؤرة . .

ثم نظر إليها والنار تندلع من عينيه وقال : دعينى أخرج . .

ــ وإن لم أدعك . .

ــ حطمت رأسك هذا بيدى . .

ــ ولماذا لا أحطم رأسك أنا بهذه اليد التى ما زال خيرها عليك ؟ . .

ــ ثقى أن الموت أحب إلى وإلى الناس جميعاً من هذا الخير الذى تظنين . . قلت لك افتحى الباب . .

قال ذلك ومد يده ليفتح الباب ، ولكنها جذبته من ذراعه جذبة قوية كادت تسقطه على الأرض وهى تقول : لقد كان كل أملى أن أجىء بك إلى هنا ، الآن لن أدعك تفلت من يدى . .

ثم أرسلت ضحكة عالية وهى تعقب ثائرة : أتظن أننى إلى هذا الحد مجنونة ؟ أتظن أننى بعد أن أطعمتك وكسوتك وجعلت منك رجلا ، أدعك تفلت من يدى لتذهب إلى تلك الفتاة التى شغفتك حبًّا ، تلك التلميذة التى تفضلها على ؟ ! . .

فقال وهو ينظر إليها فى دهشة زائدة : أى فتاة ؟ وأى تلميذة ؟ . .

فمدت يدها فى عصبية إلى درج من أدراج البوريه ، وأخرجت أجزاء صورة ممزقة ، وقالت وهى تصرخ فى وجهه وتريه الصورة : صورة هذه الفاجرة التى تخطف الرجال وهى بعد لم تشب عن الطوق . .

— اخرسى . .

وقبل أن يتم كانت ذراعه الثقيلة التى ارتفعت إلى أعلى قد سقطت على رأسها فى ضربة موجعة أسقطتها على الأرض ، وهم أن يخرج ، بيد أنها زحفت سريعاً على الأرض ، وأمسكت بقدميه ، وانهالت عليهما تقبلهما بدموعها المنسابة ، وشفتيها المرتعشتين وهى تنتحب مولولة فى صوت مختنق متقطع : إننى أحبك ، إننى أحبك ، ثق أن لا غناء لى عنك ، ثق أن الموت أحب إلى من فراقك . .

ورأت مصادفة وهى تتمرغ عند قدميه أجزاء الصورة الممزقة على الأرض ، فتعالى نحيبها وهى تقول بنفس الصوت المختنق المتقطع : حقيقة أننى امرأة عجوز انحدر بى العمر ، انحدر بى الشباب ، ذبل جمالى ، وهى فتاة صغيرة . . شابة . . حقيقة لا ذنب لك فى هذا ، ولكن أنا أيضاً لا ذنب لى فيما صنعته الأيام ، حقيقة أن الأيام انحدرت بى . . وحقيقة أننى أصبحت امرأة عجوزاً . . ولكننى أحبك ، فأشفق على عجوز تحب . .

قالت ذلك سريعاً ، سريعاً جداً ، حتى لا يمنعها شىء عن كتمانه ، ثم نظرت إليه تنتظر منه جواباً ، فإذا بالجواب ركلة قاسية موجعة ، ألقت بها فى ركن الغرفة ، فلم تصنع أكثر من أنها أغمضت عينيها ، حتى لا تراه وهو ينحنى على أجزاء الصورة المتناثرة على الأرض ، ويجمعها فى حنان لا حد له ويضعها فى جيبه ويخرج . .

٢٣

ذهب الشاب بعد خروجه من البيت إلى مسجد سيدنا الحسين فصلى المغرب جماعة مع المصلين ، ثم ذهب إلى لوكاندة المدينة المنورة ، وقص على محمدين كل ما حدث ، واتفق معه على ضرورة نقل متاعه الليلة من بيت هذه المرأة ، فذهب معه محمدين إلى المنزل الجديد الذى استأجر له فيه سكناً ملائماً ، وأعطاه مفتاحه ، ثم استأجر له عربة لينقل له متاعه كله دفعة واحدة ، وتركه وانصرف إلى اللوكاندة ، فى حين ركب إمام العربة بجانب الحوذى إلى أن بلغا الزقاق ، فأوقفا العربة أمام سلالم السبيل وانصرف إمام إلى المنزل ، فوجد المعلمة شفعات واقفة على باب الزقاق مستندة بظهرها إلى الخوخة وأمامها بعض العمال ، تصدر إليهم أمرها ، وترتب معهم شئون السيرجة ، كأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق ، وعندما رأت إمام مقبلا ومعه الحوذى صرفت من معها سريعاً ، وظلت هى فى مكانها إلى أن اقترب إمام من الباب ، وأراد أن يدخل بدون أن يحييها أو حتى ينظر إليها ، فابتسمت ضاحكة وهى تمد يدها إليه لتصافحه قائلة : أظن الصباح رباح ، وكل تأخيرة وفيها خيرة . .

فلم يرد عليها ، وحاول الدخول ، فاعترضته وقالت وهى ما زالت تضحك : النهار له عيون ، والملائكة تغضب إذا أقلقتها فى الليل . . ألم تقل إنك مسلم وحنبلى وتعرف الله جيداً . .

فغاظته منها هذه السخرية وقال فى صوت عال : لن يطلع علىّ النهار وأنا فى هذا البيت كما قلت لك . .

فقالت وهى تضحك أيضاً : اخفض صوتك ، الناس تسمعك . .

فقال : لو استدعى الأمر أن أجمع سكان الحارة جميعاً لفعلت . .

ـــ أنا لا يهمنى الحارة ولا سكانها ، وإنما الذى يهمنى أمك المريضة النائمة فى غرفتك . .

– أمي ؟! . .

نطقها الشاب في دهشة لا حد لها بدون أن يصدق أذنيه ، فقالت وهي تكتم فرحة في القلب تريد أن تنبثق نوراً من العين : جاءوا بها بعد أن خرجت مباشرة محمولة على عربة ، لأنها لا تقوى حتى على النطق ، ومعها رجل ضرير ، فأكرمتها ونظمت لها غرفتك بيدي . . وأنمتها بنفسي على السرير . . لا تنس أنها أمي أنا أيضاً . .

لم يسمع الشاب نهاية الحديث ، لأنه كان قد اندفع إلى الداخل . وما إن فتح الباب ورأى أمه مسجاة على الفراش وبجوارها عم نوفل ، حتى ارتمى عليها يبكي ويقبل يديها ويبلل شفتيها بدموعه ، ويسألها عما بها . ولما أحست به ، وأفاقت من إغمائها بعض الشيء ، وجاهدت نفسها حتى فتحت عينيها قليلا ، ونظرت إلى إمام لم تصدق ، ثم عادت ونظرت إليه ثانية وهو متكفئ على صدرها يبكي ، ولما عرفته جيداً تمتمت في صوت لا يختلف كثيراً عن صوت ابنها الباكي وقالت : أنت يا إمام لبست أفندي في مصر . .

ثم أغمضت عينيها ، وعادت إلى إغماءتها الطويلة التي لازمتها منذ ثلاثة أيام كما قال له عم نوفل ، الذي راح يقص على إمام قصة الشقاء الطويل الذي عاشت فيه الأم في أيامها الأخيرة ، بسبب داء الكبد الذي كان يلازمها ، والذي حار في أمره الأسطى شلبي حلاق الصحة ، ولما استفحل بها الأمر وساءت حالها ذهبت إلى حكيم المركز الذي قال إنها مصابة بخراج في الكبد ، ولا بد من ذهابها إلى مصر لإجراء عملية ، لأنه من غير المتيسر إجراؤها عندنا في الريف ، فجئت بها إلى مستشفى قصر العيني ، لأنني لم أستطع أن أذهب بها إلى مستشفى خاص لضيق ذات اليد ، ولكنهم هناك أهملونا ، وقالوا لنا عودوا بعد ثلاثة أيام لعدم وجود أسرّة خالية ، وحالتها كما قال حكيم المركز وعمك الأسطى شلبي ، تستدعي عملية عاجلة ، وإلا ماتت في الحال ، ولما خشيت أن تموت مني

فى الطريق ، سألت أولاد الحلال عن عنوانك فدلونى عليه ، فجئت بها إلى هنا ، وأنا كما ترى رجل ضرير لا حول لى ولا قوة ، وليس فى استطاعتى أن أفعل أكثر مما فعلت . .

وأنهى الشيخ نوفل حديثه ببعض الدموع التى تفجرت من بين أهداب عينيه المقفلتين ، فقال الشاب وهو يتميز حزناً وألماً : وتحتاج هذه العملية إلى نفقات كثيرة ؟ . .

فقال عم نوفل وهو يمد أصبعه إلى إحدى عينيه المقفلتين ويمسح بعض الدموع : يقولون يا ابنى أشياء خيالية ، يقولون إنهم يطلبون خمسين جنيهاً ، إنهم يا بنى لا يفقهون شيئاً ، لأنهم لو باعوا المريض نفسه لما وجدوه يساوى هذا الثمن الذى يطلبونه لشفائه ، إنهم يا بنى لا يفقهون شيئاً ، لا يفقهون شيئاً . .

قالها الرجل فى غيظ وحزن شديدين ، ثم سكت عن الكلام ، ومرت لحظات صمت طويلة ، وكانت ستزداد طولا لولا أن صوتاً انبعث من الخارج يقول : أين العفش الذى ستنقله يا حضرة الأفندى ؟ . .

فتذكر الشاب ما كان قد جاء من أجله ، فخرج إلى الحوذى وصرفه ، ثم عاد إلى الغرفة ، ووقف حيناً بجانب أمه ينظر إليها وهى فاقدة النطق ، ويتأمل صفرة وجهها التى تشبه وجوه الأموات تماماً ، ثم غادر الغرفة لا يلوى على شىء ، ووقف على باب الزقاق فى الظلام واجماً ، أين يذهب ؟ بمن يستنجد ؟ حتى الأستاذ حسبو لأول مرة يغيب الليلة عن السيرجة ، لقد خرج وقت أن كان يتشاجر هو مع المعلمة خشية أن تفتك به . . أيذهب إلى محمدين ؟ . . ماذا يصنع له ؟ وما الذى بيده حتى يقدمه إليه ؟ . . أيذهب إلى الشيخ المرشدي ؟ . . هل يسأل له السماء أن تمطر ذهباً ؟ . . أيذهب إلى سلوى ويقص عليها الحقيقة ويجعلها هى تدبر له الأمر؟ . . ولكن ماذا تدبر له ؟ من غير المعقول أنها تمتلك مثل هذا المبلغ . لو كان والدها مثلا موجوداً ولم يكن

على سفر ، فربما كان وجد له حلا ، إذن ماذا يعمل ؟ هل يترك أمه تموت أمام عينيه ؟

ونظر إلى السماء من خلال أسجاف الظلام التى تكتنفه وتملأ الدهليز والزقاق وتمتم : أهكذا يكون الجزاء ؟ أهكذا يجازينى الله هذا الجزاء السريع ؟ أهكذا يحاسبنى الله سريعاً على ما ارتكبت من آثام ؟ أهكذا يكون العقاب قاسياً . . أهكذا يكون الجزاء أن تموت أمى أمام عينى . . ولا أستطيع أن أفعل لها شيئاً ؟ . .

وانهلت الدموع من عينيه ، وراح يبكى بكاء عالياً وينشج كما لو كان طفلا صغيراً يتوجع ، وظل يبكى إلى أن أحس بيد تمتد إليه فى الظلام وتجره من ذراعه إلى الداخل ، فلم يقل شيئاً ، وسار كالسائمة خلف تلك اليد التى تجره ، إلى أن أدخلته المعلمة غرفتها وأجلسته على المقعد ، وسحبت طرف ثوبها وراحت تجفف له دموعه ، وتمسح له على وجهه وهى تقول : أطفل أنت . . إنها بخير ، وستشفى إن شاء الله . .

— إنها فى حاجة إلى إجراء عملية سريعة وإلا ماتت . .

— تجرى لها العملية حالا . .

فوضع شفته السفلى بين أسنانه ، وأطبق عليها حتى كاد يقطعها وهو يقول : إنهم يطلبون خمسين جنيهاً ، خمسين جنيهاً . .

— ليطلبوا ما يريدون ، خذ كل الذى تريده ، وأعطهم كل الذى يطلبون . .

فنظر الشاب إليها فاغراً فاه وهو يتمتم : ماذا تقولين ؟ . .

— أقول إننى ومالى كله ملك لك ، أظنك لا تصدق . .

ثم مدت يدها إلى منديل فى صدرها وأخرجته ، فإذا به يضم عشرات من أوراق النقد الكبيرة ، أخرجت من بينها خمس ورقات ، ثم أضافت إليها ورقة سادسة قدمتها إليه : وهذه عشرة جنيهات أخرى لما قد تحتاج إليه أنت من نفقات .

فلم يصدق الشاب شيئاً مما يرى ، ولا مما يسمع ، ولكنه لما فتح عينيه جيداً ورأى نقوداً حقيقية ، وأنه فى حقيقة وليس فى حلم ، ارتمى على يدها يقبلها ، ويمسح عليها بدموعه المنسابة : إننى لن أنسى لك هذا الجميل أبداً ، لن أنسى لك هذا . .

ثم عاد وقبل يديها ثانية ، وهم أن يخرج سريعاً ، بيد أنها لحقت به عند الباب واستوقفته لحظات ، وقالت وهى تنظر إليه ملقية بذراعيها على صدره الذى يضطرب : فقط لى رجاء بسيط عندك ، فهل تحققه لى ؟ . .

فقال الشاب سريعاً فى إخلاص لا حد له : قلت لك إننى مدين لك بحياتى ، قولى . . ماذا تريدين ؟

فصمتت حيناً ، ثم قالت وهى تغمض عينيها وتنظر إلى الأرض : إنك ولا شك تعرف جيداً العلاقة التى بيننا ، وكيف أن هذه العلاقة امتدت إلى سكان الحارة والزقاق جميعاً ، حتى راحوا يتقولون علينا السوء ، وتعرف جيداً أيضاً . . أنك لى ، وأن لا غناء لأحدنا عن الآخر . . وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا نخرس تلك الألسنة ، وبدل أن يكون هذا الذى بيننا سرًّا وفى الظلام ، يكون علانية وفى النور ، وبدل أن يكون أمامنا فقط . . يكون أيضاً أمام الناس ، وبدل أن نغضب الله نرضيه ، و يكون ذلك سريعاً ، أقصد الليلة مثلا ، بل الآن . .

فلم يفهم الشاب حرفاً واحداً من كل هذا القول ، ولذلك سألها جادًّا : قولى ماذا تريدين . . ؟

— أن نتزوج . .

فشهق الشاب شهقة عالية ، وقال فى ذعر شديد وهو يلقى بالنقود التى فى يده على الأرض ، ويخرج سريعاً ، كمن يريد أن يهرب من هول مخيف : أنا أتزوجك أنت ؟ ! . .

فنظرت إليه وهو يخرج سريعاً وابتسمت ، ووقفت فى مكانها

لحظة ، ثم مدت يدها إلى النقود المتناثرة على الأرض عند قدميها وجمعتها ، وابتسمت أيضاً ، ولم تعدها إلى مكانها فى المنديل الذى تحتفظ به فى صدرها ، وإنما وضعتها على البوريه وصعدت إلى السرير ، وانطرحت بظهرها عليه باسطة ساقيها وذراعيها فى استسلام عجيب ونشوة زائدة ، وهى تنظر بعينيها الواسعتين إلى سماء الغرفة ، وكأنها تنظر إلى سماء دنيا جديدة . . تقبل عليها ، لقد كانت واثقة من أنه سيعود .

وظلت كذلك وقتاً لم يطل كثيراً فى حسابها . . ولم يطل كثيراً أيضاً فى حساب الزمن نفسه ، وإن كان قد طال وبعد وامتد سنوات فى حساب غيرها من الناس إلى أن رأت يداً مرتعشة تفتح عليها الباب ، ورأت الشاب يدخل عليها مطبق الشفتين ، ويقف وسط الغرفة مغمض العينين جامد السحنة متحجر الوجه ، لا يطرف ، ولا يتحرك ، فلم تأبه به ، ولم تلتفت إليه ، وظلت كما هى مستلقية على ظهرها فوق الفراش منبسطة الساقين والذراعين فى استسلام عجيب ، إلى أن سمعته يتمتم بصوت خافت جداً يشبه الهمس : قومى . .

– إلى أين ؟ . .

– نتزوج . .

٢٤

لم يستطع الشاب أن ينقل أمه إلى المستشفى فى تلك الليلة كما كان يود ، ولا حتى فى صبيحة اليوم الثانى ، لأن مراسيم الزواج لم تتم إلا عند الظهر تقريباً ، وذلك بسبب تغيب المأذون عن بيته فى هذه الليلة ، وعدم العثور على مأذون آخر بعد منتصف الليل ، برغم تلك الجهود التى بذلتها المعلمة فى تلك الليلة ، وبرغم أن قدميها كاد الدم يسيل منهما من كثرة سيرها فى الطرقات ليلا وتنقلها من حى إلى حى تبحث عن المأذون ، والشاب خلفها يتبعها خطوة خطوة ، يسير كما تسير ،

ويضع قدميه مكان ما تضع قدميها ، ويطرق الباب الذى تطرقه يدها ، بدون أن يفتح فه ، أو تطرف له عين ، أو تتحرك له شفة ، أو يقول غير ما طلب منه المأذون أن يقول ، وكل الذى قاله من عنده هو أنه بعد أن عقد العقد ، وخرج معها من بيت المأذون سألها قائلا : لماذا أردت أن يكون مؤخر الصداق مبلغاً ضخماً هكذا ، وأثبت فى العقد أنه مئتان من الجنيهات بالتمام ؟ . .

فقالت ضاحكة : / لكى أسجنك إذا أردت أن تهرب منى يوماً . .

فلم يجب بشىء ، ولم يلتفت إلى شىء مما قالت ، فقد أنسته فرحته ، بدخول أمه المستشفى وإعداد العدة لإجراء العملية لها كل شىء ، وظل طوال النهار وإلى أن جاء الليل حركة نشاط دائمة ، يتحدث إلى الأطباء ، يدفع حساب المستشفى وأجر العملية مقدماً ، ويشترى لها كل ما تحتاج إليه ، إلى أن انتصف الليل تقريباً ، وأفاقت أمه بعض الشىء من إغماءتها ، وفتحت عينيها وعرفت أنها فى المستشفى ، وأن العملية ستجرى لها فى الصباح ، أى بعد ساعات ، فنظرت إليه وربتت على كتفه فى حنان أزال كل متاعبه ، ثم أغمضت عينيها ثانية ، بيد أنها بعد لحظات قصار عادت وفتحتهما ثانية ، وسألته وكأنها تريد أن تطمئن : إمام ، من أين جئت بهذه النقود ؟ . .

فجفل الشاب كما يجفل الجواد وقال وشىء ما يكاد يعصر قلبه : إنها إرادة الله . .

— و . . ونعم بالله يا بنى . .

وكأن الأم أحست بما يعانيه ابنها من ألم مميت فنظرت إليه وهى تحس أيضاً بشىء وقالت : هل من سر يخفى على الأم يا إمام ؟ . .

فارتعد الشاب فى مكانه ظناً منه أنها عرفت شيئاً وقال : أى سر . .

— كل هذه الأحزان المتجمعة فى عينيك . .

— من أجلك أنت فقط . .

– الموت بيد الله ، والحمد لله أولا وآخراً ، أليست هذه نعمة كبيرة ، أنني أراك رجلا ، ماذا كنت أنتظر أكثر من هذا ؟

ثم نظرت إليه في نفس الحنان الذى تغمره به ، وتمتمت وهي تدفعه من كتفه بيدها المريضة المرتعشة : قم ، قم يا بنى اذهب إلى بيتك لتستريح . .

– سأبيت هنا فى المستشفى . .

– ولماذا؟ . .

– لكى أكون بجوارك . .

فأغمضت عينيها ، وهي تطبق بأصابعها المتخاذلة على كتفه وكأنها تقول له: كثر خيرك . ومن ثم راحت فى صمت تعالج تلك الآلام التى تكاد تمزق أحشاءها ،وكأنها عجزت عن احتمالها ،ففتحت عينيهامره أخرى وقالت لإمام الذى كان يبكى : هل أتعبك إذا طلبت منك شيئاً ؟ . .

– ليتك تطلبين حياتى ، فقط يكتب الله لك الشفاء ، قولى ماذا تريدين ؟ . .

– فى (البقجة) التى أحضرتها معى من القرية مصحف والدك الذى كان رحمه الله يتبرك به ، فهل تحضره لى أضعه تحت رأسى لعله يخفف عنى بعض هذه الآلام . .

فنهض الشاب سريعاً بعد أن خلص فى رفق ذراعها التى كانت على كتفه ، وأراحها بجانبها على السرير ، وخرج مسرعاً يتخبط فى ظلام الليل ، حتى بلغ البيت ، ودلف إلى غرفته مباشرة ، وأخرج المصحف من قلب البقجة ، ومن قلب بعض الثياب أيضاً ؛ وهو يبسمل ويتلو الفاتحة فى سره ، بيد أنه عندما خرج من الغرفة ، التقى فى الدهليز بشفاعات التى كانت فى طريقها إلى غرفته ، عندما شعرت بمجيئه ، وكانت مرتدية ثوباً جديداً لم يكن قد رآه ، وما إن رأته وهمت أن تقول له شيئاً حتى رأت حسبو أمامها وجهاً لوجه يقبل مترنحاً من الخارج



والزجاجة فى يده ينظر إليها و يضحك ، فغاظها وجوده فى هذه اللحظة ، وقالت له وهى تنظر إليه شزراً : فيم تلصصك على زوج وزوجته فى الظلام ؟ . .

ففهم كل شيء إلا الذى قالته ، ورنت فى أذنه كلمة — زوج وزوجته — كزجاجة وزجاجات — فقال ضاحكاً يرد عليها ، وهو ينظر إلى الزجاجة التى فى يده : لأنني لا أستطيع النوم ، وهى فارغة . .

ثم نظر إلى الشاب الذى أدهشه جدًّا وجوده وقال : شرفت يا سيد بهلول . .

فاغتاظت ودفعته فى عنف حتى كاد يسقط وهى تقول : من اليوم لا أريد لأحد ما أن يمس زوجى بكلمة . . أسامع ؟ . .

— زوجك ؟ . .

نطقها الرجل وهو فاغر فاه يستمع إلى رنين الكلمة فى أذنه ، وكأنه يستمع إلى حكم يصدر بالإعدام على إنسان يعزه . .

— أجل ، زوجى ، زوجى ، وأعلن هذا على رءوس الأشهاد جميعاً ، وهذه قسيمة الزواج إن لم تصدق ، أسمعت . .

فلم يسمع الرجل شيئاً ، ولم ير شيئاً أيضاً ، ثم قالت للشاب وهى تسحبه من يده إلى غرفتها ، وتنظر إلى وجهه الشاحب الذى يقطر صفرة وعرقاً : ما بك ؟ . .

فقال وهو يلقى بجسده على المقعد الذى قبالته : أكاد لا أتمالك جسدى . .

— مم ؟ . .

— لم أنم منذ أول أمس . .

فقالت ، وهى تتناول من على المشجب ثوباً من ثياب النوم التى كانت قد أعدتها له : قم ، قم ، انزع ثيابك لتستريح . .

— لا ، لا ، سأبيت فى المستشفى . .

ــ تبيت فى المستشفى ؟ ! . .

ــ فقط جئت الآن لآخذ هذا المصحف لأمى . .

فقالت ضاحكة وهى ما زالت تنظر إليه : وهل يبيت العريس خارج البيت ليلة عروسه ؟ . .

فتذكر الشاب أنه زوجها ، وقال وهو ينظر إلى الباب الذى سيخرج منه : على الرغم منى . . إنها أمى . .

فقالت وهى ما زالت تضحك وتنظر إليه : أهكذا حتى فى ليلة زواجنا تأبى حماتى إلا أن تطفئ شمعتى . .

فقال الشاب محاولا أن يجاريها فى الضحك : إنها مريضة ، وستكون ليلة زواجنا يوم شفائها إن شاء الله .

ثم حاول أن يخرج فقالت له : اجلس قليلا . .

ــ إنها تنتظرنى . .

ــ تناول عشاءك ثم اذهب إليها . .

ــ لست جائعاً . .

فقالت وهى تقرب المقعد إلى المائدة التى فى وسط الغرفة ، وتجلس عليه : قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب إليها . .

فقال وهو ينظر إلى الطعام الذى اكتظت به المائدة على غير العادة ، بعد أن رفعت الغطاء عنه : ما هذا كله . . إنه يكفى لعدد كبير من الناس . .

فقالت وهى تضع فى الطبق الذى أمامه صدر الديك الرومى الذى كانت تزين به المائدة : عيبك أنك تنسى دائماً .

ــ أنسى ماذا . .

ــ إن هذه ليلة دخلتنا . .

فقال وهو ينهض : سآخذ قطعة من اللحم وكسرة من الخبز . . آكلهما فى الطريق .

ـــ قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب إلى من تريد . .

ـــ هل أنا ذاهب إلى عشيقة . . قلت لك إنها أمي . .

ـــ وأنا زوجتك . .

فاضطرب فى خوف ، وأراد أن يقول لها شيئاً ، ولكنها شدته من ثيابه مرة أخرى ، وأجلسته ، وهى تقول غاضبة بصوت عال : لن تخرج إلا إذا أكلت . .

فجلس فى حنق ومد يده إلى الطعام الذى تمثل له سما ناقعاً وتناول قطعة من اللحم وراح يلوكها بين شدقيه . . ونظراته إلى الأرض لم ترتفع عنها . بيد أنه لم يكد يبتلع اللقمة الأولى حتى استشعرت أحاسيسه لذة الطعام ، وسر هذا المعلمة شفحات الجالسة أمامه . . . تترقبه خلسة ، وازداد سرورها عندما رأت أسارير وجهه تتهلل شيئاً فشيئاً ، وقسمات وجهه التى كان قد طمسها الحزن كما تطمس الأمطار والأوحال الأشياء النظيفة تعود إلى ما كانت عليه من الجمال والإشراق والبهجة ، وازداد هذا السرور وتضاعف حتى كاد يبلغ ذروته عندما تفتحت عيون الشاب واستطاعت أن تبصر المرئيات وتميز بينها ، وتتعرف عليها ، وترى جيداً ثوبها الجديد الذى ترتديه والذى انشق من أمام إلى ما بعد الثديين . والذى انشق أيضاً من خلف حتى كشف عن الظهر كله ، وكاد ينزلق إلى ما فوق الردفين . والذى سألها عنه قائلا وهو ينظر إليه ويتفحصه فى امتعاض : لم أر هذا الثوب قبل هذه الليلة . .

ثم أطبق شفتيه على قطعة من اللحم كانت فى فمه . . كما يطبق الإنسان عينيه على منظر كريه ، ثم حاول أن يقول شيئاً فقال غيره : إنه ثوب جميل على أى حال .

فقامت ناهضة من على المائدة ، وقد اكتملت فرحتها ، واتجهت إلى البوريه قائلة : أعجبك . .

فقال وهو يشيح بوجهه عن ظهرها الذى تعرى أمامه : فقط كنت

أود لو ترتدين ثوباً يحجب هذا العرى . .

فقالت وظهرها ما زال إليه : يحجبه عن من ؟ . .

ـــ عن العين !

ـــ حتى لو كانت عين زوجى . .

ثم استدارت إليه حاملة زجاجة من النبيذ تفرغ منها فى كأسين وتقدم له إحداهما :

ـــ ما هذا ؟

ـــ عصير العنب .

فقال فى ذعر : لا . لا . لن أشرب .

ـــ ولكنك كنت تشرب . .

ـــ إننى أصلى منذ ثلاثة أيام .

فقالت فى غضب وصوتها يتخذ صفة الجد : قلت لك إنه عصير العنب .

ـــ إنه مسكر ، وكل مسكر حرام ، وأنا أصلى كما قلت لك .

ـــ وأريدك أن تصلى كل يوم ، وأنا أيضاً سأصلى معك كل يوم . ولكنى لا أريدك أن تموت .

ـــ أموت !

نطقها الشاب فى خوف ، فلم تلتفت إلى قوله ، وإنما استطردت فى نفس الغضب : انظر إلى عينيك الغائرتين . . انظر إلى وجهك المصفر . . انظر إلى سحنتك المغبرة التى تشبه سحنة الأموات . . انظر إلى رقبتك وقد نفرت عليها عروقك الزرقاء ، فغدت كالثعابين التى تسبح على ماسورة فى الليل . . إنك . . إنك تموت فعلا .

فقال الشاب مضطرباً جداً وهو ينظر إلى الكأس التى فى يدها : لكن ما علاقة هذا بالخمر . .

ـــ ليست هذا خمراً وإنما هو دواء . لو أردت أن أسقيك خمراً

كما تظن بحثت لك بالخمر التى تحبها ، بالكونياك الذى كنت تشرب منه حتى تفقد وعيك .

— و . . و . . ولكن .

— ولكن اشرب . . وقم اذهب إلى أمك التى تنتظرك فى المستشفى .

فتناول الكأس من يدها سريعاً ، وأفرغها فى جوفه مرة واحدة ، ووقف ليخرج ، بيد أنها اعترضته وهى تملأ له الكأس الثانية : اشرب هذا أيضاً .

— أيضاً ؟ !

— اشرب . .

— . . . . . .

— وأيضاً هذه . .

— إن رأسى يدور . .

— اشرب . .

— . . . . . .

— هذه وكفى . .

— أيضاً . .

— اشرب . قلت لك .

ولما شرب الكأس الرابعة ، أجلسته وجلست بجواره وهى تقول : وما رأيك لو ذهبت معك إلى المستشفى ؟

فقال فى دهشة : تذهبين معى إلى المستشفى ؟

— أليست أمى أيضاً هى المريضة هناك ؟

— ولكن أين ستبيتين ؟

— كما ستبيت أنت .

— أنا سأظل ساهراً .

ثم ألقت برأسها على كتفه ، وقالت وهى تعبث بأصبعها فى أذنه التى تغمرها أنفاسها الدافئة : لن أدعك تخرج وحدك .

ـ كما تشائين .

فنقلت أصبعها من أذنه ، وربتت على شفتيه وهى تقول : لحظة . أرتدى ثيابى .

وتركته وذهبت إلى الدولاب . وأخرجت بعض الملابس الداخلية ، وثوباً غير الذى ترتديه ، وحملت كل هذا على يدها واتجهت إلى البوريه ، وقالت وهى تنظر إليه ضاحكة . وتمد يدها إلى المصباح : سأطفئ النور .

ـ لماذا ؟

ـ حتى لا ترانى عارية وأنا أرتدى ثيابى .

وأدارت مفتاح المصباح الزجاجى شمالا بعض الشىء ، فانخفض نوره ، وخفتت ذبالته التى راحت تتهافت وتتراقص فى شحوب أحال كل ما فى الغرفة إلى خيالات لا تكاد العين تميزها ، ثم ذهبت إلى جانب السرير بجوار الحائط وراحت تنزع ثيابها ، وتقول له كلما رأت ظلال جسدها الذى يتعرى رويداً تمتد على الأرض موضحة كل شىء : أغمض عينيك .

ـ إننى لا أرى شيئاً .

ـ بل ترى .

فقال وهو ينظر إلى تلك الظلال التى تمتد أمامه موضحة كل شىء : الحقيقة أننى أرى .

ـ ترى ماذا ؟

ـ أرى أننى فى حاجة إلى كأس أخرى .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى أريد أن أنام .

ـ وأنا أيضاً .

وظلا يسبحان فى نوم عميق، حتى أطل عليهما من النافذة شيء أبيض ، أما هو فقد تبين فيه وجه الصبح ، وأما هى فلم تتبين شيئاً ، لأنها كانت لا تزال منسحقة تئن من فرط ما وهبت طوال الليل .

وفتح الشاب عينيه مرة أخرى ، وراح يتلفت حوله بدون أن يصدق شيئاً مما يرى . . وفتح عينيه مرة ثالثة وراح يلتفت حواليه . . حقيقة أنه نهار . . وحقيقة أنها شمس . . وحقيقة أيضاً . . أن هذه بقايا طعام . . وهذه بقايا خمر . . وهذه أيضاً . . ملابس نسائية ملقاة ذات اليمين . وذات الشمال . . وحقيقة أيضاً أن هذه . . غرفة . . وهذا سرير . . وهذه . . امرأة .

وهبّ الشاب مذعوراً كمن لدغته أفعى ، وارتدى ثيابه فى عجلة لا حد لها ، ومن ثم انطلق كالسهم خارجاً ، بيد أنه فجأة عند الباب وقف مرتعباً مأخوذاً ، ينظر بعينيه الجاحظتين إلى شيء رهيب أمامه . . شيء يخاف أن يمسه، أن يلمسه ، ولكنه لا يستطيع أن يخرج بدونه ، إنه جاء ليلة الأمس من أجله . إن أمه أرسلته ليجيء لها به . فإذا هو . . إذا هو ماذا ؟ ؟ وجحظت عيناه مرة أخرى ، وهو يخرج من جيبه منديلا نظيفاً يضعه على المصحف حتى لا تلوثه يداه . . ومن ثم خرج سريعاً ، وذهب إلى المستشفى ، ولكن بعد الساعة السابعة ، وهو الموعد المحدد لإجراء العملية .

وراح يصعد درجات السلم فى جنون ، وانطلق إلى الغرفة التى فيها أمه كالسهم ، ولكنه وجد الغرفة خالية ، ووجدهم قد نقلوها إلى غرفة العمليات ، وهولا يعرف أين تقع غرفة العمليات فى المستشفى ، ورأى إحدى التمورجيات تقبل على الغرفة الواقف على بابها . تحمل أثاثاً جديداً ، من أثاث غرفة المستشفيات ، فسألها على الفور : أين تقع الغرفة التى تجرى فيها العملية لأمى ؟

فقالت التمورجية ، وهى تدلف إلى الغرفة ، لتبدل أثاثها بدون أن تقدر على النظر إليه : البقية فى حياتك !

٢٥

— إن لم يخنى ذكائى فأنت الست سلوى .

— وكيف عرفتنى ؟

فقال محمدين : حدثنى عنك إمام أفندى كثيراً وأرانى صورتك . إنه يحبك جداً .

فقالت الفتاة وهى تنظر إلى الأرض فى خجل : شكراً ، وأين هو ؟

— ألم يذهب إليكم ؟

فقالت وهى تحاول ما استطاعت أن تحبس دموعها : كان عندنا من ثلاثة أيام . وقال إنه سيعود فى الصباح ، وإلى الآن لم يعد . وكنت أسمعه يذكر اسمك ، ويردد اسم لوكاندة المدينة المنورة ، فجئت أسألك عنه ، خشية أن يكون الذى أقعده الآن ، هو الشىء نفسه الذى أقعده ستة أشهر . .

— حقيقة أن أمره غريب . منذ ثلاثة أيام كما تقولين جاءنى بعد أن انصرف من عندكم ، وأعطيته مفتاح السكن الجديد الذى استأجرته له هنا بجوار اللوكاندة ، واستأجرت له عربة كارو لينقل عليها متاعه ، وإلى الآن لم أره .

— وأين يقع المنزل الذى يسكنه الآن ؟

فوصفه له محمدين وصفاً دقيقاً ، ثم قال وهو يودعها إلى ما بعد اللوكاندة : معذرة . ولولا أننى فى اللوكاندة وحدى ولا أستطيع تركها ، لذهبت معك .

— شكراً .

وانصرفت الفتاة تحمل حقيبة كتبها التى خرجت بها من المدرسة ، وذهبت إلى ميدان باب الخلق ، وراحت تسأل عن سلالم السبيل . وزقاق الحنابنية ، والسيرجة التى فى نهايته ، ووقفت أمام الخوخة ، وشعرت باضطراب وهى تمد يدها إلى الجنزير الملتف على الخوخة ، كما تلتف السلاسل على باب سجن من السجون ، بيد أنها لم تكد تفعل ، حتى فوجئت بامرأة أمامها ، تقف شبه عارية فى ثوب قد انشق من أمام حتى أسفل الثديين . وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر كله ، وانزلق إلى ما فوق الردفين ، فارتدت نظرات الفتاة عنها سريعاً فى دهشة زائدة وخجل مربك ، وازدادت هذه الدهشة كثيراً عندما سمعت الفتاة هذه المرأة ترحب بها ترحيباً حارًّا وكأنها تعرفها : أهلا ، أهلا . خطوة عزيزة يا حلوة . . اتفضلى .

فقالت الفتاة فى ارتباك بدون أن تقوى على النظر إليها : حضرتك تعرفينى ؟

— ومن ينكر القمر ، أو يخفى الشمس ، أو ينسى الصورة التى لا توضع إلا على القلب ، ولا تحفظ إلا فى المصحف ؟

— صورة من ؟ ؟

— صورة التلميذة المؤدبة الجميلة ، ابنة المدارس . .

— من أنت ؟ !

فقالت بدلال ، وهى تنظر إليها بنصف عين ، وتضحك ضاغطة على اللبانة التى بين شدقيها ، فتبرز عمق فجوة الغمازة التى على الخد : عشيقة . . مغرمة . . متيمة . خاصم النوم عينى ، وأضنى السهر قلبى . . مثلك تماماً وحياتك .

فقالت الفتاة فى ذهول لا حد له : مثل من تقولين ؟

— مثل التلميذة ابنة المدارس ، التى ما زالت بالفيونكة والجورب الأبيض ، والحبر يلوث أصابعها ، وتعشق الشبان ، وتتمرغ فى أحضانهم ،

ولا تخجل من أن تقتحم عليهم بيوتهم وتسأل عنهم . .

فقالت الفتاة لاهثة الأنفاس ، والدموع فى عينيها : أى بيوت ؟ وأى شبان ؟ إننى أسأل عن إمام .

— وأنا أيضاً أحدثك عن إمام .

فصرخت الفتاة بدون أن تصدق : أنت تعرفينه .

فقالت وهى تضحك ضحكة عالية رنت فى فناء الدهليز . . واخترقت أذن حسبو النائم فى غرفته يحتضن الزجاجة ويضحك : إنه زوجى . . فكيف لا أعرفه ؟

— زوجك ؟

نطقتها الفتاة مشدوهة ، وهى تنظر إليها هذه المرة ، وتتأمل كل شىء فيها . ولما لم تنطق ثانية قالت لها شفعات ضاحكة : مالك تنظرين إلى هكذا ؟ ألا تصدقين ؟

— أجل . لا أصدق . وأنت كاذبة . . كاذبة .

فلم تثر ولم تغضب ، وإنما استغرقت فى الضحك ، وهى تمد يدها إلى صدرها العارى ، وتخرج شيئاً من بين الثديين ، وتقول : اتفضلى يا حلوة . اقرئى قسيمة الزواج .

ولماطالت نظرة الفتاة ، وطال تأملها ، وطال أيضاً وجومها ، قالت شفعات ، وهى تضحك مرة أخرى : إن جئت ثانية فسوف أشترى لك نظارة معظمة . لكى ترينى جيداً .

ثم عقبت وهى تغلق الخوخة فى وجهها وتلف عليها الجنزير : مع ألف سلامة . . يا حلوة !

٢٦

استدارت المعلمة شفعات إلى غرفتها ، بعد أن طردت الفتاة ، وأغلقت باب الخوخة فى وجهها ، ولفت عليه الجنزير ، وراحت تقطع فناء الدهليز تصغى فى نشوة زائدة إلى صوت البلابل السبعة التى تنبعث من القبقاب المطعم بالصدف ، مختلطة بصوت قرقعة اللبانة التى بين شدقيها ، والتى كلما ضغطت عليها برزت واستدارت ، ولاح عمق الغمازة التى على الخد . . بيد أنها لم تكد تسير بضع خطوات ، وتتجه إلى غرفتها ، حتى حانت منها التفاتة عابرة إلى السيرجة ، فرأت بهلول ، واقفاً فى مكانه لا يتحرك . يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال . . وقد سقطت العصابة عن عينيه ، فراحت تنادى بأعلى صوتها : حسبو . . يا زفت يا حسبو . . يا هباب . . يا حسبو .

وكان الأستاذ حسبو فى غرفته مستلقياً على فراشه الخشن بملابسه : البنطلون الذى لايعرف له لون ، والصديرى (الألاجة) الذى لم يبق فيه غير أزراره الستة الغالية تغالب الزمن لتبقى على الأصل القديم والمجد الدارس ، وقد عقد منديله المحلاوى على رأسه الذى وضعه مع نصف ظهره على حافة الوسادة ، ووضع على النصف الآخر الذى عليه الصدر مؤخرة الزجاجة ، لأن مقدمتها كانت فى فمه . وكان مخموراً لا يكاد يفقه ، ولهذا ترامى إليه صوت المعلمة ، وصراخها الذى ينبعث من الدهليز ، ترامى إلى أذنيه أشبه بهمس لذيذ فى حلم أبيض جميل ، ولهذا لم يرد ، وكل الذى فعله أنه رفع الزجاجة إلى ثغره وهو يضحك ، وأفرغ منها عدة جرعات فى جوفه وهو يضحك ، ثم أعادها وهو يضحك أيضاً . ويواصل أغانيه التى تعود أن يغنيها بصوت عال كلما أسرف فى الشراب ، وراح يأتى بكلمة منغمة من هنا ، وكلمة مسجوعة من هناك ، وشطرة من

موال ، وشطرة من موال غيره . . وظل كذلك إلى أن اقتحمت المعلمة عليه باب الغرفة فجأة فى عنف كالهول ، أو كالصاعقة ، فلم ينطق ، ولم يتحرك ، أو تطرف له عين . وما إن رأته فى منامته هذه مخموراً ، والزجاجة على صدره يحتضنها ويضحك حتى انفجر مرجل غضبها ، ودوى صوتها فى قلب الغرفة صارخاً : أطرش ؟ . . فقدت سمعك ؟ . أصبت بالصمم ؟

فلم يسمع شيئاً مما قالت . ولم يتحرك أيضاً من مكانه ، وإنما تعلقت نظراته بقميصها الخفيف ، الذى انشق من أمام حتى أسفل الثديين وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر ، وانزلق إلى ما فوق الردفين وأنساه هذا كل شىء ، إلا الزجاجة التى فى يده ، والغناء الذى يغنيه . ولذلك راح ينظر إليها ، وهو يرفع الزجاجة إلى ثغره ويشرب ثم أعادها إلى مكانها من صدره ، وهو ينظر إلى الوردة الحمراء التى تدلت مع القرط الذهبى فوق الكتف العارية ، ويردد مواصلا الغناء :

يا رابطة على الصدر   وردة فى مكان حساس

فاحتدم غيظها ، وهجمت عليه ممسكة بالزجاجة من يده لتلقى بها فى الأرض . . لتحطمها ، ولكن أصابعه الخشنة تكالبت على الزجاجة ، وراح يشدها من يدها ، فى قوة وخوف وهو ينظر إلى جسدها العارى والوردة الحمراء التى تروح وتجىء على الكتف العارية ، ويقول ضاحكاً وهو يشد منها الزجاجة : السولار يا ست . . البنزين يا معلمة . الجاز الوسخ يا عروسة الشباب .

فبرقت عيناها وهى تصرخ وتشد منه الزجاجة فى قوة هائلة : أعطنى هذه الزجاجة .

— لماذا يا عروسة . . يا زوجة الأفندى ؟

— أحطمها . لن تشرب الخمر بعد اليوم .

— الماكينة تقف . . تتعطل . . الدينامو . . ما يشتغلش . . حرارته تبرد . . الكهرباء تروح !

فضغطت بكل قوتها ،وكل ثورتها أيضاً تشدها منه . ولما لم تستطع انتزاعها من بين يديه تركتها فجأة ، فدفعته شدة الجذب إلى الوراء ، فسقط على ظهره فوق الأرض ، والزجاجة بين يديه ، فنظرت إليه وهو مستلق أمامها على الأرض ، وغلبها الضحك . وكادت تضحك لولا أنها قالت ، وهى تنظر إليه وتزم شفتيها : قم اذهب إلى بهلول . .

— أى بهلول فيهم ؟ . . بهلول الزوج ، أم بهلول الحمار ؟

فاحتقن الدم فى وجهها على الفور ، واندفعت إليه كاللبؤة ، تركله بقدمها فى قلبه وصدره ركلات موجعة وهى تقول فى غيظ يشبه الجنون : قلت لك ألف مرة لا تذكر اسمه على لسانك . . لقد أصبح زوجى . . زوجى . . أفهمت ؟

فأراد أن يقول لها شيئاً . يقول لها . . كفى عن الضرب . . يقول لها ضرباتك توجعنى . . تميتنى . . يقول لها إن كان لا بد من الضرب فليس بالقبقاب . . وإن كان لا بد من الضرب بالقبقاب ، فعلى الأقل يكون لغير هذا السبب !

أراد أن يقول لها هذا أو بعضه ، ولكنه رأى مرة أخرى الوردة الحمراء التى تدلت مع القرط الذهبى وخصلة ناعمة من الشعر الفاحم ما زالت تروح وتجىء فوق الكتف ، فتذكر أنه كان يغنى ، فقال مستطرداً يغنى وهو يضحك ، وعينه عالقة بالوردة لم تتزحزح عنها :

يا رابطة على الصدر وردة فى مكان حساس

وكأن هذه الكلمات انصبت ناراً فى أذنيها ، فانقضت عليه فى هول هائل ، وأنشبت أظافرها فى عنقه ، فخاف وارتعد ، وأفزعته رؤية ذلك الوجه الذى لم ير له مثيلا بين الوجوه ، وأرعبته رؤية تلك الأذرع التى تتلوى أمامه كالثعابين الضخمة زاحفة إلى عنقه لتطبق عليه ،

وروعته رؤية ذلك الرأس الذى يشبه رأس الأفعى الزرقاء تدنو منه لتعضه بأنيابها الحادة، فأغمض عينيه ، وهو يرفع ذراعه سريعاً إلى أعلى . . وظل يرفعها . . ويرفعها . . ويرفعها ثم هوى بها فجأة على ذلك الرأس ، فترنحت الأفعى على الفور ، وركنت إلى الحائط تتلوى خائفة أن تسقط . ولكنه . . فاجأها من الخلف بضربة أخرى أسقطتها أمامه على الأرض . ولما نظر إلى يده ، ووجد أن الزجاجة ما زالت فيها ، وأنها لم تتحطم بعد ، وإنما الذى تحطم هو رأس الأفعى ، ابتهج ضاحكاً وهو يحتضن الزجاجة ويخرج . بيد أنه عند الباب أحس أن ذيل الأفعى ما زال يتحرك ، فرجع إليها فى هدوء وراحة بال كان لا يعرف أن لهما وجوداً فى قلوب الناس . . وجلس أمام رأسها فى الهدوء نفسه . . وأغمض عينيه . . ومن ثم راح — والهدوء نفسه يرفع ذراعه إلى أعلى . . ويهوى بها على الرأس . . ويرفعها إلى أعلى ويهوى بها على الرأس . . وظل يرفعها إلى أعلى ويهوى بها على الرأس . . ولما فتح عينيه بعد حين . . ولم ير أمامه غير كتفين اثنتين فقط لا شىء بينهما . . ازداد هدوؤه . . وانفرجت أساريره، ونهض مطمئناً . . بيد أنه وهو ينهض رأى شيئاً فوقف ينظر إليه ، ويتأمله جيداً ، ولما عرفه مد يده إليه وأخرجه من وسط بركة من الدماء كانت أمامه . ومن ثم انصرف به من الغرفة واخترق به الدهليز . وفى الزقاق راح يتأمله ثانية على ضوء النهار . . ويتفحصه جيداً على نور الشمس الساطعة ، فإذا به وردة حمراء كانت فيما مضى تروح وتجىء على كتف كالبلّور . . فابتسم . . وضحك . . وظل يضحك وهو واقف . ويضحك أيضاً وهو يسير . . إلى أن بلغ سلالم السبيل فراح يهبط درجاتها على مهل . درجة درجة وهو يضحك . . يهبط درجة ثم يضحك . . ويهبط درجة . . ثم يضحك . . ويهبط درجة . . ثم . . يضحك !

(تمت)

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٣٨٢ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

